ديريك جنسن

السير فوق الماء

القراءة والكتابة والثورة

ترجمة سمير عبد ربه

السير فوق الماء

القراءة والكتابة والثورة

تأليف

ديريك جنسن

ترجمة

سمير عبد ربه

هنـــداوي

السير فوق الماء

ديريك جنسن

Walking on Water

Derrick Jensen

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٢ ٣٣٣٥ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الإنجليزية عام ٢٠٠٤.
صدرت هذه الترجمة عام ٢٠١٣.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الأستاذ سمير عبد ربه.

المحتويات

أمة من العبيد	٧
كيفية عدم القيام بعملية التدريس	١٥
لا تجعل القارئ يشعر بالضجر	٢٥
من أنت؟	٣٩
أهم التدريبات على الكتابة	٤٩
الدرجات	٦١
الحب	٧٣
التفكير	٨٥
الاختيارات	٩٣
المعنى والدلالة	١٠١
التخلي عن السيطرة	١٠٩
من أنت للمرة الثانية؟	١١٩
الوضوح	١٢٥
الوقوع في الحب	١٣٧
الثورة	١٤١
السير فوق الماء	١٤٧
المراجع	١٥٩

أمة من العبيد

«تقوم المدرسة — بطريقة بطيئة وتدريجية — بغرس ثقافة الخوف من الفشل داخل النفس والذهن، والعمل على تكريس الثقافة الكاملة لكل الأشياء السخيفة المنافية للعقل.»

جولز هنري

* * *

إن كثيرًا من الناس الذين أعرفهم يعلمون عن يقين بأنني دائمًا ما أحببت المعرفة، وكثيرًا ما رغبت في التعلم، ومعظم أولئك يعرفون أيضًا الحقيقة المتمثلة في كراهيتي للمدرسة ... كيف ولماذا؟

إن الإجابة واضحة بالنسبة لي الآن، وهي أنني لم أحب ما كنت أتعلمه، ولم تكن مشكلتي الأساسية تتمثل في المواد التي ندرسها، لقد تعلمت الأرقام بنفسي قبل التحاقي بالمرحلة الأولى من التعليم واستطعت بذلك متابعة نتائج مباريات البيسبول، وكنت — في المرحلة الثانية — أكتب المسرحيات القصيرة، إنه شيء ما مختلف وأكثر عمقًا!

واحدة من الصعوبات التي تواجهنا أثناء التفكير أو الحديث عن مشكلات نظامنا التعليمي هي أننا نفترض دائمًا أن الغرض الأساسي من المدرسة هو مساعدة الأطفال على تعلم القراءة والكتابة والقيام بفروض علم الحساب.

ذلك خطأ غير قابل للفهم، لكنه واحد من الأخطاء التي نعمل على تكرارها، وهكذا نجد أنفسنا مندفعين نحو الخطر. وفيما يتعلق بأساس العملية التعليمية أكثر من كونها مجرد تلقين للكتب، أو حتى مجرد تطوير للشخصية، فإنها تقدم للأطفال الأدوات التي

يستطيعون استخدامها في الحياة بعد التخرج للاندماج داخل العالم الحقيقي، كما تعلمهم كيفية الاندماج في ثقافتنا ليصبحوا أعضاء فاعلين في تلك الثقافة. غير أن تلك العملية التعليمية لا تأبه بنوعية تلك الأدوات، ولا بالكيفية الصحيحة في تكوين أعضاء لتلك الثقافة. وبكلمات أخرى، قد يكون من الأجدر في عملية التعليم أن نتساءل ونبحث عن الطريقة التي نتعلم بها الخلق والابتكار.

كانت تجربتي الخاصة الأولى في المدرسة مملة للغاية، كنت أجلس — سنة بعد أخرى — في آخر مقعد بالفصل وأنا أراقب اليد الثانية وهي تتحرك ببطء شديد، ولا أستطيع أن أخبرك كم عدد المرات التي كنت أحسُب فيها الثواني حتى ينتهي اليوم الدراسي، ثم بقية الأسبوع، وهكذا حتى ينتهي العام الدراسي بأكمله، وهكذا انطبعت في ذهني أهمية علم الحساب، وعندما كان يصيبني الملل، وخوفًا من الانفجار في نوبة من الضحك لا أستطيع السيطرة عليها، كنت أتعمد السخرية بطريقتي الخاصة، كما كنت أفعل غالبًا حين أقرص فخذي بأصابع يدي حتى يصطبغ الجلد باللون الأحمر، وأحيانًا كنت أقرص خدي حتى ينسلخ الجلد عن عظام الخد، كنت أتنقل من العبث بخدي الأيمن إلى الأيسر مستندًا على أردافي في محاولة مني للإبقاء على يقظة قدمي خوفًا عليها من «التنميل»، وكنت أقوم بتسريب الكتب إلى داخل الفصول وأضعها فوق ركبتي لكي أقرأها. ثم علمت نفسي لغة الإشارة الأمريكية للتواصل — بطريقة صامتة — مع أحد الأصدقاء في صف آخر، حتى لو لم يكن هناك ما يستدعي القول سوى إخباره بأنه شخص تافه مثلًا. لقد عرفت الوقت الذي أستطيع فيه أن أتحكم في أنفاسي، وحساب عدد المرات التي يقول فيها المدرس خلال ساعة واحدة: «هاام» أو «أوكيه».

ما زلت أتذكر عدد المرات التي وصلت إلى مائتين وخمس عشرة مرة كرر فيهم المدرس بشكل لافت للنظر كلمتي «هاام» و«أوكيه»، كما لا أستطيع أن أنسى ذلك العالم المتمثل في الكتاب الذي وضعته فوق فخذي في ذلك اليوم. أما أحد أهم الأشياء التي تعلمتها فكان هو كيفية إضاعة الوقت.

تعلمت أيضًا أن أنسى حياتي، وأذكر ذات يوم من أيام الربيع، وأنا في المرحلة الثامنة، حين كنت واقفًا في ملعب الكرة مع صديق جديد لم أعد أتذكر اسمه، وأخبرته بأنني لم أستطع الانتظار حتى الشهر القادم للانتهاء من ذلك العام الدراسي وبداية إجازة الصيف.

نظر إلى وجهي بارتباك وقال لي كلامًا، من الواضح أنه سمعه من والديه: أنت تنسى الشيء الوحيد الذي حصلت عليه.

عرفت في الحال أنه كان على صواب، غير أن ذلك لم يغير من حقيقة ما كنت أتمناه.

وماذا أيضًا تعلمت؟ تعلمت ألا أتحدث بطريقة غير مُرتَّبة ويغلب عليها التشوش، وألا أتوجه بالأسئلة إلى أصحاب أي سلطة من السلطات إلا بطريقة مراوغة خوفًا — على الأقل — من حرماني من الاستمتاع بالفسحة ووقت الفراغ، أو من الحصول على بعض الدرجات فيما بعد. لقد تعلمت أن أتجنب البوح بكل الأسئلة الصعبة التي لا يتحملها المدرسون وتصيبهم بنفاد الصبر، وتعلمت بالتالي ألا أتوقع أبدًا الحصول على إجابات مناسبة. تعلمت أيضًا محاكاة المدرسين وهم يعبرون عن آرائهم ويشرحون وجهات نظرهم، وعرفت كيفية استنباط الحقائق وتفسيراتها من الكتب المدرسية، سواء راقتني تلك الحقائق وتفسيراتها أم لا. تعلمت قراءة صور السلطة المختلفة، وعرَفت بالتالي أن أقدم لهم ما يريدونه، وأن أتودد إليهم كلما كان في الأمر مصلحة لي، تعلمت باختصارٍ أن أخون نفسي وأقوم بتعريتها.

تحدثت مع بعض الأصدقاء، ممن كانوا يشعرون تجاه المدرسة بمثل ما أشعر، وكان الشعور المؤكد الذي يعانون منه هو القلق بديلًا عن الضجر والملل، فلم أكن أنا الشخص الوحيد الذي ظل طوال عشرين عامًا يحلم ويفكر بقلق وعمق — كما فعلت مرة أخرى منذ شهر مضى — في الأسبوع الأخير من العام الدراسي، وفي امتحان المواد التي لا أعرفها أو تلك التي لا أحبها أو أهتم بها.

ليس من الصواب أن نتحدث عن التعليم دون الحديث عن التنشئة الاجتماعية، كما أنه لا يمكن الكلام عن التنشئة الاجتماعية دون التطرق إلى ذكر المجتمع نفسه والقيم التي يتمتع بها ذلك المجتمع. نحن نسمع الكثير من الكلام الفارغ الذي لا معنى له؛ مثل الحديث عن مدى بشاعة الحقيقة المتمثلة في عجز طلاب المرحلة الثانوية عن تحديد موقع الولايات المتحدة على خريطة العالم (التي يجب أن تكون أمرًا غاية في السهولة)، أو تحديد القرن الصحيح الذي حدثت فيه الحرب الأهلية في أمريكا، أو ذكر أسماء أعضاء الإدارة الأمريكية. لقد أخبرونا أن الاختبار الموحد يجب أن يكون مفروضًا على الجميع للتأكد من تلقين الطلبة معايير موحدة يستطيعون من خلالها — فيما بعد — أن يكونوا مستعدين لمواجهة العالم الذي هو نفسه يتوجه إلى مزيد من التوحد. ولم يسألنا أحد بالطبع عن مدى صحة توحيد الأطفال (عفوًا، أقصد الطلاب) والمعرفة أو العالم الأكبر.

لا شيء من ذلك، لا الخرائط ولا التواريخ أو الأسماء، وليست الاختبارات في الحقيقة هي النقطة الجوهرية على الإطلاق، إن المدرسة تقع في مغالطات وأخطاء كبيرة حين يلقنون الطلبة بالمعلومات ولا يعلمونهم السلوكيات وحسن التصرف.

نسمع كثيرًا أو قليلًا وبشكل ثابت أن المدارس تفشل في مهمتها، ولا شيء يمكن أن يكون أكثر خطأ من ذلك التصور، فالمدارس تنجح في كل شيء بطريقة جيدة، وتقوم بإنجاز أهدافها بدقة، ولكن ما هدفها الأساسي؟

للإجابة على هذا السؤال لا بد أن تسأل نفسك أولًا عن القيم التي تشكل المجتمع المطروح فيه السؤال، إننا لا نتحدث عن تلك القيم، غير أن الحقيقة هي أن المال يسمو فوق كل قيم المجتمع الأخرى؛ لأنه يمثل القوة، ولأنه أيضًا يمنحنا الوهم بأننا قادرون على الحصول على كل ما نستطيع، إن واحدة مما يتطلبه الحصول على المال هو كيفية اكتسابه.

غالبًا ما نُضطر إلى خيانة أنفسنا بأي شكلٍ من الأشكال وتقديمها إلى أي شخص يملك المال، في مقابل الاستفادة بالقليل منه؛ المؤسسات، الرجال من أصحاب السيارات الفارهة، السيدات اللاتي يرتدين أزياء تفوح منها رائحة القوة والنفوذ، وأولئك المدرسين الذين لا يملكون المال وإنما يملكون، في نطاق الفصل، القوة اللازمة المقابلة لقوة المال. نحن نعيش في ثقافة تعتمد على الوهم والضلال والمظاهر الخادعة، والتعليم هو السبب الرئيسي في تكريس ذلك الوهم، وفي التأكيد على أن السعادة تقع خارجنا، وأن أولئك الذين يملكون القوة هم وحدهم من يستأثرون بالسعادة.

كثير منا كان يتوقع — خلال فترة الرشد — أن يحصل على العمل المناسب في الوقت المحدد وليس قبل أن يدق جرس النهاية، كنا ننظر إلى الساعة ونحسُب الثواني حتى يحين موعد الانصراف في الخامسة، ونحسُب الوقت حتى يحين يوم الجمعة ويوم الحصول على الأجر، ثم نعاود حساب الوقت لمعرفة موعد يوم التقاعد؛ حيث يعود وقتنا مرة أخرى ليصبح ملكنا، كما كان من قبل ونحن في الحضانة أو في مرحلة ما قبل المدرسة. آه، كل هذا الانتظار! أين نتعلم كل هذا الانتظار؟

كان من المتوقع أيضًا أننا سنكون مواطنين صالحين، وأولادًا وبناتًا صالحين، وأن كل شيء سيكون على ما يرام، ولم نعترض، كما لم يساورنا أي شك حول مفهوم الوطن والله والرأسمالية والعلم والاقتصاد والتاريخ وسلطة القانون، ولم يحدث أن اختلفنا أو تجادلنا بشأن تلك المعاني، لكننا كنا نذعن ونستسلم — في كل تلك المجالات — إلى الخبراء والمختصين، وكنا نواصل الإذعان كما علمونا في جميع المراحل التعليمية.

وماذا عن المختصين والخبراء أنفسهم؟ كان من المتوقع أنهم سيلعبون دور الرقيب الذاتي بمهارة، وكان من المفترض أنهم يعرفون دائمًا نوعية الطلاب الذين يتوجهون إليهم بالأسئلة، ويفهمون المغزى من وراء كل سؤال، وما الأسئلة التي لا ينبغي طرحها، والأهم من ذلك ما الموضوعات التي يجب التطرق إليها على فترات متباعدة.

إذا ما سارت بنا الأمور على نحو جيد فإن أحدًا منا لن يسأل أبدًا كيف أن مجالات الدين والرأسمالية والعلم والتاريخ والقانون قد أضافت نوعًا من الزخارف على حياتنا الخاصة حتى لا نكشف عن أسرار حياتنا.

وهنا أود أن أطرح بعض الأسئلة التي راودتني مؤخرًا، ولعل أهمها: ما تأثير العملية التعليمية على الإبداع والابتكار؟ كيف تشجع العملية التعليمية التميز والتفرد الخاص بكل طفل ممن يملكون الموهبة؟ وهل يشعر الأطفال والتلاميذ والطلبة بالسعادة في ظل العملية التعليمية؟ وهل ثقافتنا ككلٍّ تساهم في توليد جيل جديد من الأطفال السعداء؟ ما الذي يتعلمه كل طفل جديد طوال سنوات التعليم حتى يستطيع في النهاية أن يقدم شيئًا للعملية التعليمية؟ كيف تساهم المدرسة في الحفاظ على كل طفل والحرص على تنمية مواهبه ومساعدته في أن تجعل منه ما يجب أن يكون عليه؟

كنت في مكتبة سبوكين بواشنطن منذ عامين، وكان أحد الزائرين يقود مجموعة متمردة من المراهقين، ودخل بهم من الباب الأمامي حتى وصلوا إلى لائحة برامج الكمبيوتر، حيث استدار بهم ناحية أكثر أمناء المكتبة شعبية (كما يعتقد هو)، كان شابًّا يرتدي قميصًا ذا نسيج صوفي خفيف مطبوع عليه أشكال مربعة، وكان الشاب يعقد شعره على شكل ذيل حصان، لكن مجموعة الأولاد عبروا عن استيائهم، فكان من الواضح أنهم قادمون من أحد السجون أو المعتقلات أو أي من مراكز التأهيل، وربما كانوا قادمين من أحد المدارس التي أرسلتهم إلى هنا كنوع من العقاب، بعد أن تسببوا في كثير من المشاكل.

أشار أمين المكتبة إلى نهاية الصف وقال: أخبروني بالموضوع الذي ترغبون في الاطلاع عليه.

لم يتكلم أحد، فقال الشاب: أي شيء، ما عليكم سوى إخباري بما تريدون قراءته وسوف أجد لكم ما تريدون.

استطعت أن أرى من مكاني المتميز في الناحية الأخرى من الصف واحدًا منهم وقد بدا عليه الاهتمام والرغبة في القراءة، وبدا أنه يفكر قائلًا لنفسه: أستطيع أن أبحث في أي موضوع.

كان الفتى يرتدي بنطالًا من الجينز الفضفاض، وبدا أنه من أصل إسباني، وكان يضع منديلًا كبيرًا مزدانًا بالرسوم فوق رأسه، وله لحية كلحية التيس، كما يفعل أمثاله ممن هم في عمر السادس عشر. بدأ يقول شيئًا ثم توقف، وكان الجميع ما زال صامتًا، وفي النهاية رفع يده وقال: هل لديك كتاب عن البنادق أو المسدسات أو أي نوع من الأسلحة النارية؟

نظر إليه الشاب ذو الشعر المتدلي كذيل الحصان، فكرر الفتى سؤاله بصوت واضح، وكأن أمين المكتبة الشاب لم يسمعه في المرة الأولى: نعم، أسلحة نارية!

ضحك الجميع، وراح الفتى يحدِّق للحظة قبل أن يخفض رأسه ويذهب بعيدًا. وهنا استطعت القول بأنه كان يرغب في امتلاك بندقية أو مسدس في ذلك الوقت لإحداث ثقب فوق شاشة الكمبيوتر، وتمنيت ساعتها لو أنني أمتلك أحد الأسلحة النارية لتقديمها له ومساعدته في تنفيذ رغبته.

شاهدت فتاة شقراء عند الجانب الآخر وهي ترفع يدها، ثم سمعتها وهي تقول: حيتان!

قال أمين المكتبة وهو يدون ما سمعه: حيتان!

وهكذا فإن الأطفال والفتيان يكنون كراهية كبيرة للمدرسة.

تطرقت في البداية لموضوع التعليم في كتابي The Language Older Than Words «اللغة أقدم من الكلمات»، ولأن التعليم كان موضوعًا هامشيًّا في هذا الكتاب فإنني كنت أعرف بأنني سأعاود — ذات يوم — الكتابة في الموضوع نفسه، وبطريقة أشمل وأكثر توسعًا مما كتبته في ذلك الكتاب، وها هي أربع أو خمس صفحات منقولة من الكتاب الأول، ويتضمنها هذا الكتاب بين صفحاته.

لقد تعاملت طوال خبرتي في مجال التعليم بطريقة متحررة، وحين كنت أقوم بعملية التدريس في الجامعة وفي السجن (إن كلمة التدريس هنا ليست كلمة مناسبة؛ لأنني كنت أعتبر دائمًا أن ذلك هو دوري)، لم أكن معنيًّا بمجرد تحقيق رغبات الطلبة في تعليمهم ما يريدون، لقد كان الهدف الأساسي من هذا الكتاب، وخاصة من الفصل الذي يحمل عنوان «كيفية عدم القيام بعملية التدريس»، هو أن أستثمر خبراتي التي اكتسبتها في جامعة واشنطن الشرقية، وفي السجن الحكومي، تلك الخبرات المتشابهة إلى حد كبير، على عكس ما يتوقع المرء في المرة الأولى، والتي يحصل عليها شخص ما ويكتسبها من خلال شرحها مرات ومرات وبطرق مختلفة. لقد أدركت بسرعة أن الحديث عن خبرتي — دون أن تتضمن مناقشات حول البيئة الاجتماعية التي تخلق خبرة التعليم العادية — سيكون أمرًا اصطناعيًّا وزائفًا وأقل فائدة بكثير، وبطريقة أخرى يمكن القول بأنه قبل أن أسأل أنا أو أي شخص آخر عن مدى نجاحنا داخل الفصل، يجدر بنا أن نسأل أنفسنا أولًا عما نريد تحقيقه، على ألا نعول على إجاباتنا على هذا السؤال، نحن في حاجة لنسأل أنفسنا عن ماهية الدور الذي نقوم به فعلًا، وعن النتائج التي تحدثها العملية التعليمية؛ لأن إدراكنا

وفهمنا لإجابة هذين السؤالين سيساعدنا — بعيدًا عن كل الكلمات الرنانة — في فهم ما نرغب فيه حقًّا، كما سيساهم أيضًا في تكوين شخصية الطلبة.

تظاهر بأنك تريد أمة من العبيد، أو فلنقل، بطريقة أخرى، بأنك تتمنى أن تحظى مصالح بلدك التجارية بعدد ثابت من العمالة، على أن يكون عدد السكان الأصليين كافيًا لعدم التصدي لمكاسبهم ولما يحصلون عليه. إن أبسط، بل وربما أكثر، وسائل التسهيلات شيوعًا، كعملية الإنتاج مثلًا، لا تكتمل إلا من خلال القوة المباشرة؛ أنت تستولي ببساطة على العمال وتسحبهم إلى مصانعك وإلى أماكن عملك وهم مقيدون بالسلاسل، وتستطيع ببساطة أن تقوم بطردهم في أية لحظة، كما أنك تمنحهم حرية الاختيار بين الجوع أو القبول براتب العبودية الضئيل. أنت تستطيع أن تجبرهم على الاختيار بين دفع الضرائب أو شراء منتجاتك، وبذلك ستضمن الانتعاش الاقتصادي، وفي النهاية سيُجبَرون على العمل في مصانعك أو في مشروعك التجاري للحصول على العملات النقدية الصغيرة.

إن العائق الأساسي لكل تلك الأعمال هو أن العبيد يعرفون دائمًا بأنهم مستعبدون، وأن آخر شيء يريده صاحب العمل هو إخماد أي محاولة للتمرد أو العصيان. من الأفضل لهم كثيرًا الاعتقاد بأنهم أحرار؛ لأن عدم شعورهم بالسعادة في مثل هذه الحالة يُحمِّلهم وحدهم مسئولية الخطأ دون أن يكون صاحب العمل سببًا في عدم سعادتهم.

كل شيء يبدأ من الصغر، وإذا لم تبدأ مبكرًا وأنت صغير بما يكفي، فلن تكون قادرًا أبدًا على التأثير فيهم بشكل كافٍ إلى الدرجة التي يكفرون فيها بالبدائل، وإذا كانوا يؤمنون فعلًا بالبدائل الأخرى التي لم تصنعها أنت فإنهم سيحاولون تحقيقها، وفي هذه الحالة سيبرز سؤال مهم: أين ستكون أنت؟

> «يبدو لي أن أي شيء يمكن أن يعلِّمه شخص إلى آخر هو نسبيًّا شيء غير ذي أهمية، وليس له تأثير واضح على سلوك وتصرفات الأشخاص إلا فيما ندر، ولقد بدأت أشعر أن التعليم الوحيد الذي له تأثير واضح وقوي على السلوك هو تعلم الاكتشاف الذاتي والتعليم الحر المناسب للذات، مثل هذه الطريقة في تعلم اكتشاف الذات، والتي هي ملائمة لشخصية صاحبها وخاضعة لتجربته الخاصة، لا يمكن أن تتواصل بشكل مباشر مع الآخر ما دام أن الفرد يحاول التواصل مع هذه الخبرة مباشرة، والتي غالبًا ما يصاحبها (محاولة التواصل) حماس طبيعي، إنها طريقة في التدريس ذات نتائج غير منطقية وبلا أهمية. عندما أحاول أن أقوم بعملية التدريس، كما أفعل أحيانًا، فإن النتائج تصيبني

بالرعب الذي يبدو أكثر قليلًا من المنطقي؛ لأن عملية التدريس تبدو ناجحة في بعض الأحيان، وعندما يحدث ذلك فإنني أكتشف أن النتائج غير مفيدة، وربما تكون ضارة في كثير من الأحيان، وبالتالي فإنها تدفع الفرد إلى الشك وعدم الثقة في تجربته وخبرته الشخصية، كما تشكل عائقًا بينه وبين التعليم المهم والمثمر. وهكذا بدأت أعرف أن نتائج التدريس لا تخرج عن كونها بلا أهمية على الإطلاق، أو أنها عملية غير مفيدة. عندما أنظر إلى نتائج عملي السابقة بالتدريس فإن النتائج الحقيقية تبدو أمامي هي النتائج نفسها التي تتسم بعدم الأهمية وعدم الفائدة، وبناءً على ذلك أدركت أنني مولع فقط بكوني معلمًا أميل إلى تعليم الأشياء المهمة والموضوعات الخلافية، والتي لها تأثير واضح ومؤثر على سلوكي. اكتشفت أن واحدة من أفضل الطرق بالنسبة لي أثناء قيامي بعملية التدريس هي نفسها أصعب الطرق؛ ألا وهي أن أتخلى عن كل دفاعاتي الشخصية بشكل مؤقت على الأقل، وأن أحاول فهم ما تبدو عليه تجربة الآخرين والمشاعر تجاه الآخر. كما اكتشفت وسيلة أخرى للتعليم تتعلق بضرورة أن أبوح بشكوكي وتساؤلاتي، في محاولة مني لتوضيح حيرتي وارتباكي، مما يساعدني على الاقتراب من المعنى الذي اكتسبته من خلال خبرتي. يعني ذلك على ما يبدو أن خبرتي هي التي تقودني وتساعدني في مواصلة عملي نحو الأمام، وصوب الأهداف التي أستطيع تحديدها بصعوبة، كما أنني أحاول أن أفهم على الأقل المعنى الشائع لتلك التجربة.»

كارل روجرز

كيفية عدم القيام بعملية التدريس

دخلت إلى الفصل في اليوم الأول وأنا أرتدي سترة البدلة القديمة الوحيدة التي كنت أمتلكها، وكان القسم حينها يتطلع إلى الفوز بمدرسين مساعدين جدد يتسمون بقدر من الحرفية، كانت سترة البدلة قديمة جدًّا، وقد ارتديتها وأنا شاب مراهق صغير في يوم زفاف أخي، ومرة أخرى أثناء حضوري إحدى الحفلات الراقصة في الكلية، ثم لم أفكر في ارتدائها مرة ثانية بعد ذلك؛ لأنها كانت مثيرة للضحك بالفعل، كما أنها جعلتني أشعر بإحساس ثقيل طوال عَقد من الزمان (أوه، حسنًا، أذكر أن ذلك هو ما أحسست به أول مرة)، لكنني الآن لا أقوم بتثبيت الأزرار، وفور دخولي الفصل فإنني أسارع بخلع السترة، ثم أضعها فوق ظهر المقعد، وبعد ذلك أبدأ في النظر إلى طلبة الكلية. كان البعض منهم شبابًا صغارًا، ولا تبدو عليهم المعاناة أو العمل في الفلاحة، حيث كانت الكلية تقع عند الحافة الشرقية لأجمل مزرعة. كان معظم الطلبة الأجانب من آسيا، وكان بعض الطلبة أكبر مني سنًّا، وكانوا جميعًا يجلسون أمامي في صفوف، كانت الصفوف تصيبني بالصداع وتشعرني بالورطة. كنت أتجول ببصري في أرجاء الحجرة فأرى سبورة النشرات المصنوعة من الفلين بجوار الباب، كانت السبورة مليئة بالإعلانات عن تأشيرات السفر وبطاقات الائتمان والإجازات الخاصة، فمشيت — ذات يوم — حتى وصلت إلى آخر الحجرة دون أن تتوقف أعين الطلبة عن ملاحقتي، وقلت فجأة: ليس هذا مكانًا للإعلانات.

سحبت الإعلان من فوق الحائط، وألقيت به داخل سلة القمامة، ثم تقدمت نحو الأمام وسط أعين الطلبة التي ما زالت تلاحقني، ابتسمت، وكان أول سؤال وجهه لي أحد الطلبة وهو يشير إلى بقية الإعلانات: ألَا يجب أن تلقي بكل ذلك في سلة المهملات؟

منذ سنوات مضت لم أكن دائمًا أشعر بارتياح في مواجهة الطلبة، وكان الخوف ينتابني في البداية، وعندما بلغت الثالثة والعشرين من عمري، وأوشكت على التخرج، وأصبح باستطاعتي مواصلة التقدم والحصول على عمل مناسب، حدث كسر في قدمي فلم أستطع العمل، أخبرني واحد من المدرسين بالجامعة الذين أعرفهم أنه يستطيع مساعدتي، وكان من المفترض أن أعمل مساعدًا له في تعليم فصلين من الطلبة في مرحلة ما قبل التخرج، ولكن قبل موافقتي وجدت نفسي أبحث في القاموس عن معنى كلمة sinecure* (وتعني الوظيفة العاطلة أو المنصب الذي لا يقوم صاحبه بأي عمل، أو يقوم بعمل لا يتناسب مع راتبه الكبير)، والتي لم أكن قد سمعت بها من قبل.

عرفت أن الكلمة نفسها تعني أيضًا مكتبًا يربح بدون موظفين؛ أي مكتب أو منصب يقدم المكافآت دون أن يسألك القيام بأعمال كثيرة، ودون أن يكلفك بأقل المسئوليات، وعندئذٍ راقت لي الفكرة، والأفضل من ذلك أنني اكتشفت أن الكلمة هي وصف دقيق ومعقول لحالتي، كما أنها تناسب احتياجاتي.

كنت معتادًا على الجلوس في آخر الفصل لمراقبة ذلك المدرس وهو يتولى مهام التدريس، وحدث أنني توجهت مرتين إلى مقدمة الفصل، حيث لم أتردد في التحدث إلى الطلبة والتفاعل معهم، وكنت دائمًا ما أتبادل الأحاديث مع المدرس بعد انتهائه من الفصل المسائي لفترات طويلة، عرَفت من خلالها بأنه لم يكن سعيدًا مع زوجته، كما أنه لم يكن يبدي اهتمامًا كبيرًا بمناقشاتنا الفلسفية ما دام هو بعيدًا عن بيته، وكنت — أثناء تلك الأحاديث الممتدة — أتقدم أحيانًا ببعض الآراء النقدية.

كان الوصف المناسب لمحاضراتي هو أنها محاضرات كارثية، وكانت حدة الكارثة تزيد أو تقل قليلًا بين محاضرة وأخرى، حيث كنت أتمتم وأتلعثم في الكلام. وفي محاولة مني لاستعادة الأحداث الماضية، والسيئة منها بالتحديد، فإنني لا أستطيع أبدًا نسيان تلك الطريقة التقليدية في التدريس التي قمت بها كما تعلمتها من أساتذتي، والتي لا تتخذ من التفكير منهجًا، والتي بدا أن الطلبة قد تأثروا بها قليلًا كما تأثرت أنا بها من قبل، لكنني انفجرت غاضبًا — ذات مرة — وأخبرت الطلبة بعدم وجوب استخدام حروف الجر دائمًا عند نهاية كل جملة. وأذكر أنني تحدثت مرة أخرى عن تهجئة الحروف دون أن يثمر حديثي أي فائدة، فعرفت في النهاية أنك لا تستطيع أن تعطي شيئًا لا تملكه، وأن واجب المدرس الحقيقي والوحيد، وبخاصة المدرس الذي يقوم بتدريس الكتابة، هو مساعدة الطلبة على اكتشاف ذواتهم، أما فيما عدا ذلك فلا يتعدى كونه تسلية ولهوًا، أو نوعًا من أنواع الخبل، أو شيئًا شبيهًا بالنافذة المزينة في أحسن الأحوال.

قلت من قبل في كتابي The Language Older Than Words «اللغة أقدم من الكلمات»: إن كلمة «تعليم» هي اشتقاق من الكلمة اللاتينية e-ducere، والتي تعني التقدم للأمام أو الانطلاق، والكلمة نفسها تشير في الأصل إلى معنى القابلة التي تشرف على الولادة. وحين رحت أقارن بينها وبين جذور كلمة seduce بمعنى يغري أو يغوي، والتي هي أكثر قربًا من المعنى، ولكن مع اختلاف ملحوظ، وجدت أن كلمة educe تعني أن يستنبط الإنسان فكرة أو يستخرج معنًى من المعاني، وهي بذلك تعني التقدم للأمام. أما كلمة seduce بمعنى يغري أو يغوي فتعني التضليل. وكنت أرغب لو أنني تحدثت عن ذلك مع أولئك الطلبة منذ سنوات مضت، كما تمنيت لو اقترحت عليهم التفكير في ذلك الاختلاف في نهاية الأسبوع وهم يتحدثون مع أقرانهم من الجنس نفسه، ولربما عبر أحدهم عن رغبته في استنباط ما بداخل الآخر الذي يرد بدوره قائلًا: ابتعد عني.

رغبت أكثر لو أنني اقترحت (لو أننا أمناء مع أنفسنا بما يكفي) أن نسمي أقسام التعليم لدينا بأقسام الإغراء؛ لأن ذلك ما يفعلونه بالفعل، إنهم لا يعلموننا اكتشاف ذواتنا بقدر ما ينجحون في إبعادنا عن أنفسنا.

ومن ناحية أخرى قد يكون من الأفضل أنني لم أتحدث في ذلك الشأن، فلقد عانيت كثيرًا من المشاكل أثناء حديثي عن حروف الجر وعن التهجئة، فمن يعرف نوع المشاكل التي كنت سألاقيها إذا ما كنت قد بدأت الحديث عن العلاقة بين ما يحدث في حجرات الدرس وبين الإغراء.

إن أكثر أجزاء التكنولوجيا أهمية في أي فصل دراسي هي عقارب الساعة، إنهم يسعون — دون وعي منهم — في تعليم ملايين الطلبة الطريقة نفسها في التوسل وهم ينظرون إلى عقارب الساعة قائلين: «نبتهل إليك يا إلهي أن تجعل عقارب الساعة تتحرك بسرعة أكبر.»

أصبحت بعد سنوات قليلة من تخرجي مدرسًا خصوصيًّا ذائع الصيت في «كلية إيداهو الشمالية» North Idaho College؛ لأن الثقة بالنفس تلعب الدور الأهم في التقدم في العمل وفي إحراز الشهرة بطريقة تفوق ما يحدث في الألعاب الرياضية، وإذا لم تؤمن بقدرتك على التقدم في عملك فأنت في الغالب لا تريد، وإذا كنت مؤمنًا بتلك القدرة فسوف تتقدم حتمًا، وإذا كنت ما تزال راغبًا في عدم التقدم فعليك أن تعرف بأن وعيك الذاتي قد تلاشى. لقد اعتمد عملي بالتدريس تقريبًا على الإطراء والثناء، وهذا لا يعني أبدًا أنني لم أقدم

النصيحة الفنية، ولا يعني أنني كنت مبدعًا وحسبُ في كيفية تقديم النصيحة، لكنني كنت حريصًا على التأكد من أن كل ما نتحدث عنه في الدرس كان يحمل الرسالة نفسها؛ وهي أنك متسلق بارع. وعلى سبيل المثال فإنني لم أقل أبدًا: «إن طريقة تفكيرك منافية للأخلاق أو الذوق أو المألوف.» في حين أنني كنت أقول مثلًا: «إن قوة قدمك مدهشة لأنك ترفعها بقوة في الهواء، وحالتك الجسدية والعقلية لا تساعدك، ولكن عندما تتناسب حالتك العقلية مع قوة قدمك فإن أحدًا لا يستطيع عندئذٍ أن يقهرك.»

لكنهم راحوا يركزون على قوة أقدامهم بدلًا من التركيز على ما يتمتعون به من عقل.

وأنا بالطبع لم أكذب أبدًا، إن خدعة التدريس من خلال الإطراء هي التي لا ينبغي أبدًا أن تقوم بها، فلقد اعتاد الناس كثيرًا على النقد ولم يعتادوا على الإطراء والثناء، حيث إن الإطراء يصيبهم بالارتياب، كما أنهم يشمون رائحة الكذب بسرعة، وإذن فإنه من الأفضل كثيرًا، ونحو بذل مجهود أقل، أن تبحث ببساطة عن الأشياء المقنعة والحقيقية، وتتبنى من خلالها دروسك بدلًا من المحاولات المضنية في إعادة بناء المصداقية التي تم فقدها أثناء عملية الإطراء والمديح الزائفة التي تحتاج إلى إثبات، بالإضافة إلى أن قول الحقيقة الإيجابية يساعد في التركيز على الأشياء المهمة التي تخص الطلبة ومهاراتهم، مما لا يحدث في حال نقص مصداقيتك.

لقد منعت طلبتي من الحديث عن أي شيء سلبي في أي مجال من المجالات، وكنت أقوم بإغرائهم بالسؤال مثلًا عن كيفية حبهم لحالة الطقس في أيام شهر مارس المليئة بالرذاذ، وعندما كانوا يقدمون الشكوى ويعترضون على منعي إياهم من الحديث عن الأشياء السلبية، كنت أسمح لهم بالتعبير عما يريدون، وكانوا يخبرونني عن الذي يحبونه في حالة الطقس.

كانوا يحتجون في البداية على زيف ذلك المنع الواضح مما جعلني أحاول تعليمهم مرة أخرى عدم البوح بشكواهم إلا حين نكون خارج قاعات الدرس، لكنني كنت أعرف أن ذلك الطقس البائس دائمًا ما أصابني بالصداع، ومثل كل زملائي حينئذٍ كنت أتذمر من البرد والرطوبة وعدم قدرتي على تثبيت أقدامي فوق الأرض، ومن الناحية الأخرى كان طلبة كلية إيداهو الشمالية يتحدثون عن المميزات التي يتمتعون بها أثناء ذلك الجو، كانوا يركزون على الجوانب الإيجابية.

كانوا يتقدمون أيضًا بشكل جيد، وكان كل طلبتي المنتخبين مؤهلين لتمثيل بلدهم، وأصبحوا جميعًا أمريكيين بامتياز أو أمريكيين محترمين، كما أصبح أحدهم بطلًا قوميًّا.

سألني شخص ما ذات مرة أثناء الحديث عن السبب وراء إصراري على ذكر الجوانب الإيجابية عند الحديث مع طلبتي، رغم أنني ناقد بلا حدود لأولئك المشرفين على إدارة أمورنا الثقافية الذين يقتلون كل شيء جميل في كوكبنا، فأجبت في الحال قائلًا: القوة، إذا ما امتلكت القوة أو السلطة التي تستطيع بها السيطرة على الناس، فإن مسئوليتي عندئذٍ تجبرني على استخدام هذه القوة في مساعدتهم فقط، ويصبح من واجبي أن أقبلهم وأثني عليهم وعلى ما هم عليه، لكنني إذا رأيت شخصًا يسيء استخدام القوة ويقوم بإيذاء شخص آخر فإنه من صميم مسئوليتي في مثل تلك الحالة أن أعمل على إيقافه باستخدام كل الوسائل الممكنة والضرورية.

سارعنا بعد فترة وجيزة بالانتشار داخل الفصول الخالية من الطلبة، وقمنا بنزع كل ما أمكننا رؤيته من إعلانات أو ملصقات، كما قام الطلبة على مدى أسابيع تالية بغلق المغلفات البريدية؛ تمهيدًا لإعادتها إلى أصحاب الإعلانات، وفي النهاية امتلأت سلات المهملات عن آخرها.

بعد سنوات كثيرة، عندما دخلت الفصل بصفتي مدرسًا حقيقيًّا، وليس تابعًا، في جامعة واشنطن الشرقية، قمت بتغيير اسم المنهج من «مبادئ التفكير والكتابة» إلى «التحرر الروحي والفكري والفلسفي واكتشاف أروع ما في الإنسان»، ثم عملنا على تغيير نظام المقاعد وقمنا بترتيبها على شكل دائرة بدلًا من الصفوف المتراصة، وكنت كلما مشيت في الفصل لا أتوقف عن سؤال الطلبة والطالبات عن الأشياء التي يحبونها، وقد أخبروني عن حكايات تخص عائلاتهم، وحكوا لي عن الزراعة وعن الفن وعن حبهم للرياضة، فتعلمت أكثر مما تعلمت من تفاصيل حياتهم أنهم حكاءون ورواة بطبعهم، فلم يكونوا حقًّا في احتياج لتعليمهم كيفية الحكاية، لكنهم كانوا بالأحرى في حاجة لمن يساعدهم في أن يكونوا ما هم عليه بالفعل، ولقد أدركت أيضًا، وبسرعة، أن طلبتي ممن يدرسون الكتابة لا يحتاجون كثيرًا لمن يعلمهم فن الكتابة بقدر احتياجهم أن يصبحوا ما هم عليه داخل أنفسهم. إنهم يعرفون كيف ومتى يبدعون القصة، وكيف يسردون التفاصيل المناسبة في الوقت المناسب، كما يعرفون أهمية أن تثمر القصة بعض النتائج والأفكار، وكل ذلك كان واضحًا في حكاياتهم الأولى التي أخبروني بها عن الأشياء أو الأشخاص الذين أحبوهم. وكان من الواجب أن يدركوا المواهب التي يمتلكونها، وأنا لم أستطع اكتشاف مواهبهم

من فراغ، ولكن يمكنني القول بكل بساطة وعن يقين أنهم موهوبون بالفعل، ولم تكن مساعدتي لهم سوى نوع من التوجيه.

في أول يوم أعمل فيه بالتدريس، بصفتي محترفًا، أخبرت الطلبة عن مدرس الاقتصاد الذي كان يدرس لي في يوم من الأيام، وعما أخبرنا به قائلًا: «لا تصدق أبدًا أي شيء تقرؤه، ولا تصدق إلا النادر جدًّا مما تفكر فيه.»

قلت لهم أيضًا بأنه كان واحدًا من أفضل المدرسين الذين تعلمت منهم، ثم توقفت لحظة وسألتهم: هل قام أحدكم طوال عمره بنزهة فوق خطوط السكك الحديدية؟ وهل واصل السير حتى عرف بأنه بعيد جدًّا عن المدينة؟ وهل أخرج ساعته بعد ذلك من جيبه ووضعها فوق الطريق؟ وهل — بعد أن خطا خطوات كثيرة — ما زال يسمع تكات الساعة بينما يتدفق الدم من أذنيه؟ وهل يتنحى جانبًا عندما يقترب القطار تاركًا للرياح فرصة العبث بشعره دون أن يتوقف عن الارتعاش من شدة الخوف وعدم القدرة على التنفس حتى تمضي آخر عربة من القطار؟

هل رأيت النجوم أو القمر في الصحراء؟ هل نمت عاريًا فوق الأرض المبللة؟ ومتى كانت آخر مرة سِرْت فيها حافي القدمين فوق الجليد وأنت تراقب تساقط النجوم، أو وأنت تستحم في نهر بارد وسريع الجريان؟ متى كانت آخر مرة استمعت فيها إلى المزمار في لحظات الفجر، كان أصحاب تلك الأسئلة هم أمهر وأفضل المدرسين الذين قابلتهم.

لكنني سأخبرك بالأفضل، لقد اعتدت أن أصطحب معي كلبًا صغيرًا مدللًا، كان الكلب سريع الحركة، وكانت أذناه ترفرف ولسانه يتحرك أثناء جريه الدائم في كل مكان، ولم يكن ذيله يتوقف عن الحركة أبدًا مهما كان يفعل، ولقد اعتاد على أن يتجاهلني. وكان الدرس الذي تعلمته من الكلاب هو الاعتراف بصحة القواعد، ثم تجاهلها وعدم الالتزام بها، إن كل شيء يفعله الكلب إنما يفعله بحيوية وحماس، وبطريقة مبهجة ومفعمة بالحياة، حتى إنني لا أستطيع أن أتخيل مدرسًا أحسن من ذلك.

التقط الطلبة أنفاسهم بعمق بعد أن استمعوا لي، ولم يستطيعوا التأكد من استيعاب ما سمعوه مني، كما أنني أيضًا لم أستطع أن أفهم ردود أفعالهم.

قلت: إن العاطفة والحب والكراهية والخوف والأمل هي المصادر الرئيسية التي تثمر كتابة أفضل، كما أن الحياة نفسها تتشكل من تلك المعاني والانفعالات، وهكذا فإننا نستطيع أن نتساءل قائلين: وماذا تعني الكتابة بدون الحياة؟ الكتابة والحياة والحياة والكتابة، كلاهما يشكل المادة التي تصنع الآخر.

كنت كذلك أحذرهم قائلًا: إذا كنتم قد جئتم إلى هنا من أجل السمعة الطيبة، ولأجل الافتخار بانتمائكم للجامعة، وللبحث فقط عن الجمل البلاغية والنقاط الفاصلة، ومجرد تدوين المقالات القصيرة، فلتعلموا أن هذا الفصل سيكون مصدرًا كبيرًا للتخلف لي ولكم، وعائقًا لأي نوع من التقدم، وإذا لم يكن لديكم الاهتمام الكافي والرغبة في الوصول إلى حافة الخيال الصعبة، حيث الموهبة والشعور بالنشوة، فلن تقدروا على التحرر من قيود الزمن ومن الأوهام المترسبة داخل وعي وإدراك كلٍّ منكم، وفي هذه الحالة فإنه يمكنني القول بكل أمانة إنه من الأفضل لكم أن تبحثوا عن فصل آخر، وإذا حدث هذا يكون كلانا قد قدم خدمة كبيرة للآخر، ولكنني أرجوكم ألا تسارعوا بالذَّهاب إلى مكتبِ رئيسي؛ لأنني متفق معه على السماح لي بأن أفعل ما أريد داخل الفصل، على أن يضمن لي نقلكم إلى فصل آخر إذا لم تعجبكم طريقتي في التدريس، أعرف أن طريقتي لا تروق لكل شخص، والحقيقة أن كونها كذلك لا يعني بالضرورة أنها تمثل انعكاسًا لحالتي أو لحالتكم، وإنما الأمر لا يتعدى كونه مثل امتلاكك لكتابين فوق رف المكتبة؛ أحدهما أحمر اللون، والآخر أخضر، إنهما فقط غير متناسقين، ولكن إذا أردت أن تركب الموجة، وإذا سمحت للموجة أن تركبك، وإذا أردت أن تكتب من أعماقك ومن داخل روحك، فعليك أن تمد يدك بعمق إلى فراء النمر والإمساك به بقوة؛ لأننا جميعًا في حاجة لجولة مليئة بالمخاطر.

لم يتحرك أحد من مكانه.

عرَفت من خلال خبرتي، وكما كتب «كارل روجرز»، أن التعليم الوحيد الحقيقي يتمثل في اكتشاف الذات وفي التعليم المناسب للذات. إن وظيفتي لا تعني القيام بتعليمك أي شيء، وإنما كيفية خلق الجو المناسب الذي تستطيع من خلاله أن تعلِّم نفسك.

إن إحدى المهارات الضرورية في أيامنا هذه المليئة بالأساطير البالية والمفرطة في العنف، هي اكتساب القدرة على التفكير الناقد، ومساءلة السلطات، والشك في كل شيء.

قالت صديقتي جانيت أرمسترونج: «لدينا جميعًا أنظمة من السلوك الثقافي المكتسب قد أصبحت مع مرور الوقت جزءًا لا يتجزأ من اللاوعي عندنا، وتلك الأنظمة تلعب دورًا مهمًّا في الطريقة التي ننظر بها إلى العالم، كما أنها تؤثر في تصرفاتنا، وفي طريقة كلامنا، وفي لغة أجسادنا، والكلمات التي نستخدمها، وأيضًا في الطريقة التي نستجمع بها أفكارنا. ولا بد لنا من العثور على طرق عديدة للوقوف أمام استمرار ذلك الدور الذي تلعبه أنظمة السلوك هذه، لكن أصعب الأشياء التي يجب أن نفعلها هو أن نرى الأشياء من منظور مختلف.»

استطردت صديقتي قائلة: «يجب أن أعلِّم نفسي باستمرار تفكيك وتحليل ما أعتقد فيه، وجعله على الطريقة التي يجب أن يكون عليها، وأن أعمل باستمرار على تحرير عقلي مما أعتقد فيه، ويجب دومًا ألا تتوقف معلوماتي عند حد معين حتى تزيد رقعة المعرفة والإدراك عندي. وأستطيع القول بكلمات أخرى إنك لن تكون راضيًا أبدًا لأنني راضية، مما يجعلني أبدو مستاءة، لكن الأمر لا يعني ذلك، وإنما يعني أنك لن تكون راضيًا أبدًا وأنت تفكر بأنك عرَفت نتيجة الأشياء، وأن تسأل دائمًا ما يدور في رأسي أنا. إنني دائمًا أقول لطلبتي الذين يدرسون فن الكتابة أن يبدءوا، بل ويتمسكوا بموقفهم عندما يقولون كلمة «هراء» للتعبير عن استيائهم، بأي شيء، وأن يكونوا فرحين وسعداء وهم يعبرون عن أنفسهم بترديد تلك الكلمة؛ لأنه في معظم الأوقات يصبح من المخيف أن نتبنى التصرفات والسلوكيات القديمة أو الخلافات القديمة التي يجب ألا نعمل بها ونعتقد فيها، وإنما علينا معرفتها، وهكذا نتواصل مع تلك الأنماط والسلوكيات لأنها مألوفة.»

قلت: من المقبول جدًّا والرائع أن تختلف معي، ومن الجميل أن تختلف مع أي شخص، وعليك فقط أن تكون مقبولًا ومحبوبًا وتحظى بالاحترام طوال الوقت بالطريقة التي توافق أنت عليها، يجب أن تكون رأسك مليئة بالأفكار، وأن تكون حكيمًا في رفضك.

سادت حالة من الصمت، قلت بعدها: أيريد أحدكم أن يسألني فيما قلت؟

رفع أحد الشباب يده فأشرت له بالحديث فقال: قلتَ كلمة «هراء» في الفصل.

– نعم.

– هل تقولنَّها مرة أخرى؟ فأنا لم أسمع مدرسًا يقولها من قبل!

قلت بلا تردد: «هراء».

منذ سنوات مضت استغرقت في حديث طويل مع عازف جيتار كثير الأسفار، وكان يعمل مع فرقة موسيقية هي الأفضل كما قال. وبالعودة إلى الستينيات نجده قد وقف على خشبة المسرح مع كثيرين؛ بدءًا من «كارلوس سانتانا» إلى «راندي كاليفورنيا» إلى «جيمي بيج»، لكنه قال بأن عازف الجيتار الذي علمه معظم تقنيات العزف كان عجوزًا وأستاذًا في موسيقى الأغاني الزنجية، وقد قابله عندما كان طفلًا قائلًا له: أرغب في أن تعلمني العزف على الجيتار.

فأجابه الرجل: أستطيع أن أعلمك كل شيء أعرفه في خمس عشرة دقيقة، ثم عليك بعد ذلك أن تعود إلى بيتك لتمارس ما علمتك إياه طوال خمسة عشر عامًا.

أصبح من الواضح جدًّا بالنسبة لي أن كلمات العازف العجوز تنطبق تمامًا على الكتابة، وعلى كل من يرغب بالتفوق في عمله، كما أنها صالحة ومناسبة للحياة نفسها.

لا تجعل القارئ يشعر بالضجر

«عند كتابة الفقرة الأولى يجب أن تمسك بالقارئ من رقبته، وفي الفقرة الثانية لا بد أن تغرس أصابعك في قصبته الهوائية، ثم عليك بإبقائه قبالة الحائط حتى نهاية السطر الأخير.»

بول أونيل

* * *

في اليوم الثاني دخلت الفصل متأخرًا حوالي دقيقتين، وكان الطلبة يحركون المقاعد ويضعونها على شكل دائرة، فأعلنت بأننا نتبع قاعدة في الجلوس، لكنهم راحوا يحدِّقون في بأفواه مفتوحة. غير أنني، وبعد يوم واحد فقط، اعتدت على ردود أفعالهم وعلى أفواههم المفتوحة، فقلت: إن القاعدة الوحيدة في الجلوس هي أنك لا تستطيع الجلوس في المكان نفسه الذي كنت تجلس فيه بالأمس، ولا تستطيع الجلوس إلى جوار الزملاء أنفسهم.

قال أحدهم: إنها ليست قاعدة واحدة بل قاعدتين.

أجبت قائلًا: إنها كذلك.

– لكنك قلت بأنها قاعدة واحدة للجلوس.

وعندئذٍ جاء دوري في التحديق، بينما راحوا يتمتمون قليلًا وهم يتحركون نحو مقاعدهم.

كان السبب الأول من تلك القاعدة واضحًا، وهو أنني كنت أريد لهم أن يحاولوا رؤية الأشياء من منظور مختلف في كل يوم. أما السبب الثاني فهو ما رغبت أن يفعله أساتذتي، حين كنت في المدرسة، وهو رغبتي في أن يجد طلبة الفصل الأكثر خجلًا العذر المناسب

للجلوس إلى جوار شخص ما بعد أن سيطر عليهم الاهتمام بالحديث معه أو معرفة ما بداخله، أو على الأقل جدًّا لأن إعجابًا ما قد راودهم تجاه ذلك الشخص عندما اقتربوا منه لم يكن موجودًا حين كان بعيدًا عنهم.

قلت: حسنًا، فلتخرجوا الأوراق والقلم، وسنتحدث اليوم عن قواعد ومبادئ الكتابة.

قرأت فوق وجوههم معنى الاستسلام والاعتراف حين أدركوا أن سؤالي في اليوم السابق عن الأشياء التي يحبونها، وتسمية عنوان الدرس باسمٍ مختلف، لم يكونا سوى طريقتين لحملهم على التفكير بأن هذا الفصل مختلف عن بقية الفصول، وهكذا هدأت ثورتهم وأصبحوا على استعداد لقبول مدرسهم الجديد الذي سيكون بالطبع مثل المدرس القديم.

اتخذوا شكل الطلبة واستعدوا لكتابة ما أقول، وأصبح بمقدورهم أن يخبروني فيما بعدُ بما كتبوه.

قلت يومها: إن أول شرط من شروط الكتابة هو ألا تصيب القارئ بالملل.

وكتبوا ذلك فورًا في أوراقهم، فأضفت قائلًا: إن أهمية رسالة الكاتب لا تهم ولا تعني شيئًا إذا لم يُبْقِك الكتاب أو الفيلم السينمائي في حالة من الانتباه المتواصل، وإذا لم يعمل على إثارة انتباهك. إذا قرأت كتابًا مملًّا فماذا تفعل؟ إذا شاهدت فيلمًا سينمائيًّا لم يجذب انتباهك فماذا تفعل؟ إن أي وقت تقرأ فيه كتابًا أو تشاهد فيه فيلمًا كان باستطاعتك أن تقوم فيه بفعل أي شيء في العالم، كنت تستطيع القيام بنزهة، وربما كان بمقدورك تناول الطعام أو الاشتراك في مناقشة جميلة عن تعرية وتفكيك الحضارة.

أشاروا برءوسهم، وراح البعض يدون بعض الملاحظات، فقلت مستطردًا: وربما كان من الأجدر أن تذهب لممارسة الجنس.

توقفت الأقلام عن التدوين، فعرَفت أنني استحوذت على انتباههم.

الشيء نفسه ينطبق على رؤيتي لما تكتبون، حيث يمكنني فعل أي شيء آخر غير قراءة ما تكتبون، ولذلك فأنا لا أطلب سوى شيء واحد فقط، وهو أهمية أن تعرفوا أنني غير مهتم بما تكتبون، سواء كانت كتاباتكم روائية أو قصصية، ولا يعنيني قبولي أو عدم قبولي لآرائكم.

كانت وجوههم خالية من التعبير، فأدركت أنهم لم يصدقوني، وراحوا يواصلون الكتابة، وعندئذٍ أضفت قائلًا: ولكن من المهم جدًّا أن تكون كلماتكم فوق هذه الأوراق مفيدة وممتعة، ولا بد أن تحمل في طياتها ما يكفي من الإثارة، مما يجعلني أفضل قراءتها على ممارسة الجنس، هل كلامي واضح؟

توقفت الأقلام مرة ثانية، وسادت الفوضى، ثم أطلقت امرأة في نهاية العشرينيات من عمرها ضحكة متقطعة، ضحك على إثرها بقية الفصل، لقد كانوا يعتقدون بأنني أمزح.

كان الطلبة في جامعة واشنطن الشرقية يضحكون دائمًا كلما أخبرتهم الكلام نفسه، وعندما قمت بعمل محاضرة، كضيف في أحد فصول جامعة نبراسكا، وذكرت لهم أهمية أن تكون الكلمات فوق الأوراق مفيدة وممتعة، وضرورة أن تتسم بالإثارة حتى يمكنني تفضيل قراءتها على ممارسة الجنس، راح الطلبة يحدقون في وجهي بإمعان، وارتسمت فوق وجوههم علامات تفكير عميق، وأومأ بعضهم برأسه؛ بما يفيد أن كلامي معقول، فأخبرتهم — عندئذٍ — بأن مجرد التفكير في كلامي واستجابتهم تعني أنهم كتَّاب جيدون، كما يجب أن ينتهزوا أول فرصة للالتحاق بجامعة واشنطن الشرقية.

مارست كتابة القصص بعض الوقت حين كنت في العشرينيات من عمري، وكنت في بعض الأوقات كاتبًا سيئًا، وكان لا بد من إدخال بعض التحسينات على الطريقة التي أكتب بها، كان خوفي الشديد في مواجهة الجماهير وأي حشد من الناس هو أحد مشاكلي، لكن المشكلة الأساسية كانت فيما أكتبه من حكايات زائفة، حيث لم أكن قد فهمت بعد أن الكتابة الجيدة، أو حتى مجرد سرد قصة جيدة لا يتطلب اختراع شيء خيالي وغير ممكن، وإنما يتطلب ببساطة أن أكون نفسي بقدر المستطاع. لقد قمت مع صديقي «وادي ميتشل» شاعر رعاة البقر الشهير بعمل عدد لا بأس به من المهرجانات والندوات الأدبية، والتي اتسمت بالطابع الاحتفالي المبهج، وحدث ذات مرة، وبعد انتهاء آخر ليلة في آن آربور بميتشجان، أن كاتبة تُدعى «ملبر بيرش» راحت تتحدث معي في وقت متأخر من تلك الليلة، إنها واحدة من أكثر كتَّاب القصة والرواية موهبة، وقد أجبرتني حينها أن أقرأ لها واحدة من قصصي، وفور الانتهاء من القراءة راحت تنتقد العمل كلمة وراء كلمة. كنت من ناحية أستخدم كلمةً خطأً من أجل وصف شيء ما؛ مثلما كنت أقول «المجراف» بدلًا من «المجرفة»، وعندما انتقدتني، وقامت بتصحيح بعض الزَّلَّات، قلت: إنها مجرد كلمة.

أجابت باستغراب: مجرد كلمة! لا، أنت قمت باستغفالي وكأنك سرقت محفظتي، لقد ضحكت عليَّ بالكلمات وسرقت لحظة من حياتي. إن كل لحظة تقف فيها على خشبة المسرح، أو كل لحظة تكتب فيها شيئًا ما لشخص آخر هي ملك للمشاهدين وللناس الذين يقرءون ما تكتبه؛ لأنهم يقدمون لك وقتهم الذي كان من الممكن أن يستفيدوا به في عمل

شيء آخر، أنت إذن مسئول عن كل ثانية أمضوها في قراءتك، وبالتالي فلا بد أن تقدم لهم كل ما هو مفيد ومثير، بما في ذلك الحقيقة كما تفهمها وكما يجب أن تكون في كل لحظة من اللحظات المختلفة.

يصبح السؤال عندئذٍ: كيف تحافظ على انتباه قرائك؟ وما الفائدة أو المتعة التي ستقدمها لهم؟ وكيف تعمل على أن تكون تلك المتعة متساوية مع الوقت الذي أمضوه في القراءة.

لا شيء، إنهم يتوقعون مني طرح الأسئلة، والإجابة عليها أيضًا.

ما الذي يجعلك تواصل مشاهدة فيلم ما؟

يجيب شخص ما أخيرًا: الإثارة، شيء ما يشدني.

أكرر: الإثارة، إنني أقوم بتقليب المحطات وأرى شخصًا ما وهو يختلس النظر عند أحد الأركان ويمسك بالبندقية فأرغب، ربما، في التوقف والانتظار مدة طويلة لرؤية ما يمكن أن يحدث، لأن شيئًا ما يجب أن يحدث، إن القاعدة في الغرب — كما سمعتها — هي ضرورة أن تصيب القارئ ببعض الطلقات النارية في الصفحات العشر الأوائل.

اقتنع كثير من طلبتي بتلك القاعدة الغربية وراحوا يكتبون على غرارها.

قال شخص آخر: فكاهة!

أجبت: إن الفكاهة والمزاح والهزل أشياء جيدة.

أضاف شخص آخر قائلًا: وعنصر التشويق!

إنه لأمر مهم، هل شاهد أحدكم فيلم الزوال؟

حمدت الله كثيرًا لأن أحدًا لم يشاهد الفيلم.

كنت قد شاهدت النسخة الأوروبية من الفيلم، وسمعت بأن النسخة الأمريكية تستحق المشاهدة، إنه يحكي عن عاشق يفقد عشيقته حين توقفا عند محطة للبنزين أثناء رحلتهما في الطريق، ثم تمضي بقية أحداث الفيلم في الكشف عن محاولات العشيقة لمعرفة ما حدث لها. كان الحوار غريبًا والأداء مضحكًا، وكانت الشخصية الرئيسية بلهاء، لكنني بعد أن شاهدت بقية الفيلم الملعون استطعت عندئذٍ أن أكتشف ما حدث لها، لقد كان شيئًا بشعًا، وقد نجح الفيلم فقط في التشويق وإثارة الانتباه.

سادت لحظات من الصمت قطعها شخص ما قائلًا: ثم؟

– ثم ماذا؟

– ثم ما الذي حدث لها؟

قلت: ثمة شيء آخر تستطيع عمله من أجل التشويق والإثارة، وهو أن تذهب بالقارئ إلى ما قبل نهاية القصة بقليل، أو إلى أن تصل بهم حتى نهاية جزء من الحدث ثم تنتقل للحديث عن شيء آخر مما يجعل القراء يواصلون — رغمًا عنهم — قراءة كل الأحداث المملة حتى تعود مرة أخرى إلى ما كنت تتحدث عنه من أحداث جادة، أنت ترغب في الإبقاء على الإثارة واللهفة في معرفة القادم، لكنك لن تستطيع أبدًا أن تنجح في ذلك دون أن تخلق نوعًا جديدًا من الإثارة.

قال الشخص نفسه متسائلًا: ماذا حدث للمرأة؟

أجبت: إثارة، فكاهة، تشويق ... هل ثمة شيء آخر؟

قالت امرأة: أنا أحب قراءة الإنجيل.

سألتها: لماذا؟

– لأن قراءة الإنجيل تساعدني في معرفة الله.

– لكن الكاتب يستطيع أن يستحوذ على انتباه القارئ بشيء آخر، ولا يهم أن يكون ذلك الشيء عن الله أو التاريخ أو الفلسفة أو الحياة، أو حتى عن تصليح السيارات، إن الشيء المهم هو أن تكون ما تريد وأن ترغب فيما تحتاج وأن تكون مستعدًّا للتعلم والمعرفة.

لم يتكلم أحد، فقلت مستطردًا: وماذا عن الكتابة الجميلة؟ والحوار العظيم الذي يتسم بمستوًى رفيع؟ تلك هي الأشياء التي تجعلك تهتم بمشاهدة السينما ولا تنقطع عن القراءة، إلى جانب الشخصيات المثيرة للانتباه وليست الشخصيات النمطية. وبالمناسبة فإن ثمة سببًا واحدًا يجعل من أفلام الأربعينيات والخمسينيات أفضل من أفلام اليوم، وهو أن كثيرًا من كتَّاب تلك الأفلام القديمة كانوا روائيين وكانوا يجيدون بالتالي رسم الشخصيات، أما في أيامنا هذه فإن معظم الكتَّاب من خريجي معاهد السينما أو من دارسي الإعلانات، مما يعني أنهم أفضل كثيرًا في إيهام المشاهدين بأنهم يشاهدون شيئًا غير مألوف، وذلك بالقفز من مقطع لآخر وباستخدام الصور المدهشة، لكنهم لا يعرفون كيفية كتابة ذلك الحوار الذي يكشف — من خلال كلماته — عن كل الأشياء التي تحتاج لمعرفتها، ويكشف لك شخصية المتكلم في جملة واحدة مفيدة، كما حدث في فيلم «رجل المطر»، حيث كان كلٌّ من «داستين هوفمان» و«توم كروز» يصعدان السلالم ثم ينزلان في مشهد رائع، لكنني ظللت أفكر أنهم استخدموا ذلك المشهد لكي يساعدوني ويساعدوا كل المشاهدين في معرفة الشخصيات من خلال حوار دقيق وبارع.

بدا أنهم فهموا ما قلت، غير أنهم لم يقولوا شيئًا.

وما الذي يجعلك تشعر بالإثارة أيضًا؟

كنت أعرف ما يفكرون فيه، لكنني كنت أعرف أيضًا أنهم لن يبوحوا به، وعندئذٍ قلت: إنه الجنس، لقد أضاف جهاز التحكم عن بعد كثيرًا من المشاهد الجنسية إلى الأفلام؛ فأنت تستطيع أن تتنقل عن طريق الجهاز من قناة إلى أخرى حتى ترى بعض الأجساد مما يجعلك — غالبًا — تتوقف بضع لحظات.

قال واحد من الطلبة: يتوقف ذلك على نوعية الجسد.

ساد مزيد من الصمت، وكنت أعرف أيضًا ما يفكرون فيه هذه المرة، لكن أحدًا لن يتجرأ على القول.

قلت: أظن أنه «تشارلز ديكنز» الذي تحدث عن العنف وأباح قتل أحد الأطفال إذا ما ساورتك الشكوك، إنه يعني بذلك سير الأحداث ويراعي الحبكة الروائية، ولا يعني حدوث الشيء نفسه في الحياة الواقعية، مع أن الأمر مع «ديكنز» ليس مؤكدًا. لقد قرأت منذ سنوات مضت كتابًا في الفلسفة لـ «ميشيل فوكو» بعنوان «تأديب وعقاب»، هو في الأساس اختبار للعقود الخمسة الأخيرة لدولة من الدول ومدى استجابتها للجرائم، كان واحدًا من أفضل ما كُتِبَ في الفلسفة ومن أجمل الكتب التي قرأتها، لقد بدأ «فوكو» بوصف تصويرٍ حي لتعذيب شخص ما، وإعدامه، حاول أن يقتل الملك، لقد استخدموا كماشة ساخنة ومتوهجة في تمزيق جسده، وكانوا يصبون الزيت المغلي فوق الجروح، كما ربطوا ذراعيه وقدميه في رقبة حصانين ثم تركوا لهما فرصة الجري بأقصى سرعتهما لتمزيقه، وعندما لم تنجح تلك المحاولة البشعة قاموا بتقطيع ذراعيه وقدميه بضربات متوالية. كان أمرًا فظيعًا ومشينًا لكنه جعلني أقرأ ذلك الكتاب اللعين وظللت — أثناء القراءة — أتوقع المزيد، غير أنني لم أحصل على شيء في النهاية سوى مئات الصفحات من الفلسفة.

سألني أحدهم: ألم تشعر بالخديعة؟

أجبت: لا، إذا كانت الفلسفة مملة لأصبح الكتاب خدعة رخيصة، لكن الفلسفة علم مثير للانتباه ويحمل في ثناياه كثيرًا من التشويق والمتعة، لقد نجح الكتاب تقريبًا، وأستطيع القول بأنها لم تكن خدعة رخيصة.

قال الشخص الذي ظل يتساءل عن التلاشي والزوال: أتتحدث عن الخدع الرخيصة، ماذا حدث للمرأة؟

آه، عليك بمشاهدة الفيلم لكي تكتشف بنفسك لكنهم اختطفوها على أية حال وقاموا بدفنها وهي حية.

قال شخصان في وقت واحد: أوه، لقد شاهدناه، إنه فيلم رائع وجميل.

سأل أحد الطلبة قائلًا: وهل ذلك هو ما تحتاجه الكتابة لتكون أفضل من ممارسة الجنس؟ وهل ينطبق الشيء على الكتب والأفلام أم على ما يحدث داخل الفصول أيضًا؟

أجبت قائلًا: بالطبع، إن جوهر وظيفتي هو أن أبث روح الإثارة داخل الفصول بقدر المستطاع، مما يجعلك تفضل المجيء إلى الفصل عن ممارسة الجنس مع امرأة فاتنة.

ضحكوا لأنهم لم يدركوا بأنني أتحدث بجدية، فقلت مستطردًا: وإذن فما الذي يجعلكم تأتون إلى هنا؟

أريد القول بأن الفصول التي أقوم بالتدريس فيها كانت مليئة بالإثارة والتشويق، حتى إن كل طالب على حدة كان يحضر إلى الفصل من تلقاء نفسه؛ رغبة منه في مزيد من التشويق، ولم يكن ذلك يمثل الحقيقة الكاملة؛ لأن معظم الطلبة في الحقيقة كانوا يحضرون بالمصادفة أثناء تجوالهم من فصل لآخر، وذلك من باب الفضول لرؤية ما يحدث داخل الفصل الجديد، وأحيانًا للمشاركة في بعض التدريبات المفضلة لديهم.

حاولت عدم القيام بدوري المعهود في فصلين من الفصول، ولم أتعهد لهما بالانتظام في الحضور، لكن دائمًا ما كان يوجد واحد أو اثنان في كل فصل من الذين لا تبدو عليهم أبدًا علامات عدم الإكراه.

سألت أحدهم: هل تحب الفصل؟

– نعم، أحبه كثيرًا.

– لكن ذلك لا يبدو واضحًا إلا إذا جئت أنا.

قال: لماذا ينبغي أن أكون في الفصل إذا كان بمقدوري أن أكون خارجه؟

مضيت نحوه وأخبرته بأن يكون واضحًا وصريحًا مع نفسه ويتصرف طبقًا لما يريد، لكنه قال: لقد بالغتَ في اعتقادك أنني أستطيع التصرف طبقًا لرغباتي، حتى لو أنني سأفعل ما أحب.

استدرت بعيدًا عنه.

بدأت حديثي قائلًا: إن أول قاعدة يجب مراعاتها عند الكتابة هي …

لم ينتظروا نهاية الجملة، وقاطعوني قائلين: ألَّا تصيبَ القارئ بالضجر.

قلت: والقاعدة الثانية هي ألَّا تصيب القارئ بالضجر.

قال أحدهم: ولكن ذلك …

قاطعته وأضفت: والقاعدة الثالثة التي لا بد من مراعاتها عند الكتابة هي ألَّا تصيب القارئ بالضجر. وإذن فهل يستطيع أحدكم الآن أن يخمن القاعدة الرابعة والخامسة؟

إن التدريس في السجن لا يشكل فرقًا في الحقيقة عن التدريس في أي مكان آخر، فالطلبة هم الطلبة، والكتابة هي نفسها الكتابة، مع بعض الاختلافات الطفيفة بالتأكيد، لكن تلك الاختلافات أصغر مما قد يظن المرء؛ فالقصص التي يتناولها الكتاب في السجن مليئة أكثر بالأحداث عن تلك التي يتناولها الكتاب في الكلية، كما أن الحدث نفسه يكون أكثر إثارة، وتوجد أيضًا بعض الاختلافات الخفية في طريقة التدريس التي أتناولها؛ لأن طلبتي في السجن محرومون في الغالب من العلاقات الرومانسية الحميمية، واللقاءات المنتظمة المباشرة، وهكذا فإنني لا أطلب منهم أن تكون قصصهم وكتاباتهم أفضل من ممارسة الجنس؛ لأنهم سيتذكرون على الفور بأنني أطلب شيئًا لا يمتلكونه، بالإضافة إلى أن بعضهم لن يمارس تلك العلاقة بقية حياته، ويجب ألا أطلب منهم في الوقت نفسه أن تكون كتاباتهم وقصصهم أفضل من السير في الغابة، وإنما يجب إخبارهم بأن تكون كتاباتهم أفضل من كتابات أخرى كثيرة قمت بقراءتها على مدى سنوات، أو أكثر إثارة من الأفلام التي شاهدتها، هكذا فقط يمكن إخبارهم؛ كي يتفاعلوا معي ولا يشعرون بالزيف.

أخبرني طلبة السجن، فور البدء في العمل معهم، بأنهم لاحظوا عدم خوفي منهم، وأن ذلك الأمر نادر الحدوث، وقال بعضهم بأنني في الغالب المدرس الوحيد الذي لم يخف منهم.

كان كثير من المدرسين، وآخرون ممن يتعاملون معهم، يبدون في البداية وقد ملأهم الرعب لئلا يقوم أحد المساجين بحركة مفاجئة وسريعة، فقلت: لا يوجد سبب لديكم لإيذائي فلماذا أخاف إذن؟

قالوا: تمامًا، لا يوجد أي سبب.

كان لا بد من ممارسة قليل من الذكاء أثناء التعامل معهم، فلم أكن مثلًا أدير ظهري للطلبة الذين لا أعرفهم رغم أنني دائمًا ما كنت ودودًا ولطيفًا معهم، كما كنت أيضًا حريصًا، على الدوام، أن أضع جهازًا للإنذار في حزامي يمكنني أن أضغط عليه في أي لحظة أشعر فيها بالخوف، ليسارع الحرس بإنقاذي، لم يكن طلبتي يتمتعون بتلك الميزة.

كان حبي واحترامي لطلبتي متساويًا بين طلبة الكلية وطلبة السجن، ولم يحدث أن شعرت بفرق بينهما.

لم يستطع كل الطلبة تقدير جهودي، سواء في الكلية أو في السجن، ومن المحتمل أن ذلك ما حدث في الشوارع وفي البيوت. منذ عامين تقريبًا التحق طالب جديد بفصلي في السجن، واستطعت بسرعة أن أكتشف أنه كاتب موهوب ورائع، ولا أنسى أبدًا ذلك السطر في القصيدة الذي راح يصف فيه الرجل المضروب دفاعًا عن الجماعة بالكيميائي البارع الذي يخلط المعادن ببذور النباتات والثمار، رأيت هذا الطالب الجديد مرة واحدة، ثم اختفيت لفترة كنت مشغولًا فيها بمراجعة أحد الكتب، وبعد عودتي لم يكن موجودًا، فلم أشاهده لشهور عديدة، لكنني رأيت في الفصل الثاني رجلًا طويلًا ونحيلًا بدا لي مألوفًا، فسارعت بسؤاله: هل أنت هو الشخص الذي كتب ذلك السطر عن خلط المعادن ببذور النباتات والثمار؟

نظر نحوي بطرفي عينيه وقال: نعم.

قلت: لقد قلتُ لكل الناس وفي كل مكان بالبلد إنك كاتب عظيم، لقد كان وصفًا رائعًا.

ابتسم، وبدا أنها المرة الأولى، أو إحدى المرات القليلة التي استمتع فيها بوجوده في الفصل، وفي السنة التالية أو السنتين التاليتين كان متحفظًا، وبدا فاترًا إلى حدٍّ ما. كانت قراءته لقصائده الخاصة وقصصه — التي اتسمت في الغالب بالبراعة — هي أقصى ما يستطيع أن يشارك به، لكنه كآخرين من أمثاله لم يكن يحب الفصل على ما أعتقد. وفي يوم ما أخبرنا عما يضايقه وقال: لقد سئمت حقًّا من الطريقة التي تعاملوننا بها، إنكم تعاملوننا كالأطفال، وليس من المستبعد أن تحضروا لنا الحفاضات في يوم ما. إن كل ما تفعلونه دائمًا هو الإشارة إلى أننا كتَّاب جيدون، لكن الحقيقة أن بعض الكتَّاب هنا ما زالوا مبتدئين، والكثير من أعمالهم لا ترقى إلى مستوى الإبداع، لكنكم لا تخبرونهم بذلك أبدًا.

قلت: إنني أقدم بعض الاقتراحات، وإذا أبديتم قبولًا لتلك الاقتراحات، وأيضًا إذا ما قمتم بتطبيقها لتحسين كتاباتكم فلن أتردد في تقديم المزيد من الاقتراحات، أما إذا لم تقبلوا بها وأبديتم عدم تفهم لها فلن أتقدم بالنصيحة؛ لأنها حينئذٍ تكون عديمة الفائدة.

– لكنك لم تخبرنا أبدًا بأخطائنا.

– إنه ليسعدني أن ترغبوا في مزيد النقد لأعمالكم وتوضيح أخطائكم.

– أوه، أنا لا أتحدث عن أعمالي الشخصية فهي كتابات جيدة، وكل ما قلته لا يعني بالنسبة لي أي شيء على أية حال، لكن بعض الطلبة هنا في حاجة لأن تتحدث معهم، إن أعمالهم الإبداعية مبتذلة، ويجب أن تخبرهم بذلك حتى يتوقفوا عن تبديد وقت الآخرين ووقتهم هم أولًا.

كان ذلك الكلام، في المقام الأول، بمثابة إشارة لي، وبدا واضحًا بالنسبة لي، وبالنسبة لواحد من طلبتي المفضلين الذي يأتي كل أسبوع، أن الأمر ممتع ولطيف. كتب الكثير، كانت لديه الهبة لكي يلحق بأحداث الرواية ويدرك الحبكة الروائية. ومن وجهة نظري فإن ما هو أهم من كل ذلك أن الأمر برمته مناسب للتعليم. عندما بدأنا العمل معًا في البداية كانت كتاباته أقرب إلى المسودات والأفكار المختصرة منها إلى القصص، فاقترحت عليه أن يدخل في تفاصيل أكثر لكي يبين لنا، على سبيل المثال، شخصًا بريئًا وقد عثر على نقود كثيرة مسروقة من أحد البنوك، وبدلًا من القول بأنه كان في نزهة حين وجد حقيبة وبها مليون دولار، أتساءل أنا قائلًا: هل كانت الحقيبة تشير إلى محتواها؟ وبماذا شعر حين فتحها؟ هل كان عصبيًّا؟ وهل فكر في مجرد إعادتها؟

عند سماعهم لسؤالي الأخير ارتسمت على وجوههم علامات تتهمني بالحمق.

عاد في الأسبوع التالي وقد أعاد كتابة سبعين صفحة احتوت على مثل تلك التفاصيل، ومنها الطريقة التي وصف فيها الشخص الذي وجد الحقيبة وهو يتناول إفطاره، حيث ذكر أن الإفطار بدأ في السابعة والدقيقة الثالثة والعشرين، وتحدث عن كمية السجق بالواحدة، وعدد البيضات، وكيف قام بتسوية كل بيضة على حدة، وهكذا حتى إنه اعترف بالإغراق في التفاصيل، وقد أجبرناه على تمزيق كل الأوراق فاستمع إلينا، ولا بد أنه تعلم شيئًا جديدًا مما جعلني أشعر بسعادة بالغة.

دافعت عن هذا الطالب علانية بينما راح زملاء آخرون يواصلون هجومهم معبرين عن استيائهم لضياع الوقت.

عدت في الأسبوع التالي وأخبرت زملائي بأنني في حاجة لتوضيح بعض الأشياء، ثم لم أتردد في القول: ليس مسموحًا لأحد أن يبدي عدم احترامه لطلبتي، وهذا الكلام ينطبق على الطلبة أنفسهم، فليس مسموحًا لأي طالب أن يعبر عن ازدرائه لأي زميل له في الفصل، كما أنه ليس من حق الطلبة ألا يكنوا الاحترام لأنفسهم أولًا.

ساد شعور بالرضا لدى كثير من الطلبة بعد سماع ذلك الكلام، ورحت أتجول في الفصل وأسأل كل واحد على حدة عما إذا كان راغبًا في الحديث عن الموضوع، فقال أحدهم بأنه لا يتفق معي في فلسفتي التعليمية التي أعتمد فيها على المديح والإشادة والتمجيد، ثم استطرد قائلًا: إذا رغبت أنا مثلًا في الكتابة بشكل أفضل فلا بد أنني في حاجة أولًا لمعرفة نقاط ضعفي ككاتب.

قلت له: أتعرف نقاط قوتك ككاتب أولًا؟

– لا.

– حسنًا، بعد أن نكتشف نقاط قوتك سيكون أمر اكتشاف نقاط ضعفك واضحًا جليًّا، أفليس من الصواب إذن أن نتعرف على نقاط قوتك وعلى مميزاتك في الكتابة قبل الحديث عن نقاط الضعف.

وافقني بإشارة من رأسه.

هكذا سارت الأمور حتى وصلنا في النهاية إلى الشكوى الأساسية حين قال شخص ما بصراحة: نحن المدانون، نحن لا نشبه بقية الناس، كما أننا لسنا مثل طلبة الكلية الذين تجبرهم على ارتداء الحفاضات، نحن نقوم بعمل أشياء فظيعة ومروِّعة، والبعض منا أشخاص مروِّعون، نريدك أن تخبرنا عن أخطائنا وعيوبنا.

غضبت بشدة، ولكن ليس بسبب ما قاله فقط، وإنما بسبب أولئك الذين التقوا به في حياته وأقنعوه بأن إخباره بأخطائه دليل على اهتمامهم به، وغضبت أيضًا بسبب كل تلك الثقافة التي نشأت في ظل بيئة لا تقبل الاختلاف ولا يسود فيها الاحترام المتبادل، ويفقد فيها الناس قدرتهم على حب ذواتهم. لقد فكرت في ذلك الملصق الضخم الذي شاهدته في يوم ما وكان مكتوبا عليه: «أولئك الذين يخافون من اتباع أحلامهم هم الذين سيقومون بتدميرك.»

ضربت يدي بقوة فوق الطاولة فتراجع أحد الطلبة إلى الوراء، وقلت بصوت أكثر حدة من أي وقت مضى: أنا لا يعنيني ماذا تفعل، ولا أهتم حتى بأنك قمت بنكاح أمك، أو قتلت صديقك الحميم، لا يهمني كيف يعاملونك خارج هذا الفصل، وكيف تعامل أنت الآخرين خارج هذا الفصل، فأنا لا أستطيع التحكم فيما يحدث بالخارج، ولكن في هذا الفصل، وهنا داخل هذه الحجرة، فإن جميعكم بشر وآدميون، ولا بد أن يكون التعامل معكم باحترام، وذلك أمر غير قابل للتفاوض.

انتهيت من كلامي، فقام على الفور بمغادرة الفصل، ومن يومها لم أشاهده مرة أخرى ولم أسمع عنه شيئًا، لكنني أظن بأنه لا يزال يمارس الكتابة وبشكل جيد، وربما يتسنى لي رؤيته في يوم ما، وربما لا.

من المدهش حقًّا أن نظام التعليم قد ساهم بشكل كبير في تدمير روح الطلبة، وكانت تلك غايتهم منذ البداية على ما يبدو، وأرجو ألا تغضب مني أو من كلامي، ولكن عليك بالغضب على الذين أسسوا ذلك النظام، في عام ١٨٨٨م (وأنا هنا أَدين بالفضل كله للمربي والكاتب الكبير «جون تايلور جاتو» لجمعه تلك الاقتباسات الخاصة بالهدف الأساسي

من التعليم الصناعي) كان مجلس الجامعة غاضبًا من جودة التعليم التي يتلقاها الطلبة في المدارس المحلية غير الموحدة، فكتب التقرير التالي: نعتقد أن التعليم هو أحد الأسباب الرئيسية في الاستياء وحالة السخط التي سادت في السنوات الأخيرة داخل الفصول.

كيف بدأ المسئولون في المدارس الصناعية يدركون حجم المشكلة؟

قال المعلم والفيلسوف «جون ديوي»: يجب على كل مدرس أن يدرك أنه يعمل في خدمة مجتمعه، وأنه يدخر كل مجهوداته لعملية إصلاح النظام الاجتماعي المناسب وصيانته، والعمل على تأمين التطور الاجتماعي السليم.

وكان السؤال التالي: ما النظام الاجتماعي المناسب، وما التطور الاجتماعي؟

في عام ١٩٠٦م أجاب «إلوود كوبرلي» الذي أصبح — فيما بعد — عميدًا لمدارس إحدى كليات التعليم، وقال: ينبغي أن تصبح المدارس كالمصانع حيث يقومون بتشكيل المواد الخام ويصنعون منها أشكالًا نهائية في صورة منتجات مختلفة، وهذا بالضبط ما يجب أن يحدث في المدارس، يجب أن يعملوا على تشكيل عقول الأطفال وتدريبهم على التفكير الحر وعلى الإبداع والابتكار.

وفي عام ١٩٠٦م قام مجلس روكفلر للتعليم، بصفته أكبر المناصرين لحركة التعليم العامة الإلزامية، بمساندة الحركة ماديًّا، وقالوا في ذلك الصدد: إن الناس تسلم نفسها لنا طواعية لنشكلهم حسبما نريد. إن اتفاقيات التعليم الحاضرة؛ مثل اتفاقية تطوير مهارات الأطفال وشخصياتهم داخل المنزل وفي المدارس المحلية، لم تعد تشغل حيزًا من تفكيرنا، وساهمت التقاليد بشكل كبير في إعاقتها. لن نحاول أن نجعل من أولئك الناس فلاسفة أو رجال تعليم أو رجال علم، ولن نحاول أن نكتشف — من خلالهم — الكتاب والمعلمين والشعراء أو الأدباء، لن نبحث عن الفنانين العظماء الصغار أو الرسامين والموسيقيين، ولا حتى المحامين والأطباء والدعاة ورجال السياسة أو رجال الدولة، والذين هم موجودون بكثرة، وإنما مهمتنا التي تشغلنا ونحاول تحقيقها هي مهمة بسيطة تنحصر في كيفية تنظيم الأطفال وتعليمهم إتقان فعل الأشياء نفسها التي كان يفعلها آباؤهم وأمهاتهم بغير إتقان.

لم يستطع المسئولون أن يكونوا أكثر وضوحًا، وكتب «وليام توري هاريس» مفوض التعليم الأمريكي في الفترة ما بين ١٨٨٩–١٩٠٦م قائلًا: إن ٩٩٪ من الطلبة تلقائيون وحريصون على السير في طرق وممرات محددة، وكذلك على اتباع العادات المحددة نفسها، وليس ذلك مصادفة، ولكن نتائج التعليم الأساسية، والتي يمكن تعريفها بشكل علمي، هي مقدمة لشخصية الفرد.

استطرد «هاريس»، للتدليل على أن الأمر لا يتعلق بالطلبة فقط وعلاقاتهم ببعضهم البعض، وإنما بالبلد بأكملها: إن هدف المدرسة الأساسي والأهم يمكن إدراكه بشكل أفضل في الظلام والسكون والأماكن الرديئة، حيث يمكن السيطرة على النفس وتجاوز جمال الطبيعة، يجب أن تقوم المدرسة بعملية تطوير القوة للانسحاب من العالم الخارجي.

لا عجب إذن لأننا جميعًا نكره المدرسة، وتلك الكراهية في حد ذاتها شيء جيد جدًّا؛ لأنها تعني أننا ما زلنا أحياء.

من أنت؟

«رغبت فقط أن أعيش متصالحًا مع معتقداتي الشخصية، ولكن لماذا كان ذلك أمرًا بالغ الصعوبة؟»

هيرمان هيسه

* * *

تنطوي الحياة — في الحقيقة — على تساؤل واحد، وتحمل درسًا واحدًا، ولا ينفك ذلك التساؤل في مهاجمتنا برفق وبشكل متكرر وأينما ذهبنا، إن القمر ينطق بالتساؤل نفسه كل ليلة، وكذلك تفعل النجوم، كما يظل التساؤل في الإلحاح عندما تتساقط قطرات من المطر وتتعانق مع أوراق شجرة الأرز الطرية، وكذلك عندما تتجمع قطرات من المياه بين ثنيات أنفك أو عند جوانب فمك ... الضفادع، الزهور، الأحجار، قطع البلاستيك الجامدة، كل تلك الأشياء تؤدي إلى التساؤل نفسه.

التساؤل هو: من أنت؟

أما الدرس فهو تساؤل آخر عما إذا كنا قد وُلدنا، أم أننا جئنا نتيجة بذور تم غرسها في الأرض، أم نتيجة لبيضة مفقوسة، أم أننا خرجنا من الحجارة، أم أننا سقطنا من السماء، وربما نكون قد عشنا ثم وافتنا المنية، أو تلاشينا أو تحطمنا وتكسرنا، أم أنهم قاموا بإلقائنا أشلاء في النهر أو البحيرة أو في أعماق البحر، إن الأمواج تتدفق نحو الخارج كي ترتد مرة أخرى من الشاطئ البعيد. وإذن ما الذي سوف تفعله في تلك الأثناء وأثناء حدوث كل ذلك؟ وما الذي ستحاول اكتشافه؟ وما الذي ستريد أن تكون عليه؟ من تكون أنت؟ ومن أنت تكون؟ وكيف ستتصرف حيال ذلك؟

إذا تطلب التعليم الصناعي الحديث والحضارة الصناعية بشكل عام، تعريفًا عامًّا للفرد، وتحويله من إنسان نابض بالحياة إلى إنسان آلي، وإلى قوًى عاملة مطيعة ولينة، فإن أقصى ما يمكننا فعله هو أن نتبع قلوبنا لإظهار حقيقتنا ومعرفة من نكون. نحن في حاجة ماسة للثورة بكل أشكالها المختلفة؛ من الشخصي جدًّا إلى العالمي، من الهادئ جدًّا إلى الصاخب الموجع، نحن نقضي على الحياة فوق كوكب الأرض ويقتل بعضنا البعض، إننا نقتل أنفسنا.

وما زال جيراننا وإخوتنا في الإنسانية، والطيور الطنانة، وأشجار التوت، والانفجار الحاد للزلزال الذي يوقظك من نومك ويسألنا: من أنتم؟ وماذا تمثلون بالنسبة لنا وبالنسبة لأنفسكم؟

إن نظامنا الحالي يفصلنا عن وجداننا وعن أجسادنا، ويباعد بيننا وبين جيراننا، ويخلع عنا إنسانيتنا، ويقتل الحيوان بداخلنا، ويحصرنا داخل دائرة العالم الذي نعيش فيه، كما يباعد بيننا وبين الأخلاقيات السوية، ويحرمنا من التفكير البدائي (كم هو رائع أن تدمر مكان إقامتك؟ ومن العبقري الذي ابتكر فكرة وضع السم في طعامنا وفي الماء الذي نشربه والهواء الذي نتنفسه؟)

لقد سمعت المدافعين عن ذلك النظام يقولون بأن اتباع الإنسان لعاطفته ووجدانه ليس كافيًا من الناحية الأخلاقية، وضربوا مثالًا على ذلك بهتلر الذي كان منقادًا لعاطفته ووجدانه عندما حاول أن يقهر العالم كله ويتخلص من أولئك الذين كان يراهم غير جديرين بالحياة، لكن هتلر لم يعد يتبع قلبه أكثر من أي منا نحن الذين نساهم بطريقة عمياء في الثقافة التي أنجزت ما أراده هتلر، ولم تستطع أن تصل به إلى الكمال. إن الحقيقة تتمثل في — كما بينتها في مكان آخر — أنها كلمة مطاطة وكثيرًا ما تتسبب في المتاعب، وذلك فقط من خلال الانتهاكات المخزية التي تحدث لقلوبنا وعقولنا وأجسادنا، والتي نغرسها نحن ونضعها في نظام حيث تصبح جزءًا من نفوسنا المشوهة والممزقة؛ كي نضفي نوعًا من الخلود على الطريقة القائمة على الاستغلال والتخلص من كل شخص وكل شيء يمكن أن نمسك به في أيادينا.

من خلال هذا السياق فإن السؤال الذي يسأله العالم كله في كل لحظة يصبح بلا قيمة، ولكنه يجعل الأمر أكثر خطورة، من أنت؟ من أنت حقيقة؟ من أنت في ظل ذلك الحصار وتلك الصدمات التي تثير الفوضى في حياتنا وتساهم في تشكيلها؟ وماذا تريد أن تفعل بتلك الحياة القصيرة جدًّا التي يُشاء لك أن تحياها؟ إننا لا نستطيع العيش بالطريقة التي

نعيش بها إلا إذا لم نسأل أنفسنا ذلك السؤال وقمنا بتدريب أنفسنا والآخرين على اجتناب ذلك السؤال، بالإضافة إلى إجبار الآخرين على عدم طرح ذلك السؤال أمامنا، ومحاولة النيل من أولئك الذين يفعلون.

كنا على وشك الانتهاء من الأسبوع الدراسي الأول حين توجهت بالسؤال التالي: إذا حصلتَ فجأة على مبلغ من المال أكثر مما تتخيل، أو فلنقل مليونًا من الدولارات مثلًا، فهل ستواصل دراستك؟

قال شخص ما: أفترض مبلغًا أكثر من المليون.

– حسنًا، ثلاثة ملايين.

– أكثر.

– لا تكن جشعًا وأجب عن السؤال، هل ستستمر في الدراسة؟

قال آخر: لا بد أنك تهذي، لا أحد في الفصل كله سيواصل المجيء إلى هنا لمواصلة الدراسة إذا امتلك مثل هذا المبلغ الكبير من المال.

لقد سألت السؤال نفسه على مدى سنوات عديدة حتى الآن، وكانت إجابات كل الطلبة تؤكد ترك الدراسة، فيما عدا خمسة أو ستة من الطلبة فقط هم الذين رغبوا في الاستمرار.

وتناقشنا حول ما يمكن أن يعملوه عند حصولهم على تلك النقود وترك الدراسة، فأخبرني الكثير برغبتهم في السفر، بينما قال البعض بأنهم سيبقون في بلدهم ويجلسون في البيت لمتابعة التليفزيون، كما عبر البعض الآخر عن رغبتهم في إقامة حفلات صاخبة، وأكد كثير من الطلبة على أهمية عدم مشاركة الوالدين والأقرباء والأصدقاء في شئونهم الاقتصادية، وقد سارع كثيرون أيضًا بالتعبير عن رغبتهم في شراء بيوت لذويهم، أما القليلون منهم، وبخاصة الأكبر سنًّا وأولئك الذين عادوا لاستئناف الدراسة بعد طول انقطاع، فقالوا بأنهم فيما عدا ترك المدرسة فإنهم لن يغيروا كثيرًا من طريقة حياتهم.

قلت متسائلًا: هل ستحصلون على وظيفة وتحافظون عليها؟

ضحكوا جميعًا، ولم يُجب أحد منهم بالإيجاب.

ثم أضفت مخاطبًا أحدهم: حسنًا، لقد حصلتَ على كل تلك النقود، وفي اليوم التالي ذهبتَ للطبيب لعمل فحوصات كالتي تقوم بعملها من وقت لآخر، وعندئذٍ اكتشفتَ بأنك مصاب بمرض لعين، وأنك ستبقى حيًّا لمدة عام دون إحساس بأي من أعراض ذلك المرض اللعين، وأنك ستبدو أمام الناس في حالة جيدة طوال الوقت، لكنك في نهاية تلك المدة ستموت فجأة، ماذا ستفعل عندئذٍ؟

– أمهلنا بعض الوقت للتفكير.

ضحكت قائلًا: إنه السؤال نفسه ولا يحتاج لمزيد من التفكير.

راحوا يفكرون، فقاطعتهم وقلت: هل ستواصلون المجيء إلى المدرسة؟

– بالطبع لا.

– إذا كانت فرصتكم في العيش على قيد الحياة محدودة فهل ستتقدمون للحصول على وظيفة؟

– بالطبع لا.

راح الكثير منهم يعبر مرة أخرى عن رغبته في السفر، بينما قرر آخرون البقاء وتمضية الوقت مع عائلاتهم، وقال عدد لا بأس به بأنهم سيُفْرِطون في ممارسة الجنس، وأعلنت واحدة عن رغبتها في أن يكون لها طفل، لكن بعضهم اعترض على رغبتها تلك؛ لأن الطفل سرعان ما سيصبح بلا أم، غير أن آخرين وقفوا إلى صفها وأيدوا فكرتها، أما القليلون فقالوا بأنهم سيتعلمون التحليق في الهواء، وفي اليوم الأخير سيقفزون بالمظلة، وقال أحدهم بأنه سيمشي في اليوم الأخير فوق جناح طائرة متحركة لينتهي نهاية مأساوية، وفي الأخير قال اثنان بأنهما سيقضيان أيامهما الأخيرة في المستشفى أملًا في الشفاء.

عندما بدأت ردود الأفعال والإجابات تتوقف سأل واحد من الطلبة باهتمام شديد: وما الهدف من مثل هذا السؤال؟

فكرت لحظة ثم هززت كتفي قائلًا: لمجرد اللهو والمزاح.

بدا أنه اقتنع بإجابتي، فسأل شخص آخر قائلًا: وماذا لو كان الأمر مختلفًا؛ بمعنى أنني امتلكت كل تلك النقود دون أن أعاني من أي مرض؟

قلت: ليس شيئًا سيئًا.

لا شيء؟

قد أخرج لأتناول مزيدًا من الطعام فأنا لا أجيد طهي الطعام، وإذا امتلكت مزيدًا من النقود فسوف أشتري أرضًا.

رفعت امرأة يدها بخجل، فنظرت إليها وأومأت لها برأسي، ثم قالت بهدوء: ألا تعتقد عندئذٍ أنه بمقدورك شراء سترة جديدة تكون مناسبة لك؟

وأضاف آخر: ولتفعل شيئًا بخصوص تلك القمصان التي ترتديها، من أين تُشترى تلك القمصان؟

حسنًا، في الحقيقة ...

اتفقوا جميعًا على شراء ملابس حديثة من أجلي في حال امتلاكهم النقود، وتحدثوا في كل التفاصيل التي تجعلني في النهاية لائقًا من حيث المظهر، ثم سأل أحدهم: وماذا لو أنك ستعيش سنة واحدة فقط؟

أجبت: سوف أكتب بلا توقف، فبداخلي قائمة طويلة من الأشياء التي ينبغي كتابتها، ولا أريد أن أموت دون الانتهاء من كتابتها.

هل ستقوم بعمل شيء خاص في اليوم الأخير؟

أجبت قائلًا: أوه، سأطوق نفسي بحزامٍ ناسف، وأسارع إلى أقرب سد أو خزان، وذلك أقل ما يمكنني عمله للنهر ولأسماك السلمون.

سألتني امرأة أثناء إحدى محاضراتي الأخيرة عما يجب أن تفعله مع ابنها ذي الخمسة عشر عامًا، والذي هو على الرغم من أنه شخص جميل ورائع، فإنه يكره المدرسة ويكره التدبير والثقافة، وقالت بأنها لا ترغب في إجباره على العمل، ولقد بذلت أوقاتًا عصيبة من أجل إقناع نفسها بضرورة حثه على البقاء في المدرسة.

عجزتُ عن التفكير ولم أستطع أفضل من القول: إنه لموقف صعب. حقًّا، أنت تريدين تعليم الأولاد كيفية تحمل المسئولية، ولكن المسئولية طبقًا لثقافتنا هي الذهاب إلى المدرسة والحصول على وظيفة، وكيفية أن تكون عبدًا، ولكن كيف تستطيعين تعريف المسئولية وتعليمها للأولاد في ظل كل تلك القيود والمعوقات؟ أنا لا أعرف!

تنفستُ بعمق، وقبل أن أتمكن من الاستمرار ظهرت امرأة أخرى من بين الحضور، وكانت هي صديقتي القديمة «كارولين رافينسبيرجر» ثم تساءلَتْ عما إذا كان بمقدورها المحاولة رغم القيود.

أومأت برأسي، فقالت: أحد أهم الأشياء التي يمكننا القيام بها هو مساعدة الشباب لمعرفة طريقهم الصحيح، والذي يستطيعون من خلاله أن يكونوا في خدمة شيء أكبر من ذواتهم، إن السبب الوحيد الذي يجعل الأطفال في العادة يذهبون إلى المدارس والكليات هو الرغبة الأزلية في التحرك إلى الأمام، لكننا نفشل في تعليم أطفالنا العمل على خدمة شيء أكبر من ذواتهم مما قد يقودهم إلى حياة سعيدة ومرحة، ويؤدي بهم إلى الشعور بالرضا، وإلى العيش في ظل حياة ثرية وبيئة طبيعية.

نظرت المرأة إليها باهتمام، كما فعل كثير من الموجودين في الحجرة، فاستطردت «كارولين» قائلة: كل ذلك يبدأ بالسؤال عن أكبر المشاكل وأهمها التي أستطيع القيام بحلها

باستخدام مواهبي ومهاراتي، وحتى يمكنني الإجابة بشكل مبدئي على ذلك السؤال يجب أن أبدأ بتحديد المسار المناسب والبسيط.

ذلك ما جعلني أفكر في ما كان فلاسفة الإغريق يطلقون عليه فلسفة السعادة، لكنني أعتقد — إذا التزمنا مزيدًا من الدقة — بأنه التوافق والتطابق، وعندئذٍ يمكن طرح السؤال التالي: كيف تتوافق أفعالك مع مواهبك؟ وكيف تتوافق مع شخصيتك؟

إن مفهومي لذلك هو أننا بعد الموت نعيش مئات المرات التي نتعامل فيها كما كنا نتعامل مع الآخرين قبل أن نموت، وعندما يأتي دورنا في البعث من جديد فإننا نقرر من سيتولون رعايتنا ويصبحون آباء وأمهات لنا، وكذلك نقرر ما ستكون عليه مواهبنا وأهدافنا، وقبل أن نأمل في العودة إلى هذا الجانب فإننا نتناول شرابًا ما يجعلنا ننسى كل شيء، وبعد أن نصبح أحياءً مرة أخرى يصبح لزامًا علينا أن نتذكر مواهبنا وقدراتنا، والمهام التي ينبغي القيام بها ويتحتم علينا إدراكها بمساعدة الأرواح التي تقوم بتوجيهنا، أو بتوجيه من الأرواح التي تحرسنا. وهكذا فإن فلسفة السعادة التي تبناها فلاسفة الإغريق تعني ببساطة أن تمتلك روحًا حارسة تكون بمثابة الوصي.

أضافت «كارولين»: بعد انتهائي من الجامعة والدراسات العليا لم أكن أعرف شيئًا عما يجب أن أفعله بحياتي، ففكرت أن أدرس القانون على أمل مزيد من التقدم، لكنني فشلت في البداية، وربما كان ذلك شيئًا جيدًا؛ لأنني لو لم أفشل لكان من المحتمل أن أصبح موضوعًا شائقًا للمزاح، غير أنني بعد ذلك استشعرت ضرورة الالتحاق بمدرسة القانون بهدف تحقيق رغبتي في العمل في مجال حماية البيئة، وعندئذٍ حققت نجاحًا ملحوظًا، لقد كنتُ الشخص نفسه في المرتين، لكن غياب الهدف في المرة الأولى هو ما أدى إلى الفشل، بينما كان الحافز في المرة الثانية هو سبب النجاح. عندما يعرف الناس نوع المشكلة التي يرغبون في حلها، ويستخدمون في ذلك مهاراتهم التي يتفردون بها، فإنهم غالبًا ما يعرفون ما يحتاجونه للقيام بالخطوة التالية.

طلبوا مني إلقاء محاضرة لطلبة المرحلة الثامنة حتى المرحلة الثانية عشرة، فاعتراني الخوف أكثر مما كان يحدث لي في السجن، وأخبرت الأولاد عن مخاوفي وعن أسبابها قائلًا: عندما كنت في السنوات الأولى من التعليم الابتدائي والتعليم الثانوي، وكانوا يجبرونني على حضور كل الدروس، كنت أجلس في آخر صف من الفصل واضعًا يديَّ في جيوبي.

ثم طلبت منهم أن أرى أياديهم فرفعوها عاليًا وهم يضحكون.

بذلت مجهودًا كبيرًا في التفكير فيما يمكنني قوله لهم، وفي كيفية شرح وتوضيح القاعدة الأولى التي يجب مراعاتها أثناء الكتابة أو الحديث، وفكرت بشكل خاص فيما يمكنني أن أقدمه لهم ويكون مساويًا للوقت الذي منحوني إياه، وفي النهاية قررت كالعادة أنني يجب أن أقول الحقيقة عندما يفشل الجميع، فقلت لنفسي بأنني سأخبرهم عن بعض الأشياء التي كنت أرغب أن يخبرني بها أحدٌ عندما كنت في مثل أعمارهم، وعندئذٍ قلت: أعتقد أن أول شيء كنت أرغب في معرفته عن طريق شخص ما هو القول بأن كراهية المدرسة شيء عادي، وأنه من الجنون حقًّا أن تتوقع جلوس الناس بلا حراك وهم يتظاهرون بالاهتمام، والأمر الأكثر جنونًا هو أن تتوقع تعاطفهم وحبهم. يبتهج الأولاد بعد فترة من الخمود، فهل المديرون باستثنائي أنا يعتقدون أو يظنون في أسباب مختلفة.

الشيء الثاني الذي تمنيت أن يخبرني به أي شخص هو أن الأشياء ستمضي إلى الأفضل إذا قام كل فرد بواجبه. قال أحد الطلبة في حفل تخرجنا من المدرسة العليا بأننا في يوم ما سنشتاق كثيرًا لأيامنا هذه، وسوف ننظر لها على أنها أفضل أيام حياتنا، وكان أول شيء فكرت فيه حينئذٍ أن المرحلة كلها سوف تتلاشى وتتحول إلى آلاف من الذكريات المتناثرة، لكنني بعد ذلك مباشرة فكرت لو أن ذلك هو ما سيحدث بالفعل لسارعت بقتل نفسي، لكن الأشياء تتجه للأفضل. كانت سنوات العشرين صعبة وربما كريهة مثل سنوات المدرسة، لأنك تستنزف وقتًا طويلًا حتى يمكنك الشفاء منها لتبدأ بعد ذلك في الفهم والتفكير والإحساس بنفسك، وهي سنوات صعبة أيضًا لأنك تتعلم خلالها كيفية التفكير، وتكتشف حينها أنك جزء من العالم. أما سنوات الثلاثينيات فهي سنوات ممتعة لأنني أدرك خلالها مَن أكون، وتكتمل أثناءها فكرة معرفة الذات، وأبدأ فعلًا في معايشة نفسي. والشيء نفسه بالنسبة لسنوات الأربعينيات فهي أيضًا سنوات ممتعة وعظيمة.

الشيء الثالث الذي كنت أتمنى أن يخبرني به شخص ما هو ألَّا ينبغي أن أكون ضعيفًا، وأنه يجب أن أمضي في طريقي لتحقيق النجاح، وأن أطلب من الآخرين إفساح الطريق.

أدركت من نظراتهم المرتسمة فوق وجوههم أنهم فهموا كلامي على أنه نصيحة، فأخبرتهم بأن آخر ما قالته لي أمي، أثناء صعودي للطائرة المتجهة إلى كاليفورنيا في فترة الصيف، قبل انتقالي إلى المرحلة النهائية من المدرسة الثانوية، هو قولها: «تأكد أنها في الثامنة عشرة من عمرها»!

ثم قلت لهم: إن ما قالته أمي كان أفضل شيء تقوله لشاب خجول جدًّا ليست له خبرة مع الفتيات، مثلي مثل كثير من أصدقائي وربما مثل جميع أصدقائي. تمنيت أن أخبرهم

بشيء آخر لكنني لم أفعل، ربما لأن اللغة لم تسعفني، ولقد ندمت بسبب خجلي أكثر مما ندمت على تهوري وطيشي في بعض الأحيان. كانت الأحداث التي لم يتم إنجازها أكثر من تلك التي حدثت بالفعل، ولم يحدث الندم أبدًا مع الانقياد لقلبي وعواطفي، ومع الالتزام بالمودة والألفة مهما ترتب على ذلك من ألم، لكن — بسبب الخوف — كان الندم يجتاحني عندما كنت لا أشارك في الوقت الذي يجب أن أشارك فيه، وكذلك لم أكن أنصرف في الوقت المناسب، لقد اعتراني الندم عندما تملكني الخوف، وتمنيت لو أنني أخبرتهم أن ذلك ما حدث بالفعل، وليس مع امرأة وإنما مع كل شيء.

حكيت لهم عن الوثب العالي، وقلت لهم إنني كنت أخاف التنافس في مسابقات الوثب العالي — رغم حبي الدائم له — حتى أصبحت في السنة الثانية من دراستي الجامعية حيث لاحظني المدرب وأنا أقفز حول الملعب وأقنعني بضرورة الاشتراك في المنافسة، وفي النهاية استطعت تحطيم الرقم القياسي وحصلت على البطولة، لكنني بعد التخرج أصبحت خارج المنافسة، وحين تملكني خوف البداية من جديد أضفت قائلًا لهم: كم كان جيدًا وجميلًا كل ما استطعت الحصول عليه والقيام به.

ثم استطردت قائلًا: أخذت عهدًا على نفسي بأن أفعل ما أريد وما أستطيع القيام به في الوقت المناسب وقبل فوات الأوان.

قلت لهم أيضًا: أحيانًا أفكر بأن الجبن والخجل يعملان على تدمير كوكب الأرض، مثلهما مثل الجشع والحياة العسكرية والضغينة، ولقد عرَفت الآن أن تلك الأشياء جميعها هي أشكال مختلفة للمشكلة نفسها، إن أصحاب النفوذ وأولئك الذين يملكون القوة لا يقدرون على ارتكاب الأعمال الوحشية الكثيرة، والتي يفعلونها بطريقة روتينية، إذا لم نكن نحن في الأساس مدربين على الخضوع والاستسلام، إنهم يقتلون كوكب الأرض، وعندما يحين موعد موتي لا أرغب في النظر للخلف وفيما فعلت، وإنما أتمنى لو أنني قمت بعمل المزيد، ولو أنني كنت راديكاليًّا وميالًا إلى التغيير أكثر وأكثر اشتباكًا مع الواقع، إنني أريد أن أحيا حياتي وكأنها حياة مهمة فعلًا، أن أعيش حياتي وكأنني أحيا بالفعل، أن أعيش حياتي وكأنها شيء حقيقي.

أخذت نفسًا عميقًا ثم استطردت: وأريد أن أعتذر، كما ينبغي للأجيال السابقة أن تعتذر لي، عن الخراب الذي يسود العالم، والذي نصنعه نحن ونتركه لكم. إن جيلي من الناس قدم لكم النماذج والبنية الاجتماعية وفرض عليكم طريقة العيش والتفكير، وصنعوا أشياء تعمل على ثلوث البيئة ودمار الكرة الأرضية، لا شك أنكم ستعانون من كل ما نصنعه نحن، وأنا آسف جدًّا.

ما جعلني أنتقل إلى الشيء الثاني هو أنني كنت أرغب لو أن شخصًا ما كان قد قال لي ذلك، عندئذٍ كان سينقذني من عناء وقلق سنوات طويلة، أنتم لستم بمجانين وإنما الثقافة هي المجنونة، وإذا بدت لكم كذلك، لدرجة أن ثقافتنا تعمل على تعرية بيئة الأرض وتفكيكها، بالإضافة إلى أننا نبدي اهتمامًا أقل لأمر البيئة من اهتمامنا بممارسة الرياضة والعمل على احترافها، مما يؤكد أنها ثقافة مجنونة، وإذا بدت لكم ثقافتنا غريبة وبلا معنًى، وتعلي من قيمة النقود والناتج الاقتصادي على حساب الحياة الإنسانية وغير الإنسانية، فذلك لأنها بلا معنًى، وإذا رأيتم أنها ثقافة مهووسة يقضي فيها معظم الناس أكثر أوقاتهم وساعات عملهم في عمل أشياء من الأفضل عدم القيام بها، فذلك لأنها ثقافة مهووسة، ليس من الخطأ أن تفكروا في مثل تلك الأشياء، وإنما ذلك يعني في الحقيقة أنكم ما زلتم أحياء.

أتمنى أيضًا لو أن أحدهم قد سألني مئات المرات عما إذا كان مناسبًا أن يكون المرء سعيدًا، أو أن يعيش حياته بالطريقة نفسها التي يرغب فيها، وهل يكون الأمر حسنًا إذا لم يحصل المرء على وظيفة، أو إذا لم يعمل أبدًا، هل هو شيء جميل أن تعرف الأسباب التي تجعلك سعيدًا ثم تناضل من أجل تحقيقها، وهل هو شيء حسن أن تكرس حياتك لاكتشاف نفسك.

انتهى وقت المحاضرة، وبدأ الأولاد في الهتاف، واندفع بعضهم ناحية المنصة، وتقدم ناحيتي ولد طويل ونحيل ثم سألني بشغف: هل يعني كل ذلك أننا لسنا مضطرين لعمل أي شيء لا نرغب فيه أو لا نريده؟ وهل يعني ذلك أن كل شيء سيكون سهلًا؟

قلت: لا، سيكون الأمر صعبًا جدًّا، سوف ترتكبون ملايين الأخطاء، وسوف تدفعون ثمن كل تلك الأخطاء بطريقة أو بأخرى، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي ستتعلمون من خلالها، وربما هي الطريقة الوحيدة التي تعلمت أنا بها، أما الأجزاء الصعبة فستبقى هي أخطاءكم الصعبة، ولن تكون أخطاء خاصة بآخرين قد فرضوا أفكارهم عليكم لأسباب تتعلق بمدى ثقافتهم، أو ربما بدون أسباب على الإطلاق، إن امتلاككم للأسباب ومسئولياتكم تجاهها هو ما يتسبب في كل الفروق والاختلافات التي تسود العالم.

أهم التدريبات على الكتابة

«إنه مصيرنا، إذا لم نمتلك الفرصة للتمرد والعيش بعبثية لم نجربها أبدًا من قبل.»

أرنو جروين

«إذا هم أملوا عليك ما تكتبه، عليك أن تكتب بطريقة أخرى مختلفة.» هل هو «برادبوري» أو «وليام كارولز» أو «خوان رامون» أول من قال هذه العبارة؟ لست أدري!

* * *

قلت: إن القاعدة السادسة للكتابة مختلفة بعض الشيء، إنها تبين ولا تقول.

تحركت الأقلام فوق الورق، فأضفت متسائلًا: كم واحدًا منكم صرخ أو هتف أو تهلل أثناء قراءته لكتاب ما؟

رفع عدد كبير أياديهم بما فيهم أولئك الذين أصابتهم الدهشة.

سألت: وما الكتب التي جعلتكم تصرخون؟

انخفضت الأيادي، فقلت: وما ذلك الشيء الذي تصرخون من أجله؟ إن الكتب ليست أكثر من خربشة بالحبر فوق الورق، ويحاول الكُتَّاب إثارتنا والعمل على إضحاكنا أو التأثير فينا حتى البكاء، وينجحون أحيانًا في تغيير حياتنا، كيف يقومون بفعل ذلك؟

لم أتوقع سماع إجابة من أحد، فأضفت قائلًا: وكيف تفعل الأفلام الشيء نفسه؟ أنت ترى مثلًا «بروس ويليز» وهو معلق في أحد المنحدرات الصخرية، فينتابك الخوف اعتقادًا منك بأنه سيموت، لكنك تعرف الآن أنهم يضعون فراشًا من القطن تحته بحوالي

خمسة أقدام، وتعلم أيضًا بأن «بروس ويليز» لن يموت وأنه يعمل في سبعة أفلام أخرى في هذا العام نفسه، لكنك ما زلت خائفًا وما زال القلق يسيطر عليك ... كيف يحدث ذلك إذن؟

قبل الإجابة على هذا السؤال نحتاج للدخول في جزء آخر من اللغز، والتفكير بعمق أكثر، والنظر بعين الاعتبار إلى أفضل مدرس؛ ألا وهو التجرِبة، لقد تعلمت كثيرًا من أخطائي أكثر من الآخرين، ولكن بالتحديد عند قراءتك لكتاب، أو عندما تشاهد فيلمًا سينمائيًّا، فأنت لا تختبر أو تجرب ذلك بنفسك، وإنما تفعل ذلك بديلًا عن الآخرين من خلال المشاركة بالقراءة أو بالمشاهدة، ولذلك فكيف أصابك صانعو الفيلم بالخوف عندما علقوا «بروس ويليز» في المنحدر؟ وكيف جعلوك تتوحد معه وكأن كلاكما شخص واحد؟ لقد نجحوا في إجبارك على المشاركة في تجربته، فكيف فعلوا ذلك؟ لقد رسموا تلك التجارب بطريقتهم وبدقة شديدة وكأنها حقيقة، وجعلوك تشعر وكأنك مكانه أو كأنه ليس «بروس ويليز» وإنما هو أنت.

كانوا معي في كل ما قلت، فأضفت قائلًا: دعونا نَقُم بتدريب، فلنفترض أنني من كوكب المريخ.

لم يعترضوا على الافتراض، ولم تكن لديهم أي مشكلة، فقلت: نحن سكان كوكب المريخ ليست لدينا أية عواطف من أي نوع، إننا نشعر بالأشياء نفسها التي تشعرون بها، ولكنه شعور مادي فقط ولا يحمل أي قدر من العواطف، أستطيع أن أشعر بالضغط فوق جلدي لكنني لا أشعر بالحب. والآن، ومن أجل أن تساعدوني في فهم طبيعتكم أنتم الذين تعيشون فوق كوكب الأرض، فإنني أرغب في أن تخبروني على سبيل المثال عن الغضب، ماذا يشبه شعور الغضب؟

ساد صمت لبضع لحظات، تطوع بعدها شخص ما وقال: إنه يشعرني بالجنون.

لم أفهم ذلك أيضًا.

حسنًا، الغضب.

الشيء نفسه.

قال آخر: إنه يشعرني وكأنني على وشك الانفجار.

وكأنك تناولت كثيرًا من الطعام، أو كأن جلد بشرتك قد تمدد مثل البالون، أو كأنك سألت سؤالًا في حين لم يتبق سوى ثلاث دقائق على الانصراف.

قال شخص ثالث: إن الغضب يدفعني للإحساس بالرغبة في تسديد اللكمات لشخص ما.

وماذا يشبه ذلك الإحساس؟ وأين بالتحديد تشعر به؟ وبأي شيء يجعلك الغضب تشعر داخل جسدك وفي رقبتك وفي أكتافك وخلف مقلة عينيك وفيما وراء ركبتيك؟

عرفت من عيونهم أنهم فهموا ما أرمي إليه، ثم قالت امرأة: إن أكتافي محدودبة والعضلات في الأعلى مشدودة.

قال آخر: إنني أطبق فمي وتبدأ أسناني في الاحتكاك بعضها بالبعض.

وقال ثالث: تنحرف عيناي وكأنني أصبت بالحول وأشعر بثقل ما خلفهما.

وأضاف رابع: يتصبب جسدي بالعرق.

سألت قائلًا: أين؟

تتساقط قطرات العرق من كل أجزاء جسدي.

قلت: أوه، كل ذلك جيد وأستطيع أن أتفهمه.

إننا نصنع طريقنا القادم من خلال الخوف ثم من خلال الحب.

طلبوا مني تحديد نوع الحب؛ لأنهم يقولون بأن شعور الوقوع في الحب في أول الأمر مختلف عنه بعد فترة من الوقت، وهل يكون ذلك الحب أقوى من حب الوالدين؟ وهل حب الوالدين أقوى من حب الكلب؟ وهل حب الكلب أقوى من حب الوطن؟

شعرت بسعادة لأنهم أجبروني على الدقة في تعريفي، فقلت: إن الحب للرفيق أو الرفيقة يكون في المرحلة التي تتعرفون فيها على العواطف وتبادل المجاملات، ولكنكم لا تستقرون على شكل نهائي للعلاقة.

قال أحدهم وقد نسي كل شيء تعلمناه وتناقشنا حوله حتى الآن: إنه الإحساس بالسير فوق السحاب.

– هل تستطيع أن تفعل ذلك فوق الأرض؟ نحن لا نستطيع في كوكب المريخ، أعتقد أنه كانت توجد بعض السحب في السماء، دعنا نخرج من هنا لتريني.

– إنه احساس مثل كل شيء عظيم في العالم.

– وماذا يشبه ذلك الإحساس؟

أدركت مرة أخرى ما يدور في عيونهم، إنهم يصفون الأحاسيس المادية والجسدية، وأحيانًا الشذوذ، على أنها أشياء يجب القبول بها باعتبارها أشياء خاصة، مما جعلني أشعر بالخجل، كما أنهم يصفون أحيانًا الحب بكلمات ومصطلحات متطابقة مع ما يمكن أن نصف به الفزع والخوف.

قلت: دعونا نتحدث بطريقة أخرى أو فلنذهب في اتجاه آخر، أريدكم أن تصفوا لي الغضب مرة أخرى، ولكنني أريدكم الآن أن تتخيلوا أنكم تقومون بعمل فيلم سينمائي؛ بما

يعني أنكم لا تستطيعون الدخول إلى أعماق الشخص لتصفوا إحساسه بالغضب، وإنما عليكم إبراز أفعاله من الخارج.

نظروا ناحيتي باندهاش، فضربت بيدي فوق المكتب، ثم بصقت وقلت: اللعنة!

أصابني العبوس، ورحت أمشي حول منتصف الحجرة، فتراجعوا في أماكنهم وشعروا بالندم الشديد رغم عدم تأكدهم من الخطأ الذي ارتكبوه.

قلت: لا، ذلك ما أعنيه، العمل على إبراز ردود أفعالهم من الخارج، لقد كنت على علاقة بامرأة منذ سنوات مضت، وكانت تتشاجر معي بشكل ثابت، لم يكن الأمر مقلقًا بما فيه الكفاية إلا إذا كانت امرأة مجنونة بالفعل، كيف كانت تُظهر ذلك؟ تعلمت بسرعة بأنني أعاني من ورطة، وبأنني أواجه مشكلة كبيرة، حين كانت تعض شفتها السفلي وتهز رأسها، وحين كانت تتجه ببصرها إلى الجانب الآخر.

قال شخص ما: عندما أُصاب بالجنون أصبح هادئًا ويصير صوتي قويًّا.

وقال آخر: يبدأ جسدي كله في الارتعاش وأبدأ في ضم قبضتَي يدَيَّ.

استطردوا في التعبير عن أحاسيسهم ومشاعرهم ووصف ما ينتابهم في اللحظة التي يصابون فيها بالجنون، ولقد لاحظت اختلافًا مثيرًا بين طلبتي في السجن وطلبتي في الجامعة، كانت الأمثلة التي يختارها طلبة السجن أمثلة علنية وأكثر صراحة، كانوا يلقون بالمقاعد في مقابل النظرات العِدائية، لكنني لم أنته إلى فكرة بعينها ولم أصل إلى انطباع معين، لقد لاحظت ذلك فقط.

تمنيت أثناء أحد التدريبات أن ينتبه طلبتي إلى التفاصيل، فالاهتمام الكامل بالتفاصيل يُعَد درسًا أساسيًّا من دروس الحياة (جرب مثلًا قيادة السيارة وسط زحام المرور الشديد بدون أن تدرك التفاصيل المهمة وغير المهمة)، وربما يكون درس الكتابة الأساسي هو أنك تحتاج بشكل ثابت أن تختار التفاصيل التي ينبغي عليك الكتابة فيها حتى تتمكن من جذب القارئ، وأهمية الانتباه إلى التفاصيل التي يجب أن تتجاهلها؛ كي لا يصاب القارئ بالملل، إن معظم الناس مثلًا يقضون حاجتهم مرة واحدة في اليوم على الأقل، وإذن فلا يوجد سبب قهري لكي توضح ذلك للقراء.

إنني أطلب من طلبتي أن يكتبوا وصفًا لشيء ما أو شخص ما، أريد لهم أن يتحدثوا عن حجرة مظلمة، عن قليل من الضوء، عن آلة موسيقية، وعن أشياء أخرى تافهة، وفي حقيقة الأمر إنني أحب أن أقول إن تلك الأشياء هي نتاج طبيعي لتفكير عميق تساعدهم في التنافس على الكتابة بأفضل طريقة ممكنة. طلبت منهم أن يكتبوا عن كل الحواس الخمس، وهل يستطيعون التعبير عنها في شكل حبكة روائية أم لا.

بدءوا في الكتابة، وفي النهاية كانت القصص التي كتبوها جيدة، فشعرت بالسرور.

يقودنا ذلك إلى نتيجة «ستيفن كينج» الطبيعية وهي عدم تحديد قاعدة للكتابة، وإنما يمكن القول بأنها جاءت على هذا النحو فقط، إن «ستيفن كينج» هو واحد من أفضل من تبنوا فكرة التحديد والدقة والوضوح في التعبير بديلًا عن التفاصيل المجردة، ولقد استخدم تلك التفاصيل الواضحة في جذب القارئ، إنه نادرًا ما استخدم أي سيارة قديمة في كتبه إلا إذا كانت ماركة سيتروين سيدان، كما أن أي رجل أعمال متمرس لا يذهب لتناول الغداء في أي مطعم شهير إلا إذا كان أحد فروع مطاعم سالم.

يحدث أحيانًا أن يقول الطلبة ردًّا على تلك النتيجة: لكننا نرغب أن تكون كتاباتنا عالمية وشاملة، نحن نريد لها أن تصل إلى كل الناس.

أقول لهم، في تلك الحالة، إنه أولًا: يستحيل أن تصل كلماتكم إلى كل الناس، وثانيا: إن أفضل الطرق للوصول إلى أكبر عدد من القراء هو أن تشاركهم مرة ثانية فيما تكتبه، وأفضل الطرق لفعل ذلك أن ترسم لهم صورًا يتمسكون بها ويرفضون التخلي عنها؛ كأن تقول مثلًا: «كنت جالسًا في المقهى الجميل مع «لورنس» وأنا أحدِّق بشغف في ساقَي «باولين».»

هناك نقطة أعمق لفعل ذلك، العمل على تحديد كل شيء، إن أكبر فشل في ثقافتنا هو الاعتقاد العام بإمكانية جعل أي شيء عالميًّا وشاملًا، إن ثقافتنا تتبنى طريقة العيش نفسها في أجمل الأماكن كما تتبناها نفسها في سياتل وميامي، نحن نعتقد بأنه يمكن تلقين الطلبة دروسًا وقواعد واختبارات ثابتة يطبقونها في كل أرجاء العالم، إننا نحول حياة الأشجار البرية إلى شيء يمكن قياسه بالمعادلات الرياضية، ونحول الأسماك إلى أسماك عاجزة عن الحركة، ونحول الجَزَر إلى مجرد مجموعة من العصي رغم أن كل قطعة من الجَزَر تختلف عن الأخرى، كما أن كل سمكة تختلف عن السمكة الأخرى، وكل شجرة لا تشبه أي شجرة أخرى، وهكذا فإن كل طالب يختلف عن الطالب الآخر، وكل مكان يختلف عن أي مكان آخر. وإذا كان علينا أن نتذكر ما يجب أن تكون عليه الإنسانية، وكان علينا أن نأمل في بداية قوية للحياة في مكان ما، حيث نتمتع بالمؤازرة، فلا بد أن نتذكر بأن التحديد والوضوح والتميز هو كل شيء، وهو الشيء الوحيد الذي نمتلكه.

في هذه اللحظة أنا لا أكتب كتابة تجريدية أو نظرية، ولكنني أكتب تلك الكلمات المحددة فوق تلك القطعة المحددة من الورق مستخدمًا ذلك القلم المحدد وأنا راقد فوق ذلك السرير المحدد بالقرب من تلك القطعة المحددة، لا شيء بمعزل عن الخصوصية، وكل

شيء يستلزم الدقة، والآن فإنني أستطيع بالتأكيد أن أبتكر أفكارًا مجردة للكتابة عن الإنسانية أو المدن أو الطبيعة أو العالم، لكنها أفكار غير حقيقية، إن الشيء الحقيقي هو الشيء المباشر والحاضر والخاص والمتميز، تلك الأشياء هي الحقيقة في الحياة والحقيقة في الكتابة، والبدء في الكتابة حينئذٍ يصبح شيئًا جميلًا.

لقد وصف طلبتي الآلات الموسيقية وصفًا دقيقًا في الأماكن التي يعيشون فيها؛ الهارمونيكا المهربة داخل زنزانة السجن، والبيانو في الكنيسة، والكمان في الدور الأرضي من بيت الطفولة. ثم طلبت منهم اصطحابي إلى الشاطئ، ولم أبال وقتها بأي شيء، لكنني قلت: إلا إذا كان جو الشاطئ حارًّا، فإنني أريد أن أشعر بألم في قدمي عندما أسمعكم تقرءون القصة بصوتٍ عالٍ، وإذا كان الشاطئ في جنوب كاليفورنيا فإنني أتمنى أن أشم رائحة زيت جوز الهند، أما إذا كان في ألاسكا فإنني أرغب في أن أشم رائحة السمك الميت. وعندئذٍ راحوا يكتبون فكانت إبداعاتهم جيدة، لقد برعوا في وصف الشواطئ التي شاهدوها وتلك التي جلسوا فوق ترابها والتي لعبوا فيها كرة القدم.

قلت: الكتابة ليست عملية شاقة، عليكم فقط أن تتذكروا الأماكن التي كنتم فيها والأشياء التي قمتم بعملها، ثم محاولة وصف ذلك في كلمات، إنني حقًّا أريد أن أسمعكم.

راق لهم الأمر، وبدا أنهم أحبوا سماع ذلك، وكانت لدى كلٍّ منهم بالتأكيد قصص وحكايات يمكن سردها وأشياء يمكن قولها.

كان يومًا أثيرًا لديَّ عندما دخلت الفصل مبكرًا في الأسبوع الثاني من الدراسة، كان اثنان من الطلبة قد حضروا من فصول أخرى قمت فيها بالتدريس سابقًا، أما الطلبة الجدد فكانوا يتوقعون حدوث شيء ما. كنت قد أحضرت معي جهازًا لتشغيل الأسطوانات وعددًا لا بأس به من الأسطوانات وكمية من الكتب، ثم قلت: عندما أتوجه إليكم بسؤال فإنني عادةً لا أنتظر إجابة محددة، وإنما أريد فقط معرفة ما تفكرون به، لكنني سأسألكم سؤالًا الآن وأطمع في التواصل، هل أنتم جاهزون؟

هزوا جميعًا رءوسهم بالموافقة، فقلت: ما الشيء الجذاب في رقصة الروك أند رول؟

أصابتهم الدهشة من السؤال، وراحوا يحاولون قراءة أفكاري لمعرفة ما أعنيه بالسؤال بدلًا من التفكير في إجابات خاصة بهم.

سألت: هل هم الرجال ذَوو الشعر الطويل بسراويلهم الجلدية الضيقة؟ أم هي تلك الأساور الخضراء المتلألئة؟ وماذا عن المشي فوق تقيؤ شخص ما؟ ربما يكون هو الاقتناع بفكرة الأغنية.

وافقْنا جميعًا على أن لا شيء من ذلك كله هو الجذاب في الرقصة، فقلت متسائلًا: فما الشيء الجذاب إذن؟ هل هي تلك القوة التي يتمتع بها الراقصون، أم هي العاطفة وذلك الانفعال الذي ينتابهم، أم أنه ذلك النشاط المفعم بالحماسة؟

عندما حطم «جيمي هندريكس» الجيتار لم يقتلع كل وتر بحذر شديد ولكنه حطمه إلى قطع صغيرة، وعندما راح «بيت تاونسيند» يدور في الهواء كالطاحونة لم يهتز خصره وإنما نجح في تجميع جسده كله داخل خصره، وأيضًا حين دمر «كيت مون» الطبلة فإنه لم يقلبها في يده بعناية.

انحنيت بدقة فوق مقعد المكتب فارتطم بالأرض، وبدلًا من أن يتحطم سحبته وقذفت به في حركة دائرية إلى السقف، لكنه عاد وارتطم بالأرض.

قلت: مئات من الناس يستطيعون الكتابة، الرجل العجوز الذي يشعر بالأسى والمرارة، المرأة العجوز التي تقتلها الوحدة. لقد سئم الرجل العجوز السعيد والمرأة العجوز السعيدة من الحياة، لكنهما يشعران بالرضا تجاهها. الرجل الشاب المبتهج والمفعم بالنشوة، والفتاة الشابة المرحة الطروب، والمرأة الغاضبة، كلهم لديهم الكثير من قوة الآراء والمعتقدات وكلهم موجودون بداخل كلٍّ منا، ومن سوء الحظ أن الشيء الوحيد غير القادر على الكتابة هو الشيء الذي نرتديه فوق وجوهنا طوال الوقت، ذلك الشيء المهذب اللطيف والرقيق، ذلك الشيء الذي ينشد القبول والاستحسان ويرغب في اكتساب درجة أو منزلة معينة، أو هو الإنسان الذي يقف عائقًا ضد أي رأي صائب وقوي وضد أي نزوة أو حافز، ذلك الشخص لا يستطيع أن يكتب سوى التفاهات.

توقفت لحظة لالتقاط أنفاسي ثم استطردت قائلًا: إن الكتابة في الحقيقة شيء يسيرٌ وفي غاية السهولة، عليك فقط بوضع الورقة البيضاء أمامك والسير فوقها بالقلم، وكل شيء بعد ذلك لا يعدو كونه تكنيكًا فنيًّا، وإذا لم تكن راغبًا في عمل ذلك فإنك تستطيع (كما كتب «جين فاولر») أن تحدِّق في قطعة بيضاء من الورق وخالية من الكلمات حتى تتكون قطرات من الدم فوق جبهتك.

سارعت بالتقاط قطعة من الطباشير، وكتبت بحروف كبيرة وواضحة: «هيا بنا!»

ثم مضيت ببطء وكبرياء نحو أداة تشغيل الأسطوانات وقمت بتشغيلها، فانبعثت من الأسطوانة موسيقى «تومي بولينز»، وعدت مرة أخرى للإمساك بالطباشير حيث كتبت: «لا، حقًّا دعونا نبدأ!»

توجهت مرة ثانية إلى مشغل الأسطوانات لتشغيله من جديد، ثم كتبت فوق السبورة: «لا، دعونا نبدأ بالفعل!»

قمت بتخفيض صوت مشغل الأسطوانات حتى يتمكنوا من سماعي، ثم بدأت في القراءة من كتاب «ناسك الصحراء» للكاتب «إدوارد آبي»: «لا تصعد إلى سيارتك في يونيو القادم وتنطلق إلى الوادي الضيق على أمل أن ترى بعضًا من تلك التي حاولت أن أكتب عنها في تلك الصفحات، لا تستطيع في مثل هذه الحالة أن ترى أي شيء من السيارة، وإنما عليك بالخروج من ذلك الشيء الملعون وتبدأ في السير على قدميك، ومن الأفضل فيما بعد أن تزحف على يديك وركبتيك فوق رمال الأحجار، ومن خلال أشواك الشجيرات وأوراق الصبار، وعندما تبدأ آثار الدماء في الظهور والانتشار فوق يديك وبعض أجزاء من جسدك فإنك عندئذٍ سترى شيئًا ما، ربما تستطيع رؤية شيء ما وربما لا تستطيع! أما في الحالة الثانية فإن معظم الأشياء التي أكتب عنها في هذا الكتاب قد انتهت بالفعل أو أنها في الطريق إلى الزوال، ذلك ليس مرشدًا سياحيًّا أو دليلًا للسفر وإنما هو مجرد عمل يدعو للرثاء أو مجرد نُصُب تذكاري، أنت تمسك تمثالًا في يديك أو صخرة دامية، أفلا تلقي بها فوق قدميك، وماذا ستخسر عندئذٍ؟»

وضعت الكتاب جانبًا وتناولت كتابًا آخر بعنوان Johnny got his gun للكاتب «دالتون ترومبو» والذي يقول فيه: إذا كان رجال السياسة والوطنيون هم صناع الحرب، وإذا وجدت البنادق لأجل تلك الحرب، والقذائف من أجل إطلاقها، والرجال لكي يموتوا، فلن نكون نحن أولئك الرجال، لن نكون نحن الذين نزرع القمح لنصنع منه الطعام، نحن الذين نصنع الملابس، ونصدر الصحف، ونشيد المنازل والمعامل، ونصنع السيارات والطائرات والدبابات والبنادق، أوه ... لسنا نحن الذين سيموتون، قد تكونون أنتم، أنتم الذين تحرضوننا على القتال، أنتم الذين تشجعوننا على الوقوف بعضنا ضد بعض، أنتم الذين تجعلون عاملًا يقتل زميلًا له وإسكافيًّا يقتل إسكافيًّا آخر، أنتم الذين ترغمون إنسانًا — ليست لديه أية طموحات سوى العيش في سلام — على التخلص من حياة إنسان آخر لا يتمنى هو الآخر سوى العيش في سلام، تذكروا ذلك، تذكروا ذلك جيدًا أيها الناس الذين

تخططون للحرب، وأنتم أيها الوطنيون تذكروا بأنكم صانعو الكراهية وأنكم مخترعو الشعارات، تذكروا كل ذلك أكثر من أي شيء آخر في حياتكم، إننا رجال السلام، نحن نعمل ولا نرغب في القتال، وإذا ما حاولتم القضاء على السلام الذي ننعم به، أو فكرتم في حرماننا من العمل، أو حاولتم التفريق بيننا، فلا بد أن تدركوا بأننا نعرف تمامًا ما سوف نعمله عندئذٍ، وإذا ما رغبتم في أن نجعل العالم آمنًا من أجل الديمقراطية فإننا سنتعامل مع الأمر بجدية، وسنعمل — بمساعدة الرب والمسيح — على تحقيق ذلك، سوف نستخدم البنادق التي تستخدمونها ضدنا لحماية حياتنا الخاصة والدفاع عنها بشتى الوسائل. كما أن التهديد الذي يواجهنا لن يقع في الجانب الآخر من المنطقة المهملة والمجردة من السلاح بدون موافقتنا، وإنما من خلال حدودنا الموجودة هنا، والتي نراها الآن ونعرفها، وسوف نستخدم البنادق المحمولة فوق أيادينا، قدموا لنا الشعارات لنعمل على تحويلها إلى حقائق، وأنشدوا تراتيل المعركة وسنقوم نحن بفهمها والعمل على استمرارها بعد أن تتخلوا أنتم عنها، ليس واحدًا أو عشَرة، وليس عشَرة آلاف أو مليونًا أو عشَرة ملايين ولا مئات الملايين، ولكن بليونًا أو بليونين منا أو كل شعوب العالم سوف نمتلك الشعارات والتراتيل والبنادق، وسنستخدم كل ذلك وسوف نحيا، سنكون على قيد الحياة وسنمشي ونتحدث ونأكل ونغني ونضحك، ولن نفقد إحساسنا، وسوف نحب وننجب أطفالًا في هدوء وأمان وسلام، وطبقًا للآداب العامة، أنتم تخططون للحرب، أنتم يا سادة البشرية تخططون للحرب وتشيرون إلى الطريق، وسوف نشير نحن إلى البنادق.

أحيانًا يجب أن أتوقف عن القراءة، خاصة حين يتحشرج صوتي وتملؤني الانفعالات، فقلت: إن الأمر لا يشكل إهانة وإنما من الممكن أن يكون شيئًا جميلًا.

قرأت وصفًا لـ «تيري تيمبست وليامز» من رباعية الصحراء: الأرض، الصخور، الصحراء، إنني أسير حافي القدمين فوق الرمال المليئة بالأحجار، والجسد يستجيب للجسد، كان الجو حارًّا بشدة وقد أوشك باطن قدمي على الاحتراق فوق الصخرة المتصلبة، وكان لا بد من الإسراع بخطواتي والسير بأسرع ما أستطيع مع مراعاة الحذر في كل خطوة، وكان أقصى ما استطعت رؤيته هو جنوب ذلك الوادي الضيق لقرية «أوته» الممتدة في كل الاتجاهات، لم أكن أملك بوصلة ترشدني وإنما فقط كنت قد أخذت عهدًا على نفسي بمواصلة السير في ذلك الطريق الوعر والمخيف، إن ما أخشاه وأتمناه أكثر من أي شيء في العالم هو الولع والشغف، إنني أخشى الولع لأنه يجعلك طبيعيًّا ولا تملك السيطرة على مشاعرك ولا تستطيع التعرف على نفسك ويساعدك في الخروج من ذاتيتك، إنني أرغب به

لأن له لونًا مثل تلك الأرض الفضاء التي أمامي، إنه ليس شاحبًا وليس محايدًا، إنه يكشف خفايا القلب.

تسلقت الصخرة الملساء وأنا أتشبث بجوانبها الأربعة بكلتا يدي وقدمي فلفحتني الحرارة، وكان إحساسًا جيدًا أن تشعر بالعرق والانخراط في مواصلة التسلق، وكان جميلًا أن أسكن جسدي الحيواني.

قرأت لـ «سوزان جريفين» أوصافًا جميلة ومتقدة بالعاطفة، فسارعت بإخراج الأسطوانة لتشغيل الموسيقى الافتتاحية لسيمفونية بيتهوفن الخامسة، ثم توجهت صوب طباشير السبورة والتقطت واحدة طويلة وقذفتها نحو صندوق الطباشير؛ كي تتكسر إلى قطعتين، وعندئذٍ أمسكت بواحدة منهما كانت هي الأطول وكتبت وأنا أضغط بقوة كبيرة على الطباشير متعمدًا: دع الطفل يخرج من المرحاض.

استدرت وألقيت بما تبقى في يدي من الطباشير فوق الحائط الخلفي، ثم أمسكت مزيدًا من الطباشير وألقيت به في كل مكان بالفصل بكل ما استطعت من قوة، انتشر الطباشير فوق كل الجدران فكتبت: حرروا الحيوان وأطلقوا عِنانه.

وكتبت أيضًا: من أنتم؟ فلتستمتعوا بوقتكم ... دعونا نَمضِ.

ثم رميت بعيدًا كل ما تبقى من الطباشير.

خفتت حدة الموسيقى وتساقطت قطرات من العرق من جدائل الشعر حتى استقرت فوق وجهي، وضعت الأسطوانة في النهاية وطلبت من أحدهم أن يطفئ النور فأظلمت الحجرة وأصبح مؤشر الضوء الأحمر واضحًا، كانت الأغنية بعنوان «الزمن» بصوت «بينك فلويد»:

فلتهجر اللحظات التي تجعل اليوم غائمًا ومملًّا.
أنت تبدد الساعات فيما لا طائل منه.
تنطلق وتركض في مدينتك فوق قطعة من الأرض.
تنتظر شخصًا ما أو شيئًا ما ليدلك على الطريق.
لقد سئمت الكذب في وضح النهار.
وها أنت ترقد في بيتك وتراقب المطر.
أنت شاب، والحياة لا تتوقف ولا تنتهي، ودائمًا يوجد الوقت لقضاء اليوم.
عندئذٍ، وذات يوم، ستكتشف أن عشر سنوات من عمرك قد أصبحت خلفك.

لم يخبرك أحد بموعد الركض وأنت تفتقد إشارة البدء.
أنت تركض وتركض حتى تدرك الشمس، لكنها تبدأ في الغروب،
والدوران حول العالم حتى تعاود الظهور من خلفك مرة أخرى.
الشمس هي الشمس بطريقة أو بأخرى لكنك لست الشخص نفسه.
الشمس لا تتغير لكنك تتغير وتصبح أكبر سنًّا مما كنت.
تتضاءل أنفاسك، وفي يوم ما تقترب من الموت.
وكل عام يصير أقصر من سابقه ويتعذر عليك امتلاك الوقت.
الخطط التي إما تنتهي إلى العدم،
أو إلى مجرد نصف صفحة من السطور التي لا معنى لها.
التمسك بقليل من اليأس هو الأسلوب الإنجليزي في العيش.
ورحيل الوقت هو نهاية الأغنية، لكنني أظن أن لدي المزيد مما يقال.

جلسنا في الظلام بضع لحظات، ولم يتفوه أي شخص بأي شيء، وفي النهاية أضاء أحدهم الأنوار فجأة فقلت: أعتقد أن ذلك كافٍ ليوم واحد، فلتستمتعوا بأمسية جميلة.

في الفصل الثاني بدأت قائلًا: أود أن أبدأ معكم بعمل أهم تدريب للكتابة، إنه تدريب الإصبع، فالكتابة عمل شاق وتشبه الجري في حلقة السباق أو ممارسة أي رياضة أخرى، عليكم بالاسترخاء قبل القيام بفعل الكتابة، ولكن قبل ذلك لا بد من عمل الحِمية اللازمة.

راحوا يحدِّقون بنظرات ملؤها الدهشة، ورفعوا أياديهم إلى الأمام وظلوا يهزونها يمينًا ويسارًا فقلت: والآن ارفعوا أياديكم إلى أعلى على أن تكون راحة اليد في مواجهتكم.

قاموا بتنفيذ ما قلته لهم، فأضفت قائلًا: يجب أولًا الوصول بإصبع الإبهام إلى أسفل الإصبع الأصغر، ومحاولة الوصول مرات عديدة، ثم اطْوِ الإصبع الأصغر فوق ظُفر الإبهام لإخفائه، هل تفهمون؟

قلت مستطردًا: ثم عليكم بالوصول بالإصبع الأول حتى يغطي مفصل الإبهام، إنه شيء صعب ولكن يجب في النهاية تغطية مفصل الإبهام.

لم يستغرقوا وقتًا طويلًا حتى فهموا كل شيء، فقلت: ذلك هو أهم تدريب للكتابة يمكنكم القيام به، وعليكم القيام به كثيرًا عند كتابة أي من النصوص، وبخاصة في النقد الذاتي.

كانوا حتى آخر لحظة لا يعرفون بأنني جاد فيما أقول فراحوا يضحكون.

الدرجات

«إن مهمة المدرسة الثانوية عندئذٍ لا تتبدى كثيرًا في توصيل المعرفة بقدر ما تُجبِر التلميذ في النهاية على قبول النظام المرحلي؛ أي التنقل من مرحلة إلى أخرى باعتباره نظامًا دالًّا على امتياز التلميذ الداخلي. أما مهمة عملية التدمير الذاتي عند أطفال أمريكا فتتمثل في عدم قبولهم لذواتهم، وإنما القبول باختلافات المستويات الأخرى، والقدرة على قبول أنفسهم مثلما يحدث في النظام المرحلي. وهكذا فإنه من الواضح أن طريقة الثقافة الأمريكية المتبعة الآن قد تتهاوى إذا لم ينتج عنها إحساس بالدونية وعدم الجدوى.»

جولز هنري

* * *

كما كتبت في مكان ما بأن المراحل تمثل مشكلة ما، ففي المستوى الأكثر عمومية فإنها اعتراف صريح بأن ما تفعله ليس مهمًّا بما فيه الكفاية أو أنه مكافأة من أجلك للقيام به على مسئوليتك، إن أحدًا لا يمنحك درجة من أجل تعلم كيفية اللعب أو كيفية ركوب الدراجة أو تعلم مهارة التقبيل، إن واحدة من أفضل الطرق لتدمير الحب لأي من تلك الأنشطة يحدث من خلال استخدام المراحل والدرجات، ومن خلال الإجبار والأحكام التي تمثلها تلك المراحل، إن عملية المراحل والدرجات هي بمثابة الهراوة التي تُستخدم في ضرب المعارضة لعمل الأشياء التي لا يرغبون في فعلها، أداة مهمة لغرس نموذج الحياة الأبدية في نفوس الأطفال، وبث روح الخنوع والخضوع والتبعية لديهم، بصرف النظر عما تفرضه عليهم السلطة.

وفيما يتصل بالكتابة، ونحو مزيد من الدقة، فإنني أطلب من الناس أن يكتبوا من القلب، وبكل صدق، وألا يخافوا من اللامعقول ومن الفسق والخلاعة وكل الأشياء اللاأخلاقية، ثم تأتي بعد ذلك مرحلة إعطاء الدرجات، هذه هي إعادة القول الشجاعة والعظيمة لتأثيرات طفولتك الجنسية بعيدة المدى التي تعرضت لها عن طريق والدك، يجب القول بأي حال بأن هذا الكلام ليس متأخرًا، وإنما أنت تنتمي إلى منظمة تفتقر إلى الشجاعة.

أدركت أيضًا رغم ذلك بأن شخصًا ما حين يحاول القيام بعمليات التحريض العقلي أو محاولة تفسير الأشياء وإخضاعها للمناقشة، فإن ثمة أوقاتًا تتسع لذلك ويكون الأمر مفيدًا. عندما كنت أعلِّم نفسي كيفية الكتابة في البداية، في منتصف وأواخر العشرينيات من عمري، لم تكن الكتابة وقتها ممتعة أو مسلية، وفي ذلك الوقت أخبرني أحد الكتاب بأنني لن أكون كاتبًا حقيقيًّا قبل أن أكتب مليونًا من الكلمات، بدأت أحسُب عدد الكلمات التي أكتبها، ومنذ أن عرفت أيضًا — كما قال لي كاتب آخر — أن الكتابة هي إعادة الكتابة، فقد بدأت أعتبر كل كلمة أسجلها في المسودة الأولى من القصة أو المقالة هي رقم واحد في الكلمات، وكل كلمة في الفقرة الثانية هي نصف كلمة، وفي الفقرة الثالثة هي ثلث الكلمة وهكذا، قررت بيني وبين نفسي أن أكتب ألف كلمة في اليوم، وبذلك المعدل أستطيع أن أكون كاتبًا، وهكذا مضيت في تنفيذ الخطة خلال أقل من ثلاث سنوات، لكنني لم أكن قادرًا على تنفيذ هدفي كل يوم مما جعلني أعاود كتابة ما لم أكتبه في يوم ما في اليوم التالي، غير أن كتابة خمسمائة كلمة في اليوم كان أمرًا بمقدوري إنجازه، ولطالما مارست ضغطًا على نفسي لإنجاز تلك المهمة، وهكذا كان العمل شاقًّا وغير مبهج على الإطلاق، كانت المشكلة تتمثل في أنني كنت أكتب برأسي ولم أكن قد اكتشفت قلبي بعد، فلم أكن قادرًا على اكتشاف ذلك الباب الذي يؤدي إلى حيث تعيش التأملات، الباب المؤدي إلى عوالم أخرى، ولذلك لم أستطع اكتشاف الباب المفتوح على العالم الذي أعيش فيه، وهكذا كانت تمضي كل الأشياء.

قرأت ذات يوم حديثًا صحفيًّا مع أحد الكتاب حيث سألوه: هل شعرت مرة واحدة بأن الكتابة قد صارت أسهل مما كانت عليه؟

أجاب الكاتب: لا، ولكنها تمضي نحو الأفضل.

أما بالنسبة لي فلقد أصبحت الكتابة أكثر سهولة، ولو أنها ما زالت تشكل صعوبة لي، كما كانت منذ خمسة عشر عامًا، لكنت توقفت عنها، إن الحياة قصيرة بما يكفي، وليس من الصواب أن تفعل شيئًا صعبًا ولا يشعرك بالراحة والابتهاج، لم تكن الكتابة بالنسبة لي هي

جزء من الإحساس المبكر بالصعوبة وعدم الارتياح، وإنما هو الإحباط الذي أصابني لعدم توافق مهاراتي مع ما أتوق إليه، ويمكن القول بعبارة أخرى: إن الشعور بصعوبة الكتابة الذي ينتابني كثيرًا هو نتاج لعدم امتلاكي مهارة الكتابة، والمعلومات الكافية، ورؤية موضوع الكتابة من زواياه المختلفة، وافتقادي لرؤية الأشياء وفقا لعلاقاتها الصحيحة والمتنوعة، وعدم اكتمال المشهد برمته في مخيلتي، مما يمكنني من القدرة على التوصيف الدقيق على النحو الكافي والملائم، والذي يفي بالغرض في النهاية، يحدث ذلك حتى الآن، لكنني في هذه الأيام لا أضغط على نفسي، فلقد توقفت بالأمس مثلًا بعد الجملة الرابعة من هذه الفقرة، وبدلًا من الاستسلام لحالة الإحباط رحت أحدِّق في شاشة الكمبيوتر وشغلت نفسي بعمل أشياء أخرى حتى وقت متأخر من الليل، حيث قفزت الفقرة التالية إلى ذهني دون أن أضغط على نفسي.

لم أعد أفكر في أن التوقف عن العمل شيء سيئ، ولم يعد ذلك يصيبني بالإحباط، أما الآن فإنه يزودني بالمعلومات، تلك المعلومات التي لم أكن قد عرفتها من قبل عن الموضوع الذي أكتب عنه، وكنت حينها في حاجة لعمل مزيد من الأبحاث عن الموضوع نفسه. لا شيء أصعب من وصف شاطئ من شواطئ البحر إذا لم تكن قد ذهبت بنفسك إلى أحد تلك الشواطئ واستمتعت بقضاء يوم كامل متنقلًا بين رماله وأمواجه. ولا ينطبق الشيء نفسه على وصف الأشياء فقط، وإنما على المناقشات والمناظرات والاختلاف في وجهات النظر، إن أحد أعظم أسباب الفرح والابتهاج في حياتي هي أن أصطدم بأسئلة لا أفهمها ثم أجاهد لأجد طريقي في الوصول إليها، الكتابة تظل شاقة عندما تصطدم بتلك الأسئلة أول مرة إذا لم تكن مستحيلة في وقتها، ولكنك تستطيع مع الوقت أن تقف عندها وتستوعبها بعد أن تجتهد في تفسيرها حتى تتكشف أمامك، فتصبح الكتابة حينئذٍ سهلة نسبيًّا. ففي مقدمة كتابي «ثقافة الاعتقاد» مثلًا أمضيت أسبوعين ممتعين في بحث وتأمل العلاقة الدقيقة بين الكراهية والازدراء والألقاب وما قد يتبعها من تهديدات قبل أن تتضح لي الإجابة بشكل واضح من خلال قراءتي نصًّا لنيتشه يقول فيه: «إن المرء لا يكره عندما يستطيع أن يكره.» وما دام أنه يمكن المحافظة على ذلك اللقب بمساعدة التقاليد والفلسفة والاقتصاد ومن خلال أنظمة التعليم. وهكذا فإن أصحاب الألقاب يشعرون بالازدراء والكراهية نحو أولئك الذين يستغلونهم فيبدأ في الوقت نفسه تهديد تلك الألقاب، ويبدأ معها انتظار لحظة الإعدام، ربما نستطيع رؤية الشيء نفسه في كثير من الأمور الأخرى الأقل شأنًا في الفصل الدراسي كاختلاف التلاميذ طوال الوقت مع المدرس، لكنهم إذا ما قاموا بسؤال المدرس

أو ممثلي الإدارة بشكل كامل الجدية فإن الابتسامة فوق الوجه الناتجة عن السيطرة الاجتماعية سرعان ما تزول.

إن التوقف أحيانًا لا يعني أنني أفتقد معرفة الموضوع، وإنما يعني أنني أتوجه بالسؤال الخاطئ. ظللت متوقفًا لمدة عام ونصف بالكامل دون أن أكتب كلمة واحدة أثناء تأليف كتابي «اللغة أقدم من الكلمات» The Language Older Than Words حيث كنت مثقلًا بالتساؤلات، مثل كيفية التحدث بشكل مقنع عن الوعى الأولي وقابلية الإحساس والقدرات غير الإنسانية في التواصل. كان السؤال في البداية عن قدرة بعض البشر وترحيبهم بالاستماع إلى كائنات غير آدمية، وعن عدم قدرة البعض الآخر، ثم جاء بعد ذلك السؤال عن أهمية العلاقة بين الهدوء والاستغلال، وبعد ذلك أصبحت قادرًا على الكتابة، وقد كان من الممكن أن أتوقف عن الكتابة أثناء محاولاتي معرفة كيفية قدرتنا على جعل الحضارة الصناعية قابلة للاحتمال، أو إذا شئنا أن نعكس السؤال فإنه يمكننا القول: لماذا وكيف تكون الحضارة غير قابلة للاحتمال بشكل فطري وماذا نحن فاعلون بها؟ سوف أخضع للكتابة، ولن تحتاج الأسئلة بالطبع لأن تتسم بطابع فلسفي، أما الأسئلة في الرواية فإنها تخضع للحبكة، بالإضافة إلى وجود خطة مسبقة، وكما أعرف فإن «مارجريت ميتشل» عندما كانت تكتب «ذهب مع الريح» Gone With The Wind فلا بد أنها قد اصطدمت بسؤال عن كيفية خروج كلٍّ من سكارليت Scarlett وأشلي Ashley من ورطة الغرام الذي جمع بينهما، ولم تستطع الإجابة عن السؤال إلا عندما طرحته بشكل مختلف قائلة: أي نوع من العلاقة ينبغي أن يربط بين «سكارليت» و«أشلي»؟ ثم طرحت السؤال بشكل آخر، نحو مزيد من الدقة، وقالت: «أي نوع من العلاقة تلك التي تربط «سكارليت» بنفسها بما أنني لست متيقنة بأن «سكارليت» لم تقم بعلاقة حقيقية مع أي شخص آخر؟»

ومن خلال الموضوع نفسه فإن التوقف عن الكتابة أحيانًا يعني بأنني مضيت في الطريق الخطأ، إنني غالبًا ما أجد تشابهًا بين الكتابة وبين الكلب الذي يقتفي أثر شيء ما، وأنني أفقد في بعض الأحيان ذلك الأثر، مما يجعلني أسترجع الجملة الأخيرة وأتساءل عما إذا كانت هي الجملة نفسها التي أوقفتني أم لا، ثم أعود فأسترجع جملة أخرى وأخرى حتى أجدني في الوضع الذي لا أشعر فيه بالفقد، وأنني نجحت في العثور على الأثر مرة ثانية، فأستطيع عندئذٍ مواصلة الكتابة.

في أوقات أخرى فإن الأمر لا يعني كثيرًا أنني مضيت في الاتجاه الخاطئ بقدر ما يعني أنني أكتب شيئًا لا أريد أو أرغب في كتابته، من الصعب جدًّا أن أضغط على نفسي

لكتابة شيء أو فعل شيء لا أريده، ويصبح الأمر أكثر صعوبة كلما تقدمت في السن، فكلما اقتربت من الموت تقل فرص الوقت الذي يمكنك تبديده، وكذلك تتضاعف الصعوبة كلما أصبحت متصالحًا مع نفسي وكلما شعرت بالارتياح النفسي، إنني لست أول من أشار إلى أن الإحساس غير السار والمبهج بالعمل غالبًا ما ينشأ من الاحتكاك بين أجزاء مختلفة من النفس، إن تلك الأجزاء المختلفة من النفس حين تعمل معًا وفي اتجاه واحد يصبح العمل أكثر أو أقل تصادمًا، إن دخول أي شخص إلى ساحة ممارسة الرياضة يمكنه معرفة ذلك، والشيء نفسه ينطبق على الكتابة وعلى العلاقات بين البشر وعلى كل مناحي الحياة، حتى إنني أجد نفسي ملزمًا على القول بأن كثيرًا من قراراتي خاطئة لأنني عادة لا أكون قد عقدت العزم على عمل شيء ما عندما أتوجه إلى الاتجاه الصحيح، ومن المؤكد أن هناك بعض الاستثناءات الحيوية لذلك، مثلما أكون مضطرًّا مثلًا لترك وظيفة سيئة بالنسبة لي ولا تناسبني، أو الانتهاء من علاقة غير مريحة، لكنني لا أملك القدرة على اتخاذ القرار، عندئذٍ يحتاج الأمر لخطوة حاسمة وباترة لترك العمل أو الانتهاء من تلك العلاقة، ولكن يجب ملاحظة أن تلك المواقف لم تكن تصطدم بتفكيرك في البداية.

إن التوقف عن الكتابة أو التعثر في مواصلتها يعني في أحيان أخرى أنني لست مستعدًّا لكتابة ذلك الموضوع أو تلك القطعة الأدبية بعينها، لقد كتبت أول عشر صفحات من هذا الكتاب منذ عامين، ثم اكتشفت بأنني فقدت خطة العمل والأثر الذي يجب أن أقتفيه، وعندما حاولت معرفة تلك الخطة وذلك الأثر لم أستطع، فقررت التوقف عن الاستمرار في كتابة هذا الكتاب، ورحت أكتب كتابًا آخر بدلًا منه، ثم عدت إليه بعد أسابيع قليلة، وما إن استرجعت جملة واحدة حتى أصبح المشهد واضحًا، وقفزت إلى ذهني مرة أخرى خطة العمل والأثر الذي يجب أن أقتفيه، وأصبحت بدوري جاهزًا لمواصلة الكتابة التي لو لم أكن قد توقفت عن مواصلتها آنذاك لخرج الكتاب في ثوب آخر مختلف خالٍ من التشويق، وربما لكان كتابًا رديئًا.

كل ما أستطيع قوله إن أحد الأشياء القليلة التي تعلمتها طوال الخمسة عشر عامًا الماضية هي كيفية الحفاظ على ألا تفقد الفكرة أثناء الكتابة، وإلا يصبح الأمر محبِطًا ومخيبًا وعديم الجدوى، فأنا أكتب بعقلي وليس بجسدي.

إذا كان مسموحًا لي بتغيير التشبيه، فإنني أحيانًا أميل إلى تشبيه الكتابة بالصيد، أنا لا أستطيع أن أحمل سنارة الصيد وأضرب بها فوق الماء وأتوقع اصطياد سمك كثير، وهكذا أكون قاسيًا وعدوانيًّا مع نفسي إذا مارست الكتابة رغمًا عني دون أن تتدفق الكلمات

وحدها من غير إجبار، إنني دائمًا في حاجة لأكون في خدمة العمل وأن أكون لصيقًا به، فعندما فقدت قدرتي على الكتابة بالأمس ورحت أفعل أشياء أخرى، ظللت أستعيد ذاكرتي للوقوف عند المكان الذي توقفت عنده لمعرفة ما إذا كانت أي تحركات أو نزعات أو أي علامة ومؤشر إلى ما يجب عليَّ فعله في الخطوة التالية.

أعتقد أن ذلك كله يحدث بشكل حقيقي مع أشياء أخرى كثيرة وليس فقط مع الكتابة.

إن الأمر ينطوي على تناقض كبير، فمن جهةٍ يبدو أن كل ما كتبته في الصفحات القليلة الماضية يعمل ضد أجندات أو مؤثرات خارجية، كما أنها تتصل بعملية النقاش حول تعليم الكتابة أو تعليم أي شيء، ويمكن القول بطريقة أخرى إنني حريص جدًّا على عدم الوقوع تحت تأثير الالتزام الزائف بضرورة كتابة ألف كلمة كل يوم، وألا يكون ذلك هدفًا من أهدافي، حدث الشيء نفسه أثناء كتابة مؤلَّفي The language Older Than Words «اللغة أقدم من الكلمات» حين أصابني الملل والتعب أثناء بحث ودراسة الكتاب قبل كتابته، وقلت لنفسي: إذا لم أبدأ في خلال الأشهر الثلاثة القادمة فإنني سوف أتجاهل الموضوع برمته وأذهب للتفكير في شيء آخر، وقبل نهاية المدة المحددة بأسبوعين لاح لي السؤال المؤثر ثم لاح لي مرة أخرى بعد أسبوع آخر، لكن الكتابة الفعلية للكتاب حدثت في السنة التالية.

لقد عشت أيضًا لحظات مرهقة طوال مدة كافية لتعلم مختلف منحنيات الكتابة ومعرفة متطلباتها وشروطها ووسائلها المتفردة قبل أن تصبح الأمور أكثر يسرًا، ولقد جربت الشيء نفسه وعشت اللحظات المرهقة نفسها مع العلم، وفي ممارسة لعبة كرة السلة، والقفز العالي، وفي التواصل مع الأشخاص، ومحاولة اكتشاف ما أريد أن أفعله في حياتي.

لا يزال الفرق موجودًا بين ما كنت أكتبه في الصفحات القليلة الماضية وبين المراحل، لا تدعني أتسلل إلى ذلك الفرق بواسطتك، إن الأهداف وموعد الانتهاء من العمل التي فكرت في تنفيذها هي أشياء ليست واجبة التنفيذ، وغالبًا لا يتم تحقيقها رغم أنني أنا الذي فكرت فيها وحددت موعد انتهائها، ولم يفرضها أحد من الخارج، أو أي شكلٍ من أشكال السلطة التي تعتقد بأنها تعرف خططي أكثر مني، ولا حتى من أي جهة خارجية من تلك التي أختلف معها بود؛ لأنها تملك الخبرة والمعرفة. وعلى سبيل المثال فإنني حيثما ذهبت للصيد أجدني مختلفًا مع كلٍّ من شريكَيَّ في الصيد؛ لأنهما أفضل مني بكثير ويملكان الخبرة الكافية اللازمة لعملية الصيد. وأتذكر ذات مرة بينما كنت أركب السيارة مع «جوني» عبر طريق شاقٍّ وقذر، حين رفع إحدى يديه فجأة من فوق عجلة القيادة وأشار قائلًا: إنني أكرهها حين يفعلون ذلك.

تابعت نظراته المحدِّقة ورأيت غرابًا واضعًا رأسه فوق الحشائش ورافعًا قدميه إلى أعلى، ثم أوقف «جوني» السيارة فخرجنا ومضينا نحو المكان الذي أشار إليه، شاهدنا مجموعة من الظباء مع أولادهم وكانوا يغوصون في الوحل ويتعثرون في السير، ورغم تركيزه في القيادة فإن «جوني» استطاع أن يرى أذنًا واحدة ملتصقة بالعشب، وعلى بعد أقدام قليلة كان الغراب واقفًا فبدا أطول كثيرًا من ولد الظبي، ولم أستطع أنا أن أرى سوى رأس طائر أسود عند جانب الطريق ولم توح لي رؤيته بأي شيء.

قمت بعمل مزيد من تمارين الكتابة وتجارِبها أكثر مما قام به تلاميذي، فلقد كتبت ملايين الكلمات رغم كل شيء، غير أن اختلاف الكلمات لم يكن اختياريًّا على الإطلاق، فبينما كنت أشارك أساتذتي الذين يستحقون احترامي داخل الفصول أو خارجها، وأولئك الذين كان مسموحًا لهم بتشجيعي وتحديد الأهداف والخطوط العريضة لي، كنت أيضًا أمتلك حصتي التي لا تستحق ذلك الاحترام، وفيما بعد وداخل الفصول كنت أتوقع الاختلاف معهم وأن أفعل بعض المهام والفروض التي طلبوا مني القيام بها، وكان عليَّ قبول الفرضيات التي يطلبون تطبيقها على تلك المهام والفروض، بصرف النظر عما يتمتعون به من تعصب أعمى وعجرفة وأنانية، كان الوضع مستحيلًا، ماذا عليك أن تفعل؟

تلقيت هذا المساء رسالة بالبريد الإلكتروني من إحدى معارفي خاصة بهذا الموضوع، قالت لي: أقوم الآن بالتدريس، لكنني أريد العمل بطريقة مختلفة تتبنى الأمثلة وطرح النماذج، ولا تتبنى فرض الآراء بالإكراه، لكنني بمجرد أن دخلت في أتون العمل اليومي، وكان الناس يحيطونني ويتهمونني بتأييد المدير والوقوف إلى جانب بقية المدرسين وأولياء الأمور وبعض الطلبة، حتى بدأت في الانسحاب ورحت أنسى السبب وراء وجودي هناك وما كان ينبغي فعله، وبدلًا من أن يصبح هدفي هو المضي قُدمًا فقد صوبوا نحوي سهام النقد وأصابني الإرهاق وبدأت عندئذٍ أكره وظيفتي؛ لأنني كنت دائمًا أحاول استخدام القوة التي لا أعتقد في جدواها لتنفيذ سياسات لا أعتقد فيها، وكنت أشعر بالضغط الشديد والإجهاد، حتى إنني لم أدرك أن ما يجري، وما يتبعه من أشياء سيئة، هو ما يجبرني على التوقف لإعادة تقييم الموقف، ثم حين عدت للعمل طلبًا للتغيير، وفي ذلك المناخ نفسه، أصابني التآكل مرة ثانية، وذكرني ذلك بقصيدة لشاعرة محلية أنصح بالتصدي لقراءتها، واسمها «كلوديو مورو» التي قالت:

أنت لا تعتقد.
قد يكون الأمر سهلًا
أن ننسى

من نكون حقيقة،
وأننا نحمل ذلك الموت دائمًا فوق أكتافنا،
وأن كل شيء على قيد الحياة،
وأن ذلك الإله يغني في كل مكان.

إذا لم تستطع التفكير في جعل الكتابة أفضل وأجمل من ممارسة الجنس فثمة طريقة أخرى للتفكير.

قال الكاتب «تشارلز جونسون» في حوار معه بإحدى المَجلات: أعتقد أن الكاتب الحقيقي ينبغي أن يفكر ببساطة في مصطلحات وعبارات أخرى، وعليه أن يواصل عمله حتى لو صوبوا البندقية في اتجاه رأسه وراح شخص ما يقدح زناد البندقية بينما هو يكتب آخر كلمة في آخر فقرة وفي آخر صفحة، والآن إذا استطعت الكتابة عن إحساسك بأنك ستموت أثناء مواصلة الكتابة وقبل الانتهاء منها فإنك ستكتب بسرعة وتعجُّل، وبأمانة وشجاعة، وبدون إحجام أو خوف، كما لو أن ذلك آخر عهد بالكتابة وآخر كلام تستطيع النطق به أو البوح به لأي شخص، وإذا حدث ذلك فإنني ولا شك أرغب في قراءة ما قمت بكتابته، وإذا كتب أي شخص بذلك الإحساس فسوف أشهد بأنها كتابة جادة، وأن ذلك الشخص لا يبدد وقته هباء، وأن العمل لا يؤدي إلى نهاية غير التي يعنيها، ولا يعني الإشارة إلى أي أهداف سطحية وسخيفة، ذلك العمل هو الذي قال فيه الكاتب شيئًا شعر به ولم يكن ممكنًا قوله لو أنه لم يشعر به، ذلك النوع من الكتَّاب هم الذين أرغب في القراءة لهم، وأزعم أن القرن العشرين لا يحفل بالكثير من نوعية أولئك الكتاب.

التزم الطلبة الصمت بضع لحظات ثم قال أحدهم: إن شخصًا ما يضع البندقية في مواجهة رأسي ويخبرني بأنهم سيقتلونني عندما أكتب الكلمة الأخيرة، وأنا أقول لك الآن بأنني في طريقي لكتابة موضوع طويل.

حاولت أن يشرف كل طالب من طلبتي على ما يكتبه الآخرون، لكنني تخليت عن محاولتي عندما حدثت أول كارثة، لم يكن لديهم أية فكرة للقيام بتلك المحاولة، ولم يكن ذلك بالأمر المدهش لأن قليلين جدًّا هم الذين يفعلون ذلك، حاولت أن أعلمهم بسرعة أن تعلم الإشراف على الكتابة هو مهارة تعادل الكتابة نفسها في الصعوبة وأنها عملية شاقة مثل الاحتفاظ بالهواجس التي تسيطر على الإنسان أو الكاتب، وهي أيضًا كميكانيكا السيارات المعقدة أو الاعتناء بالحديقة، ولكنها موقف من مواقف المشاركة وعدم الأنانية، وتتسم بقدر من

العاطفة يظهر واضحًا في الموضوع نفسه ولا يخص المؤلف وحده، وذلك ما أعتبره شيئًا نادرًا في ثقافتنا.

عندما ذهبت إلى مدرسة عليا تلقيت عددًا وافرًا من وجهات النظر عن الكتابة، وحضرت سلسلة من الحلقات الدراسية حول الموضوع نفسه وكانت في غالبها مؤسفة، إن الكاتب بمقدوره أن يكتب نسخًا عديدة من قصة واحدة ويقدمها إلى كل الطلبة في الفصل، فيزعم الطلبة أنهم قرءوا كل النسخ ثم يعودون بعد أسبوع ليقولوا ملاحظاتهم الانتقادية، وفي بعض الأحيان يزأرون بالشكوى أيضًا لأن تلك القصص لم تساعدهم في شيء ولم تكن عونًا لهم لأنهم لم يتعلموا أبدًا كيفية التعلم، إن الصورة التي تقفز إلى ذهني أو ذهن أي شخص آخر عند كتابة القصة هي الدخول في عالم القصة، وإذا كان الجسد ميتًا، أو متألمًا بشدة ما بين الضلع الثالث والرابع، أو يعاني شدًّا خفيفا في باطن الركبة، وقد يكون الجسد يعاني من السرطان، أو في أحسن حال وفي أحسن صحة، وفي الفترة ما بين المرض والصحة فإن كلتا التجربتين تقومان بالتشخيص والتحليل، إن الدراسات الخاصة بالأورام الخبيثة ترى السرطان في كل مكان، بينما يتعقب طبيب الأقدام البشرية المرض في كل أجزاء الجسم، ويرى المعالج بالإبر الصينية أن الطاقة تتفجر في وقت الظهيرة، كما يرى طبيب العظام أن العمود الفقري قد انحرف عن مساره. أما المتخصص في أعمال السحر والشعوذة فإنه يرى الأمر على أنه إحدى ممارسات السحر، ولسوء الحظ فإن كل ذلك لا يرى الجسد الحقيقي؛ وذلك لأن المدرسين لم يعلمونا كيفية الرؤية، والأهم من ذلك أنهم لم يعلمونا الاهتمام بالكتَّاب الآخرين، وفي ذلك ضرر كبير.

لقد مررت بتجرِبتين عظيمتين في ورش العمل، كانت التجرِبة الأولى حين كتبت، بالمشاركة مع شخص آخر، بعض النماذج الأدبية، وكان ذلك الشخص هو الوحيد الذي تحدث في ذلك اليوم، وأتذكر أنه استهل كل كلامه واقتراحاته بتعليقات مثل: «إن كل مواهبك وقدراتك تبدو في هذه الكتابة الأدبية التي يبدو فيها الناس وكأنهم يتكلمون، والمشكلة أننا على الرغم من القول لأنفسنا بأننا نريد لما نكتبه أن يكون واقعيًّا فإننا لا نفعل، ودعونا نَرَ كيف يبدو ذلك الأثر الأدبي إذا حاولنا له أن يكون واقعيًّا.»

لقد تعلمت المزيد في ذلك اليوم عن كيفية الكتابة أكثر مما تعلمته من دراستي ومن الندوات الأدبية والحلقات الدراسية، رغم أنها كانت مفيدة في أوقات أخرى، وكان ذلك بسبب أنها غير منظمة بشكل كافٍ، أو لأن المدرس كان مريضًا في الأسابيع الستة الأولى من الدراسة، وهكذا كنا نحن الطلبة ندير الفصل ومواضيع الدراسة بأنفسنا. لا أعرف

إذا كانت الحقيقة المتمثلة في أن قبولنا بالإكراه على تقبل تلك الظروف قد جعلنا نهتم ببعضنا البعض، أم أنه في حالة وجود تفسير آخر للنجاح، كانت جراحنا تلتئم بطريقةٍ ما أثناء العمل المشترك مع مجموعة من الأصدقاء، وكنا بذلك نستطيع أن نجد حلولًا للمشاكل الخاصة التي يأتي بها كل منا إلى الفصل.

أما التجربة الإيجابية التي تعلمتها من الكتابة مع الآخرين فهي أن شريكي كان يستطيع قراءة ما بذهني في كثير من الأحيان، وكان بالتالي يستجيب لما أحاول أن أقوله، وكان ذلك أكثر أهمية وفائدة من استخدام قدراته الفنية دون الوصول إلى ما يدور في رأسي. كانت لي صديقة منذ سنوات مضت لم تحصل على شهادتها العليا، وكان من النادر أن تقرأ لكنها كانت تمتلك القدرة على تحديد مكنونات كتابة القصص بدقة متناهية وبدون أن تخطئ، وكانت تساعدني في تصحيح بعض الأخطاء، تمثلت تلك القدرة لديها لأنها كانت تتعرف على درجات صوتي وأنا أقرأ بصوت عالٍ، فيمكنها عندئذٍ الإحساس بأدني تردد في الصوت أو ملاحظة أنني تسرعت في بعض المقاطع التي أعلم أنها مملة أو مثيرة للقرف، كما أن صديقًا آخر يلعب الآن دور المرأة بالنسبة لي مما يجعلني أعاود النظر أحيانًا فيما كتبت، إنه يعمل على توحيد ذلك الإحساس الجميل بتاريخ القراءة الطويل وتاريخ الكتابة والنشر، لقد علمني كل أولئك الأصدقاء كيفية الكتابة.

إن خدعة الكتابة التي لم يتعلمها طلبتي حتى الآن وأنصح بها بصدق، كما أنها تسري على كل نواحي الحياة، هي أن تكتشف المكان الذي يختبئ فيه قلب الشخص الآخر، ثم العمل على مساعدته للوصول إلى ذلك المكان.

إن تحليلي لمنهج الإجبار والقسر في العملية التعليمية لهو في مجمله شيء جميل، لكن التركيز على إعطاء درجات للطلبة وعدم أحقيتي في القيام بعملية التدريس إذا لم أفعل لهو أمر غريب. كانت إحدى مزايا التدريس في السجن أنني لم أكن مضطرًّا لوضع درجات، ولم أكن أعرف ما يجب أن أفعله بخصوص ذلك الشأن في الجامعة، وكذلك لم أكن أعرف بأنني لن أصدر رأيًا عن كتابات طلبتي، وعرفت أيضًا بحاجتي لأن يندمج الطلبة في عملية تحديد الدرجات، إنني أصف هذه العملية بطريقة مختصرة في كتابي «اللغة أقدم من الكلمات» The Language Older Than Words. لقد اقترح أحد الطلبة أن أعطي كل طالب درجة معينة قام بتحديدها، فتوجهت إلى مشرفي وعرضت عليه الفكرة لكنه اعتبرها أمرًا ليس من اختصاصه، فاقترحت على الطلبة أن نقوم نحن بتحديد الدرجات جزافًا، ولقد انتابتني

الدهشة لأن بعضًا من الطلبة الأقل اهتمامًا بالدراسة، وليس كلهم، قد راقتهم الفكرة وبدا أنهم مع تقدير الدرجات طبقًا للمجهود، ثم اقترحت عندئذٍ أن أعطي كل طالب درجة معينة قمت أيضًا بتحديدها، فلاقت الفكرة قبولًا من الغالبية، غير أن المديرين والبقية القليلة من الطلبة لم يفطنوا لكونها مزحة.

توصلنا بسرعة كافية إلى فكرة أن تعتمد الدرجات على أهمية الموضوع ومستوى كفاءته؛ لأنك تتعلم الكتابة بالممارسة، وهكذا تكون الدرجات طبقًا لعدد مرات الكتابة، ويمكن للطالب أن يأخذ درجة مقابل كل صفحة يكتبها ويتلقى عنها ملاحظة، ولأن إعادة الكتابة هي كتابة فإنه يأخذ درجة، ثم تتحول كل الدرجات مباشرة إلى مجموعة من النقاط، وإذا كتب شخص ما ورقة واحدة في كل الاثني عشر أسبوعًا التي يتكون منها الفصل الدراسي، وأعاد كتابة ثلثي الورق، فإنه يحصل على اثنتي عشرة درجة، بالإضافة إلى ثمان درجات، وذلك بعد أن أتفحص ما كتبه ذلك الشخص، على أن ينال إعجابي.

لقد تعجبت من كيفية مساعدتي للطلبة بمفردي على تعزيز قدراتهم، والتغلب على — أو تجنب — ضعفهم من خلال المسابقات داخل الفصل، ربما كان أحد الطلبة يمتلك إحساسًا مرهفًا بالأحداث وتسلسلها، لكنه يفتقر إلى فهم القواعد النحوية، مما يجعل القراء يتساءلون عما يريد أن يقوله بالضبط، وربما لم يستفد من الدروس عن الموضوع والأفعال والطريقة السليمة لاستخدام الفواصل، إن تلك الدروس غالبًا ما تكون مثيرة لضجر الطلبة إذا لم تتوافق مع عقولهم، وفي الغالب فإنك لا تجد طريقة لجعل محاضرة القواعد مثيرة للانتباه سوى ربطها بالحديث عن الجنس.

قلت لهم: هناك حل في الورقة التي أحببتموها بشكل خاص، تستطيعون وأنا معكم أن نعالجها سطرًا سطرًا، ثم نعمل على تجويدها والعمل على أن تصبح قطعة جميلة وبراقة، سوف نتداول بشأنها أكثر من مرة ونعاود كتابتها إلى أن تعجبنا في النهاية، حتى لو كان التشديد على بعض الكلمات أو المقاطع من أجل محاولة الانتهاء من الورقة، قمت بحثِّهم على تعقب ذلك، وقلت لهم إنه من خلال تلك العملية يستطيعون فعلا تعلم الكتابة، وكان الأكثر أهمية أنني قلت لهم أيضًا إن الأمر سيكون مجرد لهو.

كنت أعني أنني سأنفق كثيرًا من الوقت في التداول، ولكن لا بأس، إن التشجيع وإلقاء دروس عن الكتابة بشكل خاص يساعد الطلبة في الحديث عن أشياء أخرى مهمة كالحب مثلًا.

الحب

إن المدارس الحديثة والجامعات تدفع الطلبة إلى تعلم العادات التي تسلب الشخصية، وتدفعهم للشعور بالاغتراب عن الطبيعة والحياة الجنسية، وتساهم في تعلمهم طاعة التسلسل الهرمي والخوف من السلطة، كما تدفعهم أيضًا إلى التشيُّؤ الذاتي وفقدان التنافسية، تلك الصفات الشخصية هي روح وجوهر العالم الصناعي الحديث، وهي بالتحديد الصفات الشخصية اللازمة للحفاظ على النظام الاجتماعي الذي هو بدوره خارج تمامًا عن الاتصال بالطبيعة ولا يبالي بالحياة الجنسية والاحتياجات البشرية الحقيقية، إنها مميزات الشخصية التي يحاولون طمسها؛ خوفًا من المطالبة بإصلاح النظام الاجتماعي الذي لا يتماشى مع الطبيعة ولا مع الاحتياج الجنسي وعموم الاحتياجات الإنسانية.

آرثر إيفانز

* * *

قلت لهم: فلتغلقوا أعينكم، إنها تحدِّق فيَّ.

أغلقوها، إنها فعلًا تحدِّق فيَّ.

تخيل أنك ذاهب إلى مؤتمر في الربيع القادم بالقرب من أتلانتا، حيث ستكون أزهار الخوخ قد تفتحت للتو وتستطيع أن تشمها في كل مكان، وأن موضوعات المؤتمر ستكون أقرب إلى قلبك، فإذا كنت تحب العلاج الطبيعي مثلًا فسيناقش المؤتمر العلاج الطبيعي، وإذا كنت من محبي لعبة البيسبول فسيكون هو الموضوع المطروح للمناقشة، وإذا كنت

مسيحيًّا فإن مجموع الحاضرين سيكون من المسيحيين. أما بالنسبة لي فإنني أرى أن الموضوع برمته سيكون مجرد تجمع لحفنة من الناس يريدون إسقاط الحضارة الصناعية.

تصل إلى هناك يوم الجمعة حيث تقام المحاضرة الأولى مساءً، وتجلس بالقرب من الجهة الخلفية فوق مقعد يتيح لك رؤية جيدة، أنت شخص تعشق المناقشات وتهتم لتبادل الأحاديث، ويوجد مقعد شاغر إلى جوارك، وحين تنظر بزاوية عينك تلمح امرأة تقترب منك وتتساءل عن المقعد الشاغر إلى جوارك قائلة: هل يجلس أحد هنا؟

تبدأ في محاولة الوقوف لإتاحة الفرصة لها للمرور، لكن نظرة واحدة لذلك الوجه وإلى ركبتيك الملتويتين فوق بعضهما تجعلك تتردد، لكنك تحاول مرة أخرى حتى تستطيع أخيرًا أن تقف، فتسأل السيدة مرة ثانية: هل يجلس أحد هنا؟

تقول متلعثمًا: آمل أن يكون المقعد خاليًا.

لا تستطيع أن تصدق ما قلته لها، لكن ذلك ما حدث.

جلستَ ورحتَ تتبادل معها حديثًا وديًّا ولطيفًا قبل بدء المحاضرة، ولقد تأثرتَ بمعرفتها وحسن دعابتها وروحها المرحة وذكائها المدهش، كما أنها لفتت انتباهك بمفردات كلماتها البسيطة غير المتحذلقة رغم كونها مفردات قوية وحاسمة.

بدأت المحاضرة لكنك — لسبب ما — لم تستطع المتابعة أو التركيز، وبدلًا من التركيز على تحركات جارتك وانتقال جسدها كنت تعاني قلقًا وتوترًا بدا في فرك كف يدك اليسرى بكف يدك اليمنى، كما بدا أن قلبك قد توقف.

توقفت وأخذت نفسًا عميقًا، وكانت عيون الطلبة ما تزال مغلقة، لكن معظمهم كانوا يضحكون.

تجد نفسك مضطرًّا للتفكير في أشياء بعينها بعد تبادل بعض الأحاديث، وفجأة تجد لزامًا عليك أن تسألها قائلًا: ماذا ستفعلين في خلال الساعة القادمة؟

تجيب قائلة: سأكون في انتظار مكالمتك التليفونية.

تتصلان تليفونيًّا، تسيران معًا في الشوارع، تتحدثان حتى الثالثة صباحًا ثم يذهب كلٌّ منكما لينام في حجرته وحيدًا، وفي اليوم التالي تذهبان للمحاضرات معًا دون أن يهتم أحدكما بما يقال. تتحدثان مرة أخرى وتواصلان تبادل الأحاديث للمرة الثانية حتى الثالثة صباحًا، ثم يتوجه كلٌّ منكما للنوم في حجرته بعيدًا عن الآخر، وفي يوم الأحد لا تزعج نفسك بالذَّهاب إلى المحاضرة، وتخرج بدلًا من ذلك إلى ميدان القتال عند جبل «كينيسو»، وتمشي عبر الميدان الذي تَقاتل فيه الرجال وماتوا منذ مائة وأربعين عامًا، بينما أنت تتحدث عن

الجمال، وفي وقت متأخر من اليوم، وعندما تكبر الشمس قريبًا من الأفق تقول لك: أعرف أنك يجب أن تعود إلى «سبوكن» غدًا، لكنني أرغب في قضاء الليلة معك لأننا مارسنا الحب معًا بالكلام طوال اليومين الماضيين، وأتمنى أن نشارك بجسدينا في الحديث.

أتوقف مرة أخرى، ثم أواصل الحديث الموجه إلى طلبتي مستطردًا: والآن ماذا تفعلون، وكيف ستكون ردة فعلكم؟ هذا هو السؤال الذي أريد أن أطرحه عليكم.

فتحوا عيونهم الناعسة وبدءوا في الكلام وامتلأت عيونهم بالحياة، ثم انقسموا إلى نصفين، نصف يؤيد الذهاب للبيت لممارسة الحب، والنصف الآخر يعترض على الفكرة، والنسبة نفسها كانت للإناث، لكن واحدة منهن قالت: لو كنت أنا مكانها لما انتظرت حتى الليلة الثالثة، لماذا أتسبب في ضياع الليلة الأولى والثانية؟!

قال آخر: ولماذا يفسد العلاقة بعرض فكرة الجنس؟

أجاب ثالث: كيف يكون الجنس سببًا في إفساد العلاقة؟

قال رجل: أنا من اليابان، وبالطبع سأقول نعم.

ضحكنا جميعًا دون أن نعرف ما يعنيه، وحين حاول أن يفسر كلامه لم تسعفه لغته الإنجليزية، كما أن عدم معرفتنا باللغة اليابانية لم يساعدنا في الفهم.

قالت امرأة من الحاضرات: ليس بدون تقديم خاتم.

اختلف بعض الرجال والنساء معها بينما اتفق معها آخرون، شعرت بالابتهاج من قلة الازدواجية، ولم يكن مطروحًا على الإطلاق اتهام الرجال بالضعف إذا هم قالوا: لا، أو اتهام النساء بالبغاء إذا قلن: نعم.

لكن ثلاثة من الحاضرين بدا أنهم غير مرتاحين للمناقشة، وكانت أحدهم امرأة مسيحية متعصبة سارعت بكتابة ملاحظة لاذعة تخبرني فيها بأن أشياء بعينها لا ينبغي الحديث عنها في الفصل، فكتبت لها أيضًا مؤكدًا لها موافقتي لما قالت، وأكدت لها على عدم الحديث عن القواعد النحوية أو أي شيء قد يجلب الملل. أما الاثنان الآخران؛ وهما رجل في العشرينيات من عمره وامرأة، فقد كانا أكثر إثارة بالنسبة لي، كانا قد تعرفا على بعضهما البعض منذ حوالي شهر، وكان بقية المتواجدين بالحجرة يتحدثون بحرية كاملة، غير أن أيًّا منهم كان قبل أن يتحدث يتحسس كلماته من أجل تأثيرها المحتمل على الآخرين، وأستطيع القول: إنه على وجه الخصوص يريد أن يعرب عن رغبته في ممارسة الحب معها في الخيال، لكنه يخاف أن ينتهي به الأمر إلى النوم بمفرده في الواقع. نهضوا جميعًا معبرين عن عدم ارتياحهم، واقترح شخص ما بأنه سيخرج من الفصل حتى لو كان أحدهم يتحدث عما يشعر به، وفي النهاية أشرقت عيناه وهو يهم بالخروج.

قال بصوت مزعوم، ولكن بشكل مباشر موجهًا كلامه للفصل، غير أننا جميعًا كنا نعرف أنه يقصدها هي بالكلام: أعرف الوقت الذي بدأنا فيه هذه العلاقة، ولقد مضينا في العلاقة ببطء، وذلك لأننا لم نشأ أن نقضي على الأشياء الجميلة، أعتقد رغم ذلك بأننا لو لم نلتق في مؤتمر كهذا لكنت نلت منك منذ الليلة الأولى.

نظر إليها، لكن وجهها لم يوح بأي شيء، فراح يستطرد قائلًا: ذلك لا يعني القول بأنني كنت سأسعى للنيل من أي واحدة أخرى بطريقة أسرع، لكن الأمر مختلف معك.

ابتسمَتْ، واستطاع هو عندئذٍ أن يتنفس من جديد.

سألني شخص ما: ماذا كنت أنت ستفعل؟

أجبت: في العشرينيات من عمري كان الخوف سيتملكني، وربما كنت سأقول لا، بسبب ذلك الخوف، أما الآن فإنني أتمنى أن أقول نعم، وفي الحقيقة كنت سأتمنى أن أعبر عن مشاعر اللحظة الحقيقية.

ومهما كانت الإجابة بالرفض أو القبول فإنني دائمًا أسأل عن السبب، إنني أسألهم عن ماهية العلاقة، وإذا كانت أي من تلك العلاقات تجمع بين الفكر والتقارب العاطفي، وبين الفكر والألفة الجسدية، كان من الواضح أنني لم أكن أهتم بما سوف تكون عليه إجاباتهم، وإنما بالطريقة والكيفية التي توصلوا بها إلى تلك الإجابات، فقلت لهم أخيرًا: دعونا الآن نبدأ في تغيير شروط السؤال، كيف ستتصرفون إذا كانت العلاقة على وشك الانتهاء ولم يحالفها النجاح عند اللقاء الأول، هل كان ذلك سيغير من تصرفاتكم؟

قالت امرأة: كنت سأقول للشخص الذي معي أنني أحب فعلًا قضاء الليلة معه، لكنني مضطرة لعمل مكالمة تليفونية أولًا.

من الواضح أن أولئك الذين قالوا لا لم يغيروا رأيهم، وكذلك أولئك الذين قالوا نعم ظلوا عند رأيهم.

قلت: حسنًا، ماذا لو أن العلاقة في البيت كانت جيدة وممتعة؟ كيف ستفكرون عندئذٍ وكيف ستسير الأشياء؟

قال شخص ما: إنه لا يمكن لإجازة نهاية الأسبوع أن تكوِّن علاقة، لا شيء يحدث بمثل هذه السرعة.

أخبرته عن ابن عم والدتي الذي كان في مستشفى الجيش أثناء الحرب العالمية الثانية بعد إصابته بطلق ناري في ركبته أثناء محاولته الهرب من بين مجموعة من الجند كانت في طريقها للهجوم على إحدى الجزر بالمحيط الهادي، كان داخل حجرة الطعام ذات يوم

ودخلت عليه إحدى الممرضات، ثم ألقت عليه نظرة خاطفة، ووقفت إلى جواره وقالت: ذلك هو الرجل الذي سأتزوجه.

إنهما يعيشان معًا الآن ومنذ حوالي ستين عامًا.

سأل طالب آخر: لماذا لا نستطيع أن نسمح بنهاية هذا الأسبوع الجميل أن يكون جميلًا؟ من الذي يقول إن تلك ليست علاقة وإنما مجرد شيء صالح ومهم، مثلما يحدث منذ سنوات؟ لماذا لا يسعد الناس باللحظة؟

أخبرتهم عن مسلسل كوميدي كنت قد شاهدته ذات يوم، وكان المسلسل يتحدث عن امرأتين متشابهتين وجالستين فوق السرير بوجهين متجهمين، قالت المرأة الجالسة إلى اليسار إنها كانت تفكر ذات ليلة بأنها تنعم بعلاقة ممتدة، بينما قالت المرأة الأخرى إنها تفكر في علاقة ممتدة لليلة واحدة فقط.

قالت امرأة: إن الخدعة تتمثل في اكتشاف أيهما قبل حدوث الندم.

كان الطلبة يستمعون بشغف، وبدا أنهم سعداء، وراحوا جميعًا يتحدثون، فبادرت بتغيير الشروط أكثر من مرة وقلت: ماذا لو شاركتم في أحاديث شيقة ولكن مع شخص ليس جذابًا وليس فيه ما يثير؟ هل سيؤثر ذلك في الأمر؟ أو ماذا لو كان الشخص جميلًا وفاتنًا في الشكل لكنك سرعان ما تكتشف بأنك لا تجد شيئًا تقوله؟

أضفت قائلًا: لو أنك اكتشفت مثلًا بأن ذلك الشخص شبيه بالثلاثي المرح؟

أجاب أحدهم: هاي، أنا أحب الثلاثي المرح.

قلت بحسم: حسنًا، لا تسألني عندئذٍ أن أقوم بمضاجعتك، وهل ستتصرفون بطريقة مختلفة لو أنكم تعلمون بأنكم ستعيشون لفترة محدودة؟

انتهى الدرس وجاء وقت الرحيل، غير أن أحدًا لم يشأ أن يغادر فيما عدا تلك المتعصبة التي كانت تنظر في ذهول، لَمْلَمَت أشياءها ثم خرجت، لكننا جميعًا بقينا لمدة أطول قبل أن نخرج.

طوال الأيام القليلة التالية تلقيت العديد من المكالمات التليفونية التي تسأل عن إمكانية الانضمام للفصل.

عاد طلبتي إلى مساكنهم وراحوا يتحدثون مع زملائهم في الحجرة عن تلك الأسئلة، وراح زملاؤهم يتحدثون بدورهم مع آخرين من أصدقائهم في السكن نفسه وظلوا جميعًا يتبادلون الحديث حتى وقت متأخر من الليل في جو مليء بالإثارة.

في الحصة التالية سألني الشخص نفسه الذي تناقش معي عن فكرة الإصابة بمرض خطير، عن الرد، وفي هذه المرة هززت كتفي وابتسمت، لم أخبرهم، لكن ثمرة النقاش لم

تكن أبدًا عن الجنس، ولا حتى من بعيد، كانت أهمية النقاش تتمحور حول تعلم كيفية التفكير وكيفية الاختلاف، وأهمية أن يتخذ المرء موقفًا بعينه، ولكن حتى كل ذلك لم يكن هو الهدف، كان الهدف هو مساعدتهم على أن يتذكروا بعد سنوات كثيرة من التجارب الصغيرة في المدرسة أن عملية التفكير ممكنة إلى جانب أنها ممتعة.

في يوم آخر كنا نقيم احتفالًا في السجن، وكان واحدًا من الأيام الممتعة التي لم أعش مثلها منذ وقت طويل، كان احتفالًا بالكتابة وسبل نشرها، وكان من بين الحضور طالبان جديدان، أما بقية الطلبة فكان بعضهم مشاركًا في الفصل منذ ستة أشهر والبعض الآخر قد شارف على الانتهاء من عامه الثالث، وكانت مراقبتهم وهم يتعلمون كيفية نشر أعمالهم مثيرة للفرح، كنا نعمل ونناقش قصتين قديمتين، وكانت كلتا القصتين تتسمان بالبراعة والحبكة والإتقان، ومكتوبتان بقدرة فائقة، كانت القصة الأولى تتحدث عن رجل مهووس بالنزوات، مما كلفه ذلك فقدان زوجته التي قتلت نفسها، وابنته التي تم قتلها، كما فقد حريته وانتهى به المطاف إلى دخول السجن. أما القصة الأخرى فكانت عن فتاة صغيرة غير سعيدة؛ بسبب شجار والديها الدائم، والتي تذهب إلى مكانها المفضل عند شاطئ مهجور فيغلبها النعاس في كل مرة، ثم ترى بعد استيقاظها فتى كالضفدع، أو فتى قد تحول إلى ضفدع، فيصبحان صديقين، لكن العلماء الذين حولوه إلى ضفدع عن طريق إعطائه جرعة من الدواء قاموا أيضًا بتحويلها هي إلى يعسوب، ولا أستطيع أن أخبرك بما حدث بعد ذلك لأن صاحب القصة لم ينته منها بعد، لكنني أعرف عن يقين بأن تلك الأحداث هي التي أعادت الوفاق إلى والديها.

صورنا عددًا من النسخ لتلك الصفحات استعدادًا لنشرها، وقدمنا نسخة لكل الحاضرين، ثم استمعنا لها لمدة دقائق قليلة، وقام كل منا بالتعليق موجهًا كلامه إلى الكاتبين، وبعد ذلك جاء وقت التعمق في دراسة القصتين، فرحت أقرأ بصوت عالٍ وببطء، وكنت حريصًا على التوقف بعد الانتهاء من كل جملة لمعرفة مدى اهتمامهم، حتى وصلنا إلى مشهد الرجل وهو يمارس نزواته، فقلت لمؤلف القصة: أنت بارع في الوصف، لكنني لم أشعر بالقصة بعد، لقد أحببت إظهارك المبكر للحب بينه وبين زوجته، فهل تستطيع مساعدتي في إدراك كيفية فقدانه لعائلته بسبب تلك النزوات؟

قال لي: ينبغي أن أخبرك أنني عندما شرعت في الكتابة تراجعت قليلًا لأنني لم أشأ أن أصيب القارئ بانتكاسة ما.

قلت: ذلك هو الموت، أنت لا تستطيع أن تفكر بشأن القراء أو المشاهدين بهذه الطريقة وتتوقع أن تكون الكتابة طيبة ومبهجة فقط.

إن السؤال الأهم الذي لا يفارقني مع كل جملة أكتبها هو: هل هذه الجملة حقيقية، وهل تتسم بالواقعية، وهل يمكن تصديقها؟ ذلك هو الشيء الوحيد الذي يهم، وهذا السؤال هو الذي يعنيني، وهو الشيء الوحيد أيضًا الذي يجب أن يستولي على تفكيري.

قال طالب آخر: كنت أريد مزيدًا من التفاصيل، فقد رغبت مثلًا في معرفة شكل الحجرة التي كان سينطلق منها.

وقال آخر: هل تتذكر ذلك المشهد في قصة «المرض» (هي واحدة من القصص التي كتبها طلبتي) التي تحكي عن مدمن سابق حين شاهد ابنه وهو يشرع في تناول الحبوب بملعقة متقوسة، فاضطر الأب لبعثرة محتويات الملعقة لأنه لم يشأ لولده أن يكون مدمنًا؟ هل تستطيع تناول بعض التفاصيل كما حدث في تلك القصة؟

قلت: أنت تصف إحساسه بالنشوة الجنسية لحظة الجماع، فهل ذلك حقًّا هو الشعور الذي ينتاب المرء في حينها؟ وهل تشعر بكل ذلك في أعضائك التناسلية؟

قال الكاتب: يا إلهى، يحدث دائمًا ذلك الإحساس في لحظة القذف.

سألت قائلًا: حقًّا؟

استطرد: أحيانًا أجدني مضطرًّا للتوجه إلى الحمام لإفراغ ما في معدتي وينتابني شعور بالقرف.

وهل ذلك شيء جيد؟

قال أحد الطلبة: لقد سمعت عن البعض ممن يحدث لهم الشيء نفسه.

قلت: مهلًا، أخبرنا عن الذي يحدث.

أخبرنا بقليل من التفاصيل كيف أن العملية برمتها بكل تفاصيلها قد كلفته نقود العائلة التي كان ينبغي أن يشتري بها البقالة، كما أن شخصًا ما قد أخبره بأنه أنفق النقود الخاصة بشراء حذاء جديد لطفله.

قلت وكررت القول: تلك تفاصيل عظيمة ومهمة التي أخبرتنا بها للتو، لكنها ليست موجودة بالقصة فأرجوك أن تكتبها.

قرأنا القصة من جديد بعد إضافة التفاصيل، فضم أحد الطلبة ذراعيه، وهو الشخص السابق المدمن نفسه على المخدرات، وقال: لقد شعرت بالقشعريرة تسري في جسدي.

قلت: ذلك ما تريده، إذا أردت الكتابة عن المخدرات فعليك أن تجعل القارئ مدمنًا لذلك المشهد، وأن تجعلنا نفهم السبب الذي من أجله هجر عائلته، وأن تجعلنا نفكر في

التخلي عن عائلاتنا، إنه الشيء نفسه مع أي شيء آخر، فإذا كنت تصف فتاة صغيرة تتحول إلى يعسوب فينبغي أن يرغب القراء في التحول إلى يعسوب، يجب أن يتوحد القارئ مع ما يقرأ.

تبادلنا مزيدًا من الأسئلة: هل يدعو راكبو الدراجات دراجاتهم بالجياد؟ هل يدوي جوادك كصوت الرعد عندما تبدأ في الانطلاق؟ أم أنه يبدو كالزورق؟ أم أنه يكون شيئًا آخر؟ وإذا كان الشخصية المحورية يحب زوجته ويشعر في الوقت نفسه باستلطاف وقبول نحو صديقته، فماذا تشبه صديقته تلك وماذا ترتدي؟

انتقلنا بعد ذلك إلى القصة الثانية، فقرأتها ببطء، وسمعت سؤالًا يتردد عبر أرجاء الفصل: بماذا تشعر عندما تبدأ الأجنحة في النمو؟

اقترح أحدهم قائلًا: أعتقد أنه قام بتقسيم السؤال إلى جملتين.

أجاب آخر بإصرار: لا.

كان اثنان من الطلبة في تلك الأثناء يحاولان اكتشاف ومعرفة ما فعلته سارة بأجنحتها الجديدة، بينما كان شخص آخر يتساءل عن الذي شاهدته أثناء التحول من شخص فرد إلى عيون مركبة.

قال أحد الحاضرين متسائلًا: هل ستصبح قادرة على الكلام؟

وتساءل آخر: ماذا سوف تأكل؟

راحوا يتحدثون في وقت واحد، ورحت بدوري أحدق في الطلبة الجدد، فاستطعت أن أبصر نظرات من الاضطراب فوق وجوههم مع اهتمام شديد لما يسمعون، أدركت فجأة ما يشعرون به تجاه الفصل فانفجرت ضاحكًا وعرفت أننا في حضور احتفال بالكتابة الإبداعية، ولم أكن متأكدًا من أي شيء يمكن أن يكون أكثر متعة وإثارة من ذلك.

قلت للطلبة في جامعة واشنطن الشرقية: إن أول قاعدة للنشر هي ألا يكون مسموحًا للناشر أن يتدخل في العمل، ويستطيع الكاتب عندئذٍ أن يعبر عن استيائه كما يشاء، ولكن إذا قدم الناشر اقتراحًا ما لم يعجب الكاتب فتلك ليست مشكلة كبيرة، أتذكر ذات مرة منذ زمن بعيد أنني كنت على علاقة بامرأة، وقد اشتركنا في كتابة عمل ما، وحين قدَّمَت يومها اقتراحين لم أجد أهمية لهما قلت لها: لماذا؟

تنهدت بقوة وقالت: لماذا سألتني إبداء النصيحة والإفصاح عن رأيي ما دمت لم توافق؟

كنت أعرف حينها أننا نمضي ليلة فاتنة.

يمكنني القول بطريقة أخرى: إن الكاتب دائمًا هو الرئيس الأوحد لأي عمل، ولا ينبغي لأحد أيًّا كان أن يتدخل، وعلى الناشر طوال الوقت أن يكون يقظًا تمامًا لأفضل اهتمامات الكاتب، أما إذا لم يستطع الالتزام بذلك، حتى لو كان صديقًا، فعليه أن يصمت.

إن مهمة الناشر الوحيدة هي مساعدة الكاتب على كتابة ما يريد كتابته بشكل جيد، وبأفضل طريقة ممكنة، وليس من وظيفة الناشر أن يملي على الكاتب ما يريد هو كتابته، وذلك ما جعلني أرفض عقدين مع ناشرين مختلفين لأنهما أرادا فرض أفكارهما.

عندما أعمل مع شخص ما في أي عمل، يكون لدي إحساس قوي بأن ذلك الشخص يريد مساعدتي، وأن ما يقوله هو الشيء نفسه الذي أحتاج لقوله، وإذا ما حدث ذلك فإنني أصبح قابلًا لسماع أي نصيحة رغم أنني دائمًا لا أعمل بها، لكنني لا أغضب من سماعها. إن كل شيء قلته عن الناشرين ينطبق تمامًا على المدرسين، وهذا يعني — وقد تكون غير معتاد على سماع ذلك وبخاصة في المدرسة — أنك أنت الرئيس الأوحد.

نحن نعرف أن التسلسل الهرمي برمته في المدرسة هو عكس ما يجب أن يكون عليه، فأنت لست موجودًا هنا من أجلي، كما أنني لست موجودًا بالفصل للإشراف والمراقبة، والمشرف موجود لمساعدتي، والقائمون بالأعمال الإدارية لمساعدة المشرف، كل شيء مرسوم، وأنت السبب في وجودنا كلنا هنا، وإذن فماذا تريد أن تفعل؟

أخبرني رئيسي في جامعة واشنطن الشرقية أن سياسة الحضور الرسمية في فصلي الدراسي يجب أن تنطوي على طرد أي طالب يتغيب أكثر من مرتين دون التنبيه عليه من أستاذه، بدا ذلك الأمر جنونيًّا بالنسبة لي، وفيما بعد — كما ذكرت سابقًا — بدا أن هناك حاجة لعقاب أولئك الذين يتغيبون بدون أسباب قوية، ولكن لمجرد أنهم مستهترون ولا يقدرون المسئولية.

جاء الحل من إحدى الطالبات حين أحضرت معها بعد غيابها ليوم واحد مذكرة طويلة موثقة ويصعب قراءتها، من الطبيب الذي يعالجها، وصادف أن اسمه «فرانكشتين»، وكان يصف فيها كيف أنها كانت في احتياج لعمل بعض التحاليل، وقال لي بأنني إذا حدث وذهبت إلى قسم البيولوجي، وحدث أن نظرت إلى مجموعة من العقول الإنسانية التي تصادف وجودها في ذلك الوقت، وحدث أن لاحظت أن أحد تلك العقول غير موجود فلا ينبغي أن يصيبني القلق لعدم وجوده، إن العقل موضوع في مكانه للقيام بوظيفة مهمة وجيدة.

كانت واحدة من الطرق الوحيدة التي ألزمت نفسي بها في المدرسة هي ألا أقرأ أبدًا أيًّا من النصوص المقررة، وكنت أفضل، ولا أزال، أسلوب الحوار والمناقشات بين الطلبة، وعكس ذلك كان يصيبني بالملل والضجر، وكان إنجازي الذي أفتخر به أن مدرس اللغة الإنجليزية في المدارس العليا قد عمل بأسلوبي نفسه، وقام بتطبيقه على ثلاثين من التراجيديات التي لم أقرأ سوى ثلاث منها فقط، ويجب القول إن سنوات عديدة قد مضت على العمل بتلك الطريقة. كان لي صديق أيضًا كتب تقارير كتابية بطريقة روتينية عن كتب لم تكن موجودة، وكان صديق آخر كثير الاطلاع مثلي ومثل بقية أصدقائي ممن كانت أوراقهم التاريخية تتكون في الغالب من أوصاف كاملة التفاصيل عن معارك مغمورة لم تأخذ نصيبها من التأريخ.

إنني أريد بالطبع تشجيع ذلك النوع.

توصلت مع طلبتي إلى أن أي وقت يتغيب فيه أي طالب يتم خصم درجة من درجاته.

كان الأسبوع الرابع من الفصل الدراسي، وفي الأسبوع الماضي عندما كتبَتْ إحدى الطالبات قصة فرانكشتين أضافت إليها ورقة عبرت فيها عن اشمئزازها وشعورها بالقرف عندما شاهدت امرأتين تتبادلان القبل، تأثرت أنا من سرعة يأسها من الاشمئزاز فكتبت لها في الورقة الخاصة بها متسائلًا عن السبب وراء ما استبد بها من شعور بالضيق والقرف، ثم سألتني بدورها، ولكن داخل الفصل، قائلة: ألا تعتقد أن ممارسة الجنس بين امرأتين شيء مثير للاشمئزاز والقرف؟

قلت بمنتهى الأمانة: إنني في الغالب لم أفكر يومًا فيما يخص حياة الناس الجنسية، أنا لست متأكدًا من أنني أريد على وجه الخصوص أن أعرف شيئًا عن تفاصيل تلك الأنواع من الشذوذ الجنسي والتعلق بالجنس الآخر، وأولئك الذين يمارسون الحب معًا وهم من الجنس نفسه، ولكنني عندما أفكر جديًّا في الحياة الجنسية لشخص ما فإن استجابتي تتأثر في العموم بحقيقة أن الكثير مما أسمعه عن تلك الحياة وإدراكي لتعقيدات مختلف الناس في محاولاتهم البحث عن المتعة والتواصل من خلال مجتمع متصدع وخوف متصاعد، فإنني أكتشف ضرورة أن أحتكم للمحاولات غير الضارة وغير العنيفة نحو الآخر دون النظر لرغبتي في المشاركة بنفسي في ذلك التصرف أم لا.

قالت: ولكن ماذا لو أخبرت والديك بأنك شاذ؟ ما الذي سيفكران فيه عندئذٍ؟

قلت، وقد أدركت فجأة أهمية السؤال بالنسبة لها: أنا لست على اتصال بوالدي ولا أعرف شيئًا عنهما، ولكن بعيدًا عن حب الاستطلاع فقد سألت أمي ذات مرة السؤال نفسه

فأعربت في البداية عن عدم اهتمامها بالموضوع، وقالت بأنه لا ينبغي لها أن تهتم بمثل تلك الأمور التي — من وجهة نظرها — هي أمور عادية يجب ألا نحملها أكثر مما تحتمل، وأضافت بأنها لو كانت كذلك فإن الأمر برمته لا يؤثر فيها ولا يعنيها، وإذا ما حدث وترك أثرًا ما فإنني سأظل الشخص نفسه الذي كنته قبل أن أخبرها بخمس دقائق، ثم استطردَتْ وقالت بأنها أحبتني من قبل فكيف لمثل تلك الأمور أن تقلل من حبها لي.

قالت بفم مفتوح عن آخره: هل قالت أمك ذلك؟

أجبت قائلًا: نعم.

وأضفت بيني وبين نفسي دون أن أقول لها: أعتقد بأنك تأملين ذات يوم أن يقول لك والداك الكلام نفسه.

بعد ستة أشهر جاءت الطالبة نفسها إلى مكتبي، ورحنا نتحدث عن الدفعات الدراسية الجديدة، ثم قالت: أنا الآن في علاقة غرامية مع شخص ما.

تسلحت بالشجاعة الكافية وقلت متسائلًا وأنا أبتسم: ما اسمها؟

أجابت قائلة: إنها امرأة.

قلت: هل تشعران بالسعادة معًا؟

قالت: نعم، أوه، نعم.

قلت: وأنا كذلك.

التفكير

«إن التفكير بعمق في ثقافتنا يؤدي بك إلى أن تصبح شخصًا غاضبًا، كما تتسبب في غضب الآخرين، وإذا لم تستطع أن تحتمل ذلك الغضب فإنك تبدد الوقت الذي تفكر فيه بعمق. إن إحدى مكافآت التفكير العميق هي ذلك الاحتدام الشديد للغضب عند اكتشاف الخطأ، أما إذا كان الغضب ممنوعًا فإن الأفكار ستتضور جوعًا حتى تموت.»

جولز هنري

* * *

كان الوقت متأخرًا ذات يوم من أيام الأسبوع الرابع حيث كنا نقوم بعمل تدريب آخر في الفصل أطلقت عليه اسم «الطفل المزعج»، اتسم ذلك التدريب بآراء كثيرة وثرية، وبتكرار الأسئلة مرات ومرات، كما تناول كل الآراء المكبوتة؛ لماذا تشعر بما تشعر؟ لماذا يكون ذلك الأمر مهمًّا؟ وهكذا حتى إما أن يصيبك الذهول أو تصل إلى مقدمات منطقية لما بنيت عليه أفكارك.

كانت قواعد لاعب البيسبول المحددة هي أحد الأمثلة التي تضمنت آراء مكبوتة.

وكان سؤال الطفل المزعج: لماذا؟

أجاب أحد الشباب الأذكياء قائلًا: إن القاعدة تجعل المديرين يتجنبون القرارات الصعبة.

تساءل الطفل: لماذا في هذه الحالة يكون تجنب الأسئلة الصعبة شيئًا سيئًا؟

أجابه الشاب: القرارات الصعبة، الأخلاقيات، الروحانيات، الإجراءات العملية هي جوهر الدراما، إنهم يكتبون بشكل يثير التشوق، وفي مجال الترفيه والتسلية تكون الدراما والتشويق شيئًا جيدًا، تمامًا مثلما يحدث في رواية جيدة أو مسرحية تجد نفسك راغبًا في

أن يواجه البطل الروائي أو الممثل الأول في المسرحية تلك القرارات الصعبة، ذلك البطل في الرواية أو بطل المسرحية هو المدير في حالتنا هذه، كان على البطل في مسرحية هاملت أن يقرر قتل زوج أمه أم لا، إذا لعب الكرادلة دور المراوغين فإن على «توني لاروسا» أن يقرر إما أن يسدد ضربة لـ «مات موريس» أم لا.

لماذا تكون الدراما والتشويق شيئًا جيدًا بالنسبة للأعمال الترفيهية؟

إن القواعد الخمس الأولى للكتابة هي ألا تصيب القارئ بالملل، فهل يستطيع الناس متابعة العمل أو قراءته بدون تشويق؟

لماذا تكون القرارات الإدارية أكثر دراماتيكية من الأعمال التي تدار في المنزل؟

لسبب ما، أيًّا كان، فإنني أفضل التحديات العقلية عن التحديات الجسدية، ربما لأنها أكثر متعة بالنسبة لي أن أضع نفسي في موضع المدير وأستطيع أن أضع القرارات (ولا تفكر حتى في سؤالي عن المتعة التي أشعر بها وأنا أضع القرارات)، ذلك أفضل لي من أن أكون في وضع اللاعب الذي يكون مدفوعًا لضرب الكرة من المكان المناسب للمضرب ويظل في متابعتها بعد ذلك إلى حيث تذهب.

وإذا ما كانت تلك هي الحالة فلماذا تحلم بنجاح عملك المنزلي بدلًا من إدارة فريق لكرة البيسبول؟

حتى حينما كنت طفلًا كنت أفضل لاعبي البيسبول عن تلك الأعمال المنزلية، ولذلك فإنني لا أعتقد أنه كان من السهل أن أكون رياضيًّا حينها، وأن خيالاتي تطابقت مع ميولي، أعتقد أن الفرق هو بين العمل والملاحظة؛ لأنني إذا ما ذهبت لملاحظة أو مراقبة شيء كفيلم سينمائي مثلًا، أو مشاهدة مباراة في البيسبول، وإذا كان لا بد لي من الاختيار بينهما، فإنني بالأحرى سأكون منحازًا للدراما الذهنية التي تحث العقل على التفكير، ولن يثيرني كثيرًا أداء اللاعبين.

إن الكتب والأفلام السينمائية بالنسبة لي كذلك تمثل حقيقة قاطعة؛ لأنها أعمال ذهنية ويزداد حبي وإعجابي بالكتب والأفلام السينمائية أكثر من أي شيء آخر كلما تضمنت القصة الفن الخاص بكليهما.

إن الهدف من هذا التمرين — الذي من المفيد أن تمارسه لمدة طويلة — هو أنه يساعدك على التخلي عن التحيز أو التعصب لفكرة ما، ويمكِّنك من التفكير من جديد في أفكارك. أنت تريد بالطبع أن تجعل القراء يمضون معك في متابعة الأحداث دون ملل، والمضي قدمًا في متابعة الشخصية الرئيسية بكل أفعالها وانحرافاتها، أو الدخول في حجرة قد تكون مظلمة أو مضاءة بقليل من الضوء، وبداخلها آلة موسيقية، إن الطريقة الأولية لعمل ذلك

هي أن تصف بدقة ما تراه الشخصية الرئيسية، وما الأشياء التي يسمعها ويتذوقها؟ وماذا يمكنه أن يلمس ويشم؟ من خلال مناقشات وجدل لا ينتهي تجعل القارئ من خلاله لا يتوقف عن المتابعة، وكذلك وأنت تصف أوضاعك بدقة وبشكل جوهري بقدر ما تستطيع، لكن الهدف الأساسي والأولي هو ألا تساعد القارئ، إن ذلك التدريب يساعد الكاتب ويعلمه كيفية التفكير بوضوح، ويساعده في ألا يكون عبدًا لافتراضاته.

إنني أقوم بعمل ذلك التدريب طوال الوقت مع كتاباتي الخاصة ومع كثير من آرائي على قدر ما أستطيع، ومثال على ذلك هو الرأي القوي الذي كتبته عن عدم القدرة على احتمال الحضارة الصناعية.

لماذا قلت ذلك؟

ليس ثمة طريقة للعيش تعتمد على استخدام المصادر غير القابلة للتجديد، فالإفراط في استخدام تلك المصادر لا يمكن احتماله.

لماذا؟

إذا كانت طريقتك في الحياة تعتمد على شيء ما قليل الوجود، أو موجود بكميات محدودة (كالبترول مثلًا)، فإنك أخيرًا ستستهلكه، متى تفعل ذلك وأين ستكون؟ وبالمثل إذا كانت طريقتك في الحياة تعتمد على استخدام شيء ما قابل لتجديد نفسه، حتى لو لم يكن بالسرعة نفسها التي تستخدمه بها، فإنك أخيرًا سوف تستهلكه أيضًا.

لماذا تهتم؟

لأنني أهتم بأولئك الذين سيأتون فيما بعد، أولئك الذين سيرثون هذا العالم المنهار.

لماذا تشغل بالك بهم؟

لأنني إنسان.

ولماذا يجب أن تهتم بالشأن الإنساني؟

لأن الإنسانية ليست، ببساطة، كيانًا أنانيًّا في كيس من الجلد، الإنسانية بالنسبة لكل إنسان في الحقيقة هي العلاقة التي يتشاركون فيها، صحتي وعواطفي وحالتي الجسدية والأخلاقيات كلها أشياء متشابكة ومتصلة بنوعية تلك العلاقة، وإذا كانت العلاقات فقيرة، أو أنني قمت بالتخلص من العلاقات التي أتظاهر بأنها ليست علاقات، فإنني سأكون أكثر صغرًا وأكثر ضعفًا، مثل تلك الحالات ليست مجرد حالات جسدية وإنما هي أيضًا عاطفية وروحية.

طلبت من الطالبة أن تقول رأيها فقالت: نحن في حاجة لسمك السالمون المتوحش.

لماذا؟

أجابت بسرعة وثبات: إن التنوع هو القوة.

وما أهمية ذلك؟

إن المجتمعات المتوحشة بتنوعاتها المختلفة هي الأكثر استقرارًا، فإذا ما حدثت كارثة ما فإنهم في تلك المجتمعات قادرون على الشفاء منها.

ولماذا تهتمين بذلك؟

فكرت ثم قالت: القوة الناتجة عن التنوع ليست هي القوة المادية وإنما أيضًا هي قوة عقلية ووجدانية، كل شيء في المجتمعات الإنسانية هو درس من الدروس بالطريقة التي نتعلم بها دائمًا كيفية العيش في مكان خاص، إن الملاحظة والتعاون مع كل شيء حولنا هما من القواعد الأساسية لتطور جنسنا البشري وتطور الشخصية الإنسانية، إن الاختلاف يعني مزيدًا من الدروس مما يعني مزيدًا من الفرص التي نختبرها في حياتنا.

لماذا نحن في حاجة لذلك السمك المتوحش؟ ولماذا لا نستطيع زراعته؟

نستطيع زراعة كل أسماك السالمون المتوحشة لكي نأكلها، ولكننا سنكون في حاجة لاستخدام كل مهاراتنا التقنية، فنحن ما نزال نجهل الطريقة التي تعيش بها، تلك الأسماك تعلمنا الكثير عن نفسها، وإذا ما لاحظنا السالمون المتوحش وردود أفعاله بالنسبة لردود أفعالنا، فسوف نتعلم شيئًا عن مياه الشرب النظيفة وعن الأشجار التي تمدنا بالطعام وعن كيفية التعامل مع إخوتنا في الإنسانية بمختلف مشاربهم، وإذا عزلنا السالمون وتجاهلنا الدروس المستفادة منها فإننا نستطيع الاستمرار في ردود أفعالنا، وندمر بذلك كل شيء ثم نموت، وكذلك الأمر مع كل أنواع التنوع من حولنا، إذا تجاهلنا كل الدروس الكبيرة والصغيرة من حولنا وفرضنا على إخوتنا في الإنسانية الشروط التي ابتدعناها للعيش سندمر كل ما نحلم به ونموت بسرعة.

كان تحليلها رائعًا فأصيب الفصل بالذهول، وكذلك أنا.

قسمت الطلبة إلى زوجين، وطلبت منهم أن يتدربوا على ذلك، وكانت النقطة التي ركزت عليها هي أن يكتشفوا ببساطة كل متناقضاتهم ونقاط الضعف التي يعانون منها، ثم حاولت مساعدتهم في تطوير أفكارهم من أجل الالتفاف حول متناقضاتهم، وطلبت منهم أن يشحذوا أفكارهم للتغلب على ضعفهم.

كان الهدف الأساسي — كما يحدث دائمًا — هو إثارة جو من المرح.

انتهينا من التدريب وحان وقت الرحيل، وكنت حتى هذه اللحظة أحرص على النقاش لمدة ساعة على الأقل قبل وبعد كل درس، وفي هذه الليلة كان النقاش مع المرأة التي لم يعجبها

حديثنا في الفصل عن الجنس، كنت أجتاز أحد الطلبة متوجهًا نحو باب مكتبي، وكانت المرأة في طريقها للدخول فأفسحت لها الطريق، تحركَتْ مباشرة وبدون تردد نحو مقعدي ثم جلسَتْ فوقه، ولم يحدث أن قام أي طالب من قبل بفعل الشيء نفسه، توقفتُ لحظة ثم جلستُ فوق مقعد آخر دون اعتراض، ولم يكن الأمر مقنعًا لكنني لم أفكر بنية الذهاب أو التوجه لأي مكان بأي طريقة.

أسرعَتْ بالقول: أنتَ في خطر، وأنت تشكل خطرًا على الطلبة في الفصول التي تقوم فيها بالتدريس.

ترددت كثيرًا في الرد، فلم أكن متأكدًا من الرد المناسب ومما يجب أن أقول لها.

أضافت: ستذهب للجحيم حتمًا، وإذا لم تتوقف عن أفكارك الغريبة فسوف يذهب معك للجحيم كثير من الناس.

قلت: أنا لا أفهم.

قالت: ألا تدرك ما تقوم به؟

هززت رأسي وبدأت أتساءل عما إذا كانت تحمل مسدسًا!

سألتني قائلة: كيف للإيمان أن يسود العالم بينما الناس تفكر في نزواتها؟

توجهت إليها بسؤال أيضًا وقلت: لماذا تعتقدين أن الأفكار الناقدة والمختلفة تقضي على الإيمان؟

سحبَتْ مقعدها حتى أصبحت ركبتها في مواجهتي، ووضعت يدها فوق قلبها واليد الأخرى فوق ركبتي.

قلت: هل أنت متأكدة ...؟

لكنها قاطعتني وبدأت تصلي.

توجهت إلى الله في صلاتها أن يغفر لي وأن يمكنني من الإحساس بالخطر الذي يحيق بي.

كانت حقيبة الظهر الخاصة بها موجودة خلفها على الأرض، فنظرت إلى ظهرها لمعرفة ما إذا كانت سوستة الحقيبة مفتوحة أم مغلقة، كانت السوستة مفتوحة وكنت سعيدًا لأنها كانت تلمس ركبتي بيدها، تلك الطريقة ساعدتني في الشعور بتحولات مفاجئة قبل حدوثها بالفعل، وانتابتني رغبة لو أن طالبًا آخر — أي طالب — كان ينتظر بالخارج.

شيء آخر بداخلي كان يتساءل في اللحظة نفسها عن تلك المرأة، ورحت أتساءل بيني وبين نفسي: من هي هذه المرأة؟ وفي أي شيء تفكر؟ وماذا تريد مني، ليس بشكل سطحي، وإنما كما يبدو فيما وراء مخاوفها؟ وكيف يمكنني مساعدتها للوصول إلى حيثما تريد؟

واصلت المرأة صلواتها وهي تتوسل إلى الله أن يساعدني على الفهم.

أود القول بأنني لو كنت قادرًا على إدراك ما كانت تبتغيه لقمت بتغيير طريقتي، وإذا كان ذلك هو الهدف، أو على الأقل ما كنت قادرًا على إدراكه من خلال ما قالته، ومن خلال ما كانت تعنيه بالفعل وما كانت تتمناه، كنت قادرًا على الإحساس بشعور المرأة بالاشمئزاز والقرف لرؤيتها امرأتين وهما يتبادلان القبل، تمنيت لو أنني كنت قادرًا على مساعدتها أو مساعدة نفسي لكنني لم أستطع، كانت تصلي أمامي بهدوء، ثم عادت للجلوس فوق مقعدها، ورحنا نتبادل الأحاديث لمدة ليست بالقصيرة، وبعد ذلك همت بالرحيل.

تحدثت مع رئيسي عنها فأعرب عن سعادته لو تم نقلها إلى قسم آخر إذا ما كان ذلك سيساعدني، فتقدمت له بالشكر وقلت له بأنني سأنتظر يومًا آخر أو يومين حتى أرى ما سوف يحدث.

جاءت إلى الفصل في المرة التالية قبل موعد البدء بساعة كاملة، وقامت بالاعتذار وقالت بأن تصرفها لم يكن مقبولًا بأي حال، وأنها ستترك الفصل إذا رغبت أنا في ذلك، فقلت لها بألا تقلق وأن كل شيء سيكون على ما يرام.

كان اعتذارها بسبب عيد الغِطاس، وهل هناك شيء يجب عليَّ فعله في ذلك العيد أم لا؟ وقالت بأنها ستشارك وتستمتع مع بقية الفصل، فشعرْتُ بالسعادة.

لم أستطع الإمساك بما يريده ويتمناه طلبتي ولم أعد قادرًا على تعليمهم، كما فقدت رغبتي في معرفة ما يرغبون فيه والتأكد من أنهم في المكان الصحيح الذي أستطيع من خلاله أن أعلمهم شيئًا، وكانت محاولاتي للتخلص من ذلك هو تطبيق النموذج البيروقراطي والروتيني القاتل الذي يساعد في القضاء على العالم، ذلك النموذج الذي يغلب القيم التقليدية على الفردية ويرسخ للأفكار المسبقة ولا ينظر لأفكار الحاضر.

من اليسير جدًّا القبول بالطلبة الذين يختلفون دائمًا مع مدرسيهم والعمل على تنشئتهم، وحتى الاختلاف مع خططي وبرامجي يجعلهم يفكرون في أنفسهم، أو على الأقل ما أتصور مثلهم أنهم يفكرون لأنفسهم، ولكن إذا كان قبولي وطريقة تنشئتي لهم مجرد أي شيء أكثر من قفاز ناعم فوق قبضة المدرس الحديدية، فيجب أيضًا أن أرحب، كما أنني سأكون شغوفًا لقبولهم، ليس ثمة فرق أو اختلاف أن أتصور نفسي في محاولة تشجيعهم على التنازل عن الطريق الذي يمضون فيه، إن ما أتصوره كاتجاه يرغبون فيه ويحتاجونه للقيام بمواجهته ليست له علاقة بالاتجاه الذي يريدونه فعلًا، إنني في حاجة طوال الوقت أن أختلف مع تلك اليقينية وذلك الغموض وتلك الألغاز.

لكن ذلك لا يعني أنني في حاجة لتركهم يجلسون في مقعدي.

إنه لشيء يدعو للسخرية، حلم المتطرفين بغارات الشرطة في منتصف الليل أو الجلوس لاحتساء القهوة والتحدث بعيون متلألئة عن القمع وعن معسكرات الاعتقال التي تنتظر الفراغ، وطوال الوقت لا تتمالك الآنسة جونز نفسها مع أطفال الفرقة الثالثة، يحب الناس أن يتبادلوا الأحاديث عن التهديد الفاشي أو التهديد الشيوعي، غير أن رؤيتهم للقمع نابعة من الجزء الرومانسي ومن التسامح الذي ينعمون به؛ المذابح، الأسلحة الغارقة في الأناشيد الوطنية، وفي الوقت نفسه يعمل شخص ما على إيقاف شخص آخر ليقول له إن قميصه بدون جيب، كما أن بنك أمريكا في الوقت نفسه يقدم الجوائز للمدارس، الله يعلم باستمرار المذابح لكن البندقية في عالمنا الغربي المتحضر لا تعرف، حين يترك الأطفال فصل الآنسة جونز الدراسي سيلتحقون بالمراحل المدرسية المتقدمة ثم الجامعة، ولن يكون معظمهم في حاجة للذهاب إلى معسكر الاعتقال؛ لأنهم بالفعل موجودون فيه. أتعتقد أنني أبالغ في حالة التوتر؟ ذلك ما يثير مزيدًا من الخوف، لدينا وهم بأننا أحرار، نتعلم في المدرسة أن نكون طيبين.

تسيطر الدولة في المدرسة على عقول الطلبة حتى يفقدوا الإحساس بأجسادهم.

القمع؟ هل تريد رؤية ضحايا القمع؟ تعال وانظر إلى معظم طلبة كلية «سان ديوجو» حيث أعمل، إنهم في انتظار أن تخبرهم بما يجب أن يفعلوه، إنهم لا يعرفون معنى الحرية وكيفية أن يكونوا أحرارًا.

جيري فاربر

الاختيارات

يحب الطلبة نظام الدرجات لأنهم دائمًا يعرفون المكان الذي يقفون عنده، شيء ما لم أستطع أن أحبه أبدًا، خاصة في الجامعة، وهو أنني غالبًا لم أكن أملك أدني فكرة عن الدرجات التي كنت أحصل عليها قبل أن يرسلوها لي بالبريد، وفي أكثر من مرة كنت أقضي نهايات أسبوع قلقة قبل ملء الدماغ بالاختبارات النهائية التي تمكنك من تحديد أي من تلك الاختبارات التي يمكنك الاهتمام بها ووضعها في الاعتبار، ثم الانتظار لمدة أسبوعين لمعرفة مصيري.

(يجب أن أعترف أن تلك الحلقات الدراسية كانت بمثابة ألعاب الماراثون.) جربنا جميعًا الاختبارات حيث كانت غالبية الأسئلة تأتي من المنهج، فما الداعي للدهشة إذن ما دمنا نعتمد نظام الدرجات؟

ذلك لا يعني أننا لا نضطرب من النظام لأننا غالبًا ما نشعر بالاضطراب، إن أحد التغيرات الأولية هو أنني قمت بتحديد عدد الأوراق التي يستطيع الطلبة تقديمها كل أسبوع، كانت نسبة الدرجة في منتصف الربع الأول ٧ تقريبًا، وفي الأسبوع التاسع من الأسابيع الاثني عشر كانت ١,٧، ثم ساد الهلع وراحوا يسلمونني كُومة ضخمة من الأوراق كل أسبوع كي يرفعوا درجاتهم بسرعة، لم تَرُقْني تلك الأوراق بالطبع، ليس فقط لأن الطلبة لم يستفيدوا من الكتابة، ولكن لعدم قدرتهم على تقديم أكثر من فكرتين أو ثلاث في الأسبوع، وما هو أكثر أهمية من كل شيء هو أن الكتابة كانت في معزل عن الحياة، كنت راغبًا في قراءة كتابات عن الحياة وعن عملية الاكتشاف، لكنهم كانوا يفعلون أي شيء للحصول فقط على الدرجات، فأخبرتهم بعدم تقديم أكثر من ثلاث ورقات في الأسبوع، وقوبل اقتراحي هذا بالرضا.

قررنا بعد ذلك أن يستقبل الطلبة درجاتهم عن أشكال التعبير المختلفة، حتى لو كانت الحصة عن الكتابة. صنع لنا الطباخ الكويتي بعض الوجبات التقليدية، وقدم لنا عرضًا مرئيًّا لمنزله، بينما أحضر شخص آخر جهاز الفيديو لنراه وهو يتسلق الصخور، في حين بادرت أخرى بالرقص أمامنا (كانت توجد فتاة نصف عارية بأحد الفصول التي أقوم فيها بالتدريس، لكنها لم تكن هي التي ترقص)، وعلاوة على ذلك أحضر شخص آخر شريطًا صوتيًّا مسجلًا وهو يعزف لحنًا منفردًا على البيانو، وكانت امرأة ما تعزف على الكمان، وقد أحضرت امرأة أخرى — بعد موافقة الفصل — طفليها البالغين عشرة واثني عشر عامًا، وجاء أحد الرجال بالفاكهة معه بعد أن قطفها من بستانه الخاص، وكذلك الخضراوات من حديقته، جاء كثير من الطلبة بالرسومات التي كنت أشجعهم على تقديمها بتعبيرات مختلفة.

أدركنا بسرعة أن الأمر يُعَد ضربًا من الجنون لو أننا فكرنا بأن التعليم برمته يأتي فقط من وضع القلم فوق الورقة، أو حتى من وضع العجينة في الفرن لعمل كعكة لذيذة كي تقدمها لزملائك، ماذا إذن عن الحياة نفسها؟ كيف تتعلم من الحياة؟ إن الطريقة الأمثل التي أعرفها هي عمل الأشياء التي لم أفعلها من قبل، وهكذا قررنا أن يقوم الطلبة في كل مرة بعمل شيء جديد ثم كتابة فقرة عن ذلك الشيء، ذلك هو النجاح الساحق والسريع. اتجه خبراء موسيقى الروك إلى الموسيقى الكلاسيكية واتجه الفرسان إلى مشاهدة الأفلام الأجنبية. شارك رجل الشرطة المحافظ في التصدي لمظاهرات الغضب وأمسكوا برجال العصيان المدني. أصابتني الدهشة من عدد أولئك البالغين سن العشرين والذين لم يتذوقوا الطعام الهندي. حاول أحد الطلبة أن يستدين لطلب شيء مختلف، بينما ظل أحد الزملاء أربعة أيام في انتظار ما سوف يحدث حتى تورمت عيناه قبل نهاية الأيام الأربعة، وبدأ يضحك على أشياء لم يستطع أن يدركها أحد سواه، وربما لم يسمع بها أحد من قبل. قليل من الناس من تواعدوا للمرة الأولى في حياتهم. كان لزامًا عليَّ وضع حد لخمس عشرة درجة لكل شخص بعد أن كتب شخص ما ورقة واحدة وتعرض لتسع وثلاثين تجربة جديدة خلال اثني عشر أسبوعًا أثارت إعجابي بإبداعاتها الرائعة.

كنت ما أزال أعاني من مشكلة فنية بسيطة، في التقليد قوة وشيوع وأداة من أدوات التعلم، حين كنت طفلًا، وأثناء مشاركتي في الدوري، كنت أضع قدمي بعد قدم «جوان ماريشال» وكان زملائي — لسوء الحظ — يضعون أقدامهم بعد قدم «بوب جيبسون»، وفيما بعد كنت أقفز قفزات عالية وأراقب قفزات الآخرين في الواقع وفي السينما، وذلك في محاولة مني لاكتساب المزيد من خبراتهم ووسائلهم الفنية، كنت أفعل الشيء نفسه في

الحياة، وعندما كنت أرى شخصًا ما يتمتع بشخصية تشدني إليها، من حيث كرمها أو ضراوتها أو رقتها، كنت أحاول التحلي بتلك الصفات، ذلك شيء حقيقي في الفن بالطبع، فالرسامون يعرفون ذلك للأبد، وكذلك الموسيقيون، ألم يكن هو «ت. س. إليوت» الذي كتب: «الشعراء قليلو الخبرة والنضج هم الذين يقلدون، أما الناضجون منهم فهم الذين يسرقون.»

عندما كنت أعلم نفسي كيفية الكتابة كنت أكتب صفحات كاملة من بعض الكتب التي أحبها، وكنت أضغط على نفسي كي لا أتسرع، وأحاول تمرير الكلمات من خلال جسدي، ومن عيني إلى عقلي، مرورًا بالدم المتدفق داخلي، ومن خلال أحشائي وقلبي ورئتي، قبل أن يقع اختياري على الفقرة التي يجب أن أكتبها، ثم أنتقل مرة أخرى من خلال عيني وعقلي حتى تصل الفكرة من بصمات أصابعي وتنتقل إلى ذراعي، وهكذا تتجاوز الكلمات الورق وأشعر بها في كل جزء من أجزاء جسدي. تعلمت من ذلك كيف تكون البداية الجيدة والنهاية الجيدة ووصف الشخصيات وتصويرها بشكل جيد، تعلمت أيضًا كيف يحرك الكتَّاب الكبار شخصًا ما داخل الحجرة، وكيف يظهرون الألم ويعبرون عن الحب، وحتى الآن، وقبل أن أبدأ في كتابة قصة أو مقالة، فإنني غالبًا ما أجلس فوق الأرض وأحيط نفسي بخمسة عشر أو عشرين كتابًا وأواصل قراءة الخطوط العريضة لكل كتاب على حدة.

قليلة هي الكتب التي يمكن تجاهلها اليوم، عندما كان أخي «جيم» في الثالثة عشرة من عمره تعرض لكسر كبير في ذراعه عند الكوع، وكان الرد الطبيعي لتجنب الألم هو إبعاده عن الوعي، إنني أتذكر الأسماء التي كنت أطلقها في طفولتي على الحشائش والزهور الغامضة، وأتذكر الأماكن التي يمكن للضفادع الطينية أن تعيش فيها، وتلك الأوقات التي تستيقظ فيها الطيور في فصل الصيف. كما أنني لا أنسى رائحة الأشجار والمواسم وأتذكر جيدًا ما كان يبدو عليه الناس، وكيف كانوا يسيرون، وحتى الطريقة التي كانوا يشمون بها.

كنت في الثانية عشرة وعلى وشك بلوغ الثالثة عشرة عندما رأيت للمرة الأولى جثة رجل ميت، حدث في العام ١٩٦٠م منذ زمن بعيد، رغم أنني أحيانًا لا أرى أنه زمن بعيد، خاصة في الليالي التي أصحو فيها من أحلامي.

إن التطور الإنساني قد يتبعه أحد طريقين: طريق الحب أو طريق القوة، إن الحضارة تبدأ بالخضوع للعالم والقمع في المنزل، إنني أسمح لجوهر وبنية هذه السطور أن تنفذ إلى أعماقي وتتخلل كل أجزاء جسدي كي تنتقل مني إلى كتاباتي.

تمنيت أن يحدث الشيء نفسه لطلبتي، وبذلك تنحصر المشكلة في كيفية حثهم على القراءة، فحاولت في البداية أن أطلب منهم قراءة أربعين صفحة فقط في الأسبوع عن أي شيء يريدون قراءته، وأخبرتهم أنه من الأفضل أن يغيروا من نوعية ما يقرءون، كما يفعلون مع طعامهم ووسائل الترفيه التي يحبونها، لكنه لم يمض وقت طويل حتى بدا واضحًا أن غالبيتهم لم يقرأ شيئًا على الإطلاق، وبدوري لم أتوجه باللوم لهم.

نملك جميعًا القدرة على الاختيار، في كل لحظة من كل يوم وحتى الآن فإنني أستطيع كتابة هذه الجملة، أو إنني أستطيع كتابة جملة مختلفة، إنني أستطيع إطفاء النور والتوجه للنوم، كما يمكنني ممارسة أحد الألعاب على الكمبيوتر، أو تدليل ومعانقة الكلاب والقطط، وأستطيع الاتصال بأحد الأصدقاء، أو ركوب سيارتي والتوجه إلى أقرب سد أو خزان، ويمكنني أن أهاجم أسماك السالمون بالمجرفة والمعول، كما يمكنني محاولة السباحة إلى سيبيريا رغم أن تلك المحاولة ستنتهي غالبًا بموتي.

إن كل مدرس يصنع اختياراته، كل لحظة من كل يوم، إنها تختار ما تقوم بتدريسه، كما تختار الطريقة التي تقوم فيها بالتدريس واختيار مادة التدريس نفسها، وذلك لأنها ببساطة تتبع نوع وظيفتها وتتبع التقاليد وما يمكن أن يطلبه منها رئيسها لكي تقوم بتنفيذه، غير أن ذلك لا يعني أنها لا تصنع اختياراتها. إن الاختيارات التي لا تأتي منك مباشرة يمكن اعتبارها — مع ذلك — اختيارات.

كل طالب يصنع اختياراته أيضًا في كل لحظة من كل يوم، إنه يختار ما يتعلمه، وكيف يتعلمه، وما إذا كان يريد التعلم أم لا، وذلك ببساطة لأنه يتبع نوعية المطلوب منه، ويتبع التقاليد، وما يمكن أن يطلبه منه أو يتوقعه والداه أو أستاذه أو أصدقاؤه، وذلك كله لا يعني أنه لا يصنع اختياراته.

إن كل موظف بيروقراطي يساهم في جعل القطارات تتوجه برفق نحو معسكرات الموت إنما هو يصنع اختياراته، وكل جندي أمريكي أو غير أمريكي يعمل على إسقاط القنابل فوق أهداف مدنية فإنما أيضًا يصنع اختياراته، وكل رجل يعمل بالسياسة أو الشئون العامة ويخبرهم بإلقاء تلك القنابل فإنه كذلك يصنع اختياراته، كما أن كل شخص يعمل في صناعة تلك القنابل ويصنع الألومنيوم أو الوقود للطائرات التي تحمل تلك القنابل يصنع أيضًا اختياراته كل ثانية.

اليوم فقط بعد كتابة هذه الفقرة تلقيت رسالة عبر البريد تخبرني بضرورة أن أراجع الضرائب عن العام السابق، ربما كنت مدينًا للضرائب وأنا لا أعرف، وهكذا فإنني الآن

أملك الاختيار، أستطيع أن أدفع الضرائب وبذلك أسهم في دعم الجريمة وفي الاستغلال الاقتصادي للبشر ولغير البشر، وأستطيع ألا أدفع وأرى ما يمكن أن يحدث، وذلك ببساطة أيضًا لأن معاقبتنا على قيامنا باختيارات معينة لا يعني أننا لم نقم بتلك الاختيارات، في الحقيقة إن الطريقة المركزية التي تتوجه إليها ثقافتنا قدمًا هي صناعة الاختيارات التدميرية، والتي تبدو أنها أفضل اختيار في حينها.

كل شخص يافع وكل طفل يصنع اختياراته، وكل فرد يسبب الأذى لرفيقه إنما يصنع اختياراته، وتلك الطريقة التي يفهم بها الناس العالم، والتي قد تكون متأثرة بتعرضهم لعنف سابق، لا تغير من حقيقة أنهم يصنعون اختياراتهم، إن الوجود الكلي المنتشر لذلك الرعب المتمثل في نسبة الـ ٢٥٪ من النساء المغتصبات في ثقافتنا، و١٩٪ من اللواتي نجون من محاولات الاغتصاب، و٥٦٥٠٠٠ طفل أمريكي تم قتلهم أو إصابتهم بجروح وعاهات من قبل والديهم، أو من قبل الرهبان أو الأوصياء عليهم، كل ذلك يشير إلى أن كثيرًا من الناس يصنعون اختياراتهم، مما يعني أن شروط الإطار الاجتماعي تتسبب في إدراك كثير من الناس لاختياراتهم التي يرونها قابلة للتطبيق والعمل بها كأسلوب حياة، كما يرونها الأفضل وربما الأمثل.

الكل يصنع اختياراته، كل مهندس يقوم بتصميم السدود أو يساعد في حفر آبار البترول إنما هو يصنع اختياره، كل مهندس يعمل في مجال الوراثة هو أيضًا يصنع اختياره، وحين يقوم نظامنا الاقتصادي بتقديم الجوائز لتلك الاختيارات فإنه لا يقلل من قيمة تلك الاختيارات ولا يتبرأ من أولئك الذين قاموا بتلك الاختيارات.

إن كل شخص يبيع حياته بالعمل في وظيفة لا يحبها فإنه يفعل ذلك باختياره، ومهما كان النظام الاقتصادي هو الذي يجبره أحيانًا على القبول بتلك الوظيفة فذلك لا يعني عدم اختياره.

نحن نصنع اختياراتنا حسب رؤيتنا للعالم، فإذا ما رأيت العالم بطريقة خاصة فإن بمقدورك عندئذٍ أن ترى مبررًا لقبولك بالعمل في وظيفة لا تحبها، وإلا فلن تجد من يقوم بتلك الوظيفة، وبالمنطق نفسه تستطيع أن تنظر من خلال عدسات تساعدك في رؤية الأشياء بشكل معقول، كذلك توجد طرق عديدة لتقبل مساوئ الأطفال ومفاسد المغتصبين، وهناك كثير من الأسباب التي تجعل الناس يقبلون على اختياراتهم، من الممكن رؤية العالم الذي قبلت العيش فيه وهو يقذف بالقنابل فوق الناس من ارتفاع ٣٠٠٠٠ قدم، كما أنه بمقدورك إدراك القيمة التي يدفعها العالم ثمنًا لتلك القنابل، ومن السهل

إدراك وسائل الخنق بالغاز وغيرها من الوسائل الإجرامية داخل معسكرات الاعتقال، من الممكن أن تدرك أنت والآخرون الكيفية التي يبررون بها لأنفسهم تدمير الكوكب من أجل جمع المال والحصول على مزيد من النفوذ والقوة، ومن أجل تقوية النظام الاقتصادي، لا شيء من ذلك كله يمكننا اعتباره اختيارًا حكيمًا، وإنما يمكن القول بأنه مجرد اختيار، إن ادعاءاتنا غير المبررة هي التي تحدد الإطارات التي نبني عليها اختياراتنا، وإذا رغبنا في صنع اختيارات مختلفة يجب علينا تحطيم تلك الإطارات التي تقيدنا والتي يفرضونها علينا، إذا كان لدينا اهتمام بحياتنا وحياة الكوكب الذي نعيش فيه فإنه يجب علينا أن نبدأ بضرورة وأهمية التفكير النقدي، ولنتعلم كيفية التفكير في أنفسنا.

لحظات «فورتينو سامانو» قبل إعدامه عام ١٩١٦م، «فورتينو سامانو» ذلك القائد المتمرد أثناء الثورة المكسيكية، والذي قتلته القوات الفيدرالية عام ١٩١٦م، أصبح شخصًا شهيرًا لأنه وقف أمام قاتليه وتصدى لهم ثم أمرهم بإطلاق النار، كان يتمتع بهدوء شديد، حتى إنه كان يدخن السيجار بثقة وثبات، كان الرجل يقف في مواجهة الحائط واضعًا كلتا يديه في جيوبه ويضع قدمه اليمنى فوق حجر، بينما كانت ركبته اليمنى تنحني قليلًا، أما وجهه فلم يكن يدل على أي نوع من الخوف وإنما بعض التحدي، كانت شفتاه مشققتين وتكشفان عن أسنان مشدودة فوق السيجار.

عرضت صورة «فورتينو سامانو» على طلبتي وقرأت لهم العنوان، كان الأسبوع الرابع حين أصبحوا يكتبون قصصهم الخاصة بشكل أفضل، وكان الوقت مناسبًا لهم للبدء في محاولة رؤية العالم من منظور آخر وبطريقة مختلفة.

قلت لهم: أريدكم أن تكتبوا عن هذه الصورة من وجهة نظر شخص آخر، ولا يهمني من يكون ذلك الشخص، تستطيعون أن تتقمصوا شخصية «فورتينو سامانو»، ويمكنكم أن تصيروا طائرًا يحط فوق الحائط الواقع خلفه، ويمكنكم أن تكونوا أعضاء في الفرقة المكلفة بإطلاق النيران، وتستطيعون أن تكونوا المصور الذي التقط تلك الصورة، أو الكاميرا نفسها، أو أي شخص قروي يشاهد عملية تنفيذ الإعدام، قد تكونون كلبًا في الطريق، وذلك أيضًا لا يعنيني، أما ما يهمني فعلًا فهو كيفية أن تتحلوا بالأمانة والدقة في نقل ما تشاهدون، وعليكم أن تتقمصوا الشخصية التي تكتبون عنها، لا تكتبوا عن شخص ما وإنما اكتبوا كأنكم شخص ما. هل من أسئلة؟

عرضت عليهم الصورة مرة أخرى وأنا أتجول حاملًا إياها في أرجاء الفصل، وقرأت عليهم مرارًا عنوان الصورة، فراحوا يفكرون ثم بدءوا يحدِّقون، وأغلق البعض أعينهم، ثم

وقف بعضهم بعد تشجيعي لهم ومضوا نحو الحائط، ووضع أحدهم قلمًا من الرَّصاص في فمه، بينما قام آخر بوضع قلم من الحبر، ووضع ثالث سيجارة في فمه، وحاولوا جميعًا أن يضعوا أنفسهم مكان «فورتينو سامانو» في محاولة منهم لمعرفة ما سوف تخبرهم به أجسادهم لينقلوه كتابة على الورق، وراح آخرون يقفون وكأنهم أعضاء في الفرقة المكلفة بإطلاق النار، في الوقت نفسه الذي كان البعض الآخر ما يزال جالسًا ومواصلًا التحديق، وعندئذٍ بدءوا في الكتابة.

واجه البعض وقتًا عصيبًا أثناء الكتابة، فراحوا يعبِّرون وكأنهم يلقون خُطبًا مستخدمين لغة لا تتناسب بما يكفي مع ظروف الحدث ولم يتركوا لأنفسهم فرصة الإحساس بما تشعر به الشخصية المحورية، وراحوا بدلًا من ذلك يصفون المشاعر والأحاسيس من مسافة بعيدة دون الدخول في أعماق الشخصية، ولم ينجحوا في الغوص في العالم المحيط بالحدث.

كتب البعض الآخر نوعًا من الكتابة جعلني أبكي على الملأ داخل الفصل. أما الشاب الإسباني فقد كتب بشكل جميل: «دعنا لا نبدد مزيدًا من الوقت فلدي قطار يجب أن ألحق به، إذا أخذني إلى الجنة فسوف أنعم برؤية عائلتي وأصدقائي، أما إذا وصل بي إلى المكان الآخر فسوف أجد كثيرًا من الأصدقاء أيضًا.»

كتبت امرأة ما أيضًا عن «فورتينو سامانو» ووصفته وهو يركز على يده الموضوعة في جيبه ويدعك إبهامه في سبابته، لم يستطع إصدار الأمر بإطلاق النار حتى تذكر أذن كلبه حين كان طفلًا، وذلك الطالب المكسيكي.

عرضت عليهم صورة أخرى لبعض المواطنين الروس وهم يفحصون حوالي ١٧٦٠٠٠ من جثث المواطنين الذين ذبحهم النازيون في مدينة «كيرش»، فكتبوا قصصًا جيدة أيضًا، وتقمص الكثير منهم شخصية امرأة وهي تتعرف على وجه ابنها، بينما عبر البعض الآخر بطريقة توحي وكأن الابن الميت يعيد الطمأنينة إلى أمه، وكتب آخر عن شعاع ضوء الشمس الرمادي وهو ينعكس فوق الطين بينما يملأ الدم البركة الصغيرة.

سأل أحد الطلبة قائلًا: هل لديك ما تقوله عن الموت؟

– لا أعتقد أن لدي ما أقوله عن الموت ولكن لماذا تسأل؟

توقفت لحظة ثم استطردت: لا، إنني أمزح.

فكرت برهة قليلة ثم قلت: إن الكتابة في الحقيقة تعبر عن لحظات التحول؛ الانتقال من الحياة إلى الموت؛ التغيرات التي تطرأ على العلاقات بين الناس، والتغيرات التي تحدث في طريقة الفهم، إن التحولات والتغيرات الكبيرة هي المادة التي تصنع كتابات عظيمة.

– وإذن فلماذا لم تعرض علينا شخصًا ما وهو يتخرج؟

– أولًا لأنني لا أعتقد أن ذلك يُعَد تحولًا كبيرًا كما أتصور، إن التحولات الكبيرة تجعل الكتابة أكثر يسرًا من التحولات الأقل دراماتيكية، ولكنْ هناك شيء آخر أيضًا وهو أنني أعتقد أن ثقافتنا مرتبطة بالموت الذي نتصرف وكأنه ليس جزءًا من حياتنا اليومية، إننا نخاف من الموت ونتنكر له ونتصور بأنه لن يحدث لنا، ثم نعيش حياتنا وكأن الموت يحدث فقط للآخرين ولأشخاص لا نعرفهم، ونحيا وكأن الغد قادم دائمًا، ونهيئ أنفسنا للتأقلم مع أشياء تافهة ومقززة لم نعتد عليها أبدًا من قبل، ونتجاهل حقيقة الموت الذي يمكن حدوثه في أي لحظة، في الوقت نفسه فإننا لا نقف كثيرًا أمام الموت ولا نقدم له الاحترام الذي يستحقه. فحين نفكر بما يحدث في الأفلام السينمائية نجد أن الناس يموتون ويُقتلون طوال الوقت، ونادرًا ما يضعون القيمة الشخصية في الاعتبار. وهنا أتذكر مشهدًا في أحد الأفلام التي يموت أو يستسلم فيها البطل بعد نضال مرير، عندما كان «ميل جيبسون» مع امرأة وطفل وتوقفوا أمام طريق القطار، حين كان بعض الأولاد السيئين يوبخونهم وهم واقفون وراءهم، وانتهى الأمر بأن حطم القطار الأولاد، ومن خلال المشهد كله ظللت أفكر قائلًا لنفسي: ذلك الطفل سيعاني من الكوابيس طيلة حياته وسيتعرض للعلاج النفسي لمدة سنوات غير قليلة، لا يهم المرأة ولا يهم عائلات الأطفال، ومن المؤكد أنه لا يهم شخصية «ميل جيبسون» الذي هو في الحقيقة يلعب دور البطل في كل أفلامه السينمائية.

قال الطالب: أتريد لنا أن نفكر في الموت بطرق مختلفة؟

قلت: أنا لا يهمني الطريقة التي تفكر فيها بالموت، وإنما أريد القول بأن الموت يحوم في كل مكان، ويتجول في كل الأركان، وأعتقد أنه شيء يستحق التفكير.

المعنى والدلالة

«إن الإنسان الذي لا يستطيع أن يفكر لنفسه، ويخضع لأفكار الآخرين، يظل عبدًا لأفكارهم. من الواضح أن الهدف من تعلم التفكير يُعَد أكثر صعوبة من هدف تعليم كيفية التعلم، لكن الصعوبة التي نضيفها دائمًا إلى أعبائنا ليست ببساطة كافية لتجعلنا قادرين على ابتكار موضوع هو ملك لشخص آخر. ستشعر أي كلية جامعية بالفخر والزهو إذا استطاع طلبتها القيام بعمل موسوعي. أن تكون إنسانًا كاملًا فإن ذلك يعني من ناحية أن تفكر في أفكار شخص آخر وأن تصل إلى النقطة التي تعرف فيها الاختلاف بين الأفكار.»

واين بووت

* * *

أحضرت معي اليوم إلى الفصل كيسًا من الورق وبداخله صورة، وكرة صغيرة، وبعض مسامير، وواحدة من فاكهة الموز، وضعتهم في مواجهتي تمامًا فوق المكتب، ورحت أعرض على الطلبة في الفصل كل واحدة على حدة، ثم أعطيت الكرة الصغيرة إلى الطالب الجالس على يميني فراح يتطلع إليها وقام بتدويرها على شكل دائرة. وبعد ذلك فعلت الشيء نفسه مع المسامير، لكنني تركت الموزة فوق المكتب، ثم وقفت وأمسكت بالصورة ورحت أمشي داخل الدائرة وأنا أعرض عليهم الصورة وسألتهم: ما هذا؟

حاولوا خنق ضحكاتهم، فقلت: يمكنكم معرفة هذا الشيء.

– إنه عنقود يرتدي بدلة من قماش البوليستير.

وقال آخر: انظر إلى شعرهم، إنه يتسم بالوحشية، إنهم يبدون مثل المهرجين.

قلت: إنهم أصدقائي.

قال آخر بسرعة: هل أصدقاؤك من عائلة الحجلة؟

قال آخر: كان أصدقاؤك في السيرك.

قلت لهم: إن بمقدورهم الضحك كما يشاءون؛ لأنني أتحكم في درجاتهم وأنني مصمم على استقبال آخر الضحكات.

سأل أحدهم: لكنك لا تفعل؟

أوه، اللعنة، إذن توقفوا عن الضحك في هذه الحالة.

لكنهم لم يفعلوا، فقلت: لا، إنهم ليسوا من أبناء المدن في القرن السابع عشر، إنه صيفي السابع عشر، صيف عام ١٩٧٨م، إنه نوع من أنواع السحر والسباحة أو الكرة الناعمة أو أول قبلة …

قاطعني أحد الطلبة وقال متسائلًا: من المحظوظ من أولئك الأولاد؟

تساءلت أيضًا: ما هذا؟

ثم أشرت إلى الكرة الصغيرة وهي تتدحرج في كل أرجاء الفصل.

إن رجل الشرطة الذي لا ينفذ الأوامر المدنية ينزلق بدون تفكير إلى ما يقوله «جاك ويب»: إن القطر الصغير للمسدس يحتوي بداخله على نوع من الحياة، كما يحدث مع أي تشويه يمكنكم القيام به، أو كما يحدث بتلطيخ الأواني الخزفية الجميلة.

قلت لهم: قوموا بالتصحيح، لكنني في النهاية توقفت وطلبت منهم ألا يفعلوا.

تدلت حواجب أعينهم عبر حجرة الفصل، وساد كثير من الوجوم، فلم يكونوا يدركون ما أتحدث عنه.

كانت عطلة نهاية الأسبوع عندما كنت في السادسة أو السابعة من عمري، وذات يوم حارٍّ كان أخي الأكبر مستلقيًا فوق السرير بعد الظهر وهو يطالع كتابًا، بينما كنت أنا جالسًا إلى جواره في السرير المقابل، ولا أعرف لماذا كان يمتلك بعض الكرات الصغيرة، لكنني كنت أعي قليلًا لماذا وضعْتُ واحدة منها في فمي، وأتذكر أنني قمت بابتلاعها.

ارتفعت حواجبهم واتسعت عيونهم ثم سأل أحدهم: وماذا فعلت؟

قلت: قضيت إجازة نهاية الأسبوع كلها في السرير، كنت طفلًا ناضجًا وكنت شقيًّا وأمتلك كثيرًا من الطاقة، ودائمًا ما كنت أوقع الأذى بإخوتي وأقربائي، وحيثما كان أخي الذي كان يكبرني بعشرة أعوام تقريبًا يأتي إلى المنزل بصحبة إحدى الفتيات لمقابلة العائلة، كنت أتدخل بكثير من الأسئلة وبأعلى صوت قائلًا مثلًا: هل ستقوم بتقبيلها يا «ريك»؟ هل ستقبلها الآن؟

كان يستغرق وقتًا حتى يتمكن من الإجابة على أسئلتي، فقال لها: «ساندي»، هذا أخي الأصغر، إنه كذلك منذ ولادته.

اعتاد بعد ذلك أن يأتي مع الفتاة حين يكون والدي وأقربائي بالخارج، وأكون أنا في منزل الجيران، وحين كنت أعود للمنزل لإحضار شيء ما كنت أسمعهم فأسارع بالزحف خلف السرير، وذات مرة قفزت من رقدتي وقلت: هاي «ريك» هل أنت سعيد برؤيتي؟

قال أحد الطلبة متسائلًا: وماذا فعلت عندئذٍ؟

أجبت: ماذا تعتقد بأنني فعلت؟ لقد هربت طبعًا إنقاذًا لحياتي.

سأل طالب آخر: لو أنني أنا لكنت قتلتك.

قلت: حسنًا، هذا يعيدنا مرة أخرى إلى الرصاصة، وإلى السبب الذي قضيت من أجله إجازة نهاية الأسبوع في السرير، وبطريقة ما خطرت ببالي فكرة لو أنني تحركت بسرعة لأصابني الانفجار، إن أحدًا من أقربائي ولا حتى إخوتي قد أخبرني بتلك الفكرة، وعلى أية حال فإن كل أفراد الأسرة كانوا سعداء لقضاء إجازة هادئة.

ابتسموا وضحكوا، ثم ساد وقت قليل من الهدوء استطعت خلاله رؤية عقولهم وهي تتساءل وتقلب الأفكار، ثمة أشياء لم يفهموها، وفي النهاية سأل أحدهم: كيف، كيف انتهى بك الأمر مع الرصاصة؟

أوه، الطريقة العادية.

نظروا إلى أياديهم، فقلت: كنت أشعر بقلق شديد تحسبًا من توبيخ أمي الذي تفعله معي في كل مرة، وأخيرًا وجدته ثم أخرجته من أجلي.

توقفت ثم قلت: والآن، ما تلك الأشياء؟

بدءوا يفهمون وعرفوا بأنني كنت في سباق، وقال أحدهم: هذه أفضل قفزة لك طوال حياتك.

وقال آخر: كان يومًا حارًّا وكنت تتحرك بصعوبة لأنها كانت مقابلة الموسم الأخيرة.

إنها الفراشات داخل معدتك.

وأضاف آخر: لا عليك بالفراشات، انس أمر الفراشات، هل رأيت طوال حياتك امرأة في القفز العالي؟ إنهن الأفضل.

قلت له بأنني كنت في كلية يشكل الذكور فيها نسبة ٨٣٪.

ضحك وقال: لذلك خرجت من أجل السباق ...

قلت مقاطعًا إياه: شيء رائع، ذلك كل شيء من تلك الأشياء فيما عدا النساء، أنا لم أتواعد أبدًا مع لاعبات القفز، رغم علمي بأنهن يظهرن في شكل بديع بين كل الفرق في السباق، وطبعًا يمكننا قول الشيء نفسه على الذكور، على الأقل في مثل حالتي.

ضحكوا وتألمت أنا.

أضفت: شيء آخر أيضًا، إنه الأفضل، حين كنت طفلًا ومراهقًا كنت غالبًا ما أقلل من إنجازاتي، وكنت أشعر بأنني محظوظ، أو أن نجاحي نتيجة لأسباب خارجية، كان خصومي في كرة السلة في إجازة، وهكذا كنت دائمًا أبحث عن باعث خفي عندما يقوم الناس بالثناء عليَّ. والآن نستطيع أن نتحدث في كل ما نرغب إذا لم تكن الفعالية العاطفية والصحية الخارجية لشخص ما غير ضرورية. إن قيامك بأفضل ما تستطيع يُفترض أن يكون كافيًا، لكنني أعرف ما أشعر بحاجتي إليه، وأعرف تأثير تلك الفعالية عندما أحصل عليها، ذلك هو معنى حلقة السباق بالنسبة لي، كنت الأفضل ولم أستطع التقليل من إنجازاتي، كان الحاجز منتصبًا فلم أستطع التصرف حياله، لذلك يمكنني إخباركم بقصة عنه عن مكان التنافس، فإذا ذهبتم معي يمكنكم عندئذٍ أن تشعروا بالحرارة القادمة منه، وستتنسمون حفرة القفز العالية، وتسمعون بداية إطلاق النيران وصوت العاملين وهم يصيحون بكلمة البداية وقعقعة العمود عندما يصطدم به أحد المتنافسين، غير أن كل ذلك هو الخطوة الأولى فقط، يتوجب عليَّ أن أضيف للقصة ميزة خاصة وهدفًا ما، يجب أن تكون القصة ذات دلالة ومعنًى.

لقد قمتم بعمل رائع حقًّا حين جعلتم القارئ يبحر معكم في مقالاتكم وقصصكم، وأنا أتفق معكم في كل خطوة، وأنتم الآن مستعدون للخطوة التالية، والتي من خلالها تقدمون للقراء سببًا يجعلهم ينتبهون، إنني متأكد بأنكم على اتصال بالناس الذين يقدمون لكم كل تفاصيل حياتهم اليومية، أو تلك التي حدثت منذ عشر سنوات، وأنتم لا تعرفون لماذا هم يواصلون ويستمرون في الحياة، وتريدون أن تصرخوا قائلين: أين المعنى والدلالة؟

أنتم تريدون منهم أن يزودوكم بالمحتوى العاطفي وبالثراء المثير للعاطفة، الشيء نفسه يجب أن يحدث عندما تكتبون قصة ما، فأنتم لا تريدون المضي بالقارئ قدمًا وفقط، كما أفعل أنا معكم حين أعرض عليكم حذاء السباق، لكنكم تريدون لهم أن يعرفوا الدلالة والمعنى الذي تريدونه أنتم، وعليكم أيضًا أن تصلوا بهم إلى أن ذلك يعني شيئًا بالنسبة لهم.

التزَموا الصمت، فاعتقدت بأنهم فهموا ما أعنيه، ثم قال شخص ما بعد لحظة: وإلى أي شيء ترمز قطعة الموز؟

قلت: إنها وجبة غذائي.

ثمة شيء آخر أرغب في قوله عن الإطراء والثناء في الفصل، وهو ليس بالشيء المهم بالنسبة لي أن الإطراء والثناء الذي أقدمه دائمًا يجب أن يكون حقيقيًّا، ولكنه أيضًا مهم؛ لأنه غير مشروط، وليس من الجدير القول بأنه إطراء نوعي، يجب أن يكون كذلك، لكنه لن يساعد الطلبة أبدًا في القيام بالثناء على الكتابات التي أحببتها، إن كل الأبحاث والكتابات التي قرأتها توحي بأن الثناء المشروط يقف حائلًا ضد الإبداع، إنه يجعل القارئ غير قادر على التفاعل مع الكاتب الذي ينشغل في تلك الحالة بالإطراء والثناء بدلًا من استغراقه في التأمل.

وجدت في كل ورقة شيئًا ما يمكن الإشادة به، نعم فأنا ما زلت أدفع بأفكاري المثالية عن الكتابة الجيدة وأركز عليها بين ثنايا الأوراق والكتابات التي أحبها أكثر من غيرها.

غالبًا ما يكتب الطلبة إبداعات عن السياسة أو كتابات تحمل في طياتها بعض القضايا السياسية، لكنني لا أهتم بذلك كثيرًا، إنني أقوم بالثناء على تلك الأعمال إذا راقت لي فقط، لقد أمضى أحد طلبتي فصلًا كاملًا من فصول السنة الأربعة وهو يكتب مديحًا في «رونالد ريجان»، وقد قدمت له يد العون وطلبت منه أن يقوم بتحسين منطقه وخطابه الذي كان يتحدث عن حالة القبول في الفصل الجديرة بالاحترام والمليئة بالحياة، وعن تلك المناقشات السياسية مع امرأة في الفصل كانت قد أقامت حفلًا لكي تحتفل بإطلاق النار على «ريجان».

وبالمثل، وعلى الرغم من أنني لا أحب تناول المشروبات الكحولية، فإن طالبًا يعمل بتجارة النبيذ حين انتهى من الكتابة لم أستطع أن أجد شيئًا يحمل قيمة إبداعية، ولم تتجاوز كتاباته بعض الإعلانات عن النبيذ، وشعرت بالسرور عندما نحيت قناعاتي جانبًا وتخليت عن رؤيتي قليلًا وقمت بمساعدته بالطريقة التي يجب مساعدته بها، وكانت سعادتي أكبر حين تمكن من تحسين مستواه وكتب بشكل أفضل.

لم أتظاهر أبدًا بأنني لم أكن أملك أن أقوم بالتمييز والتفضيل وحق الاختيار، أو أنني لم أكن أملك رؤية سياسية، وكنت أشير إلى طلبتي بأنني لا أتأثر باتفاقهم معي في الرأي أو قبولهم كل ما أقول.

ما زلت أتذكر إحدى الأوراق التي كانت أكثر صعوبة من الأوراق الأخرى، كانت الورقة لرجل التحق حديثًا بحفلة البكالوريوس، لقد قام بوصف اثنتين شبه عاريتين وهما يرقصان وسط حلقة دائرية تضم جماعة من الأصدقاء، كانت واحدة منهما ترقص بجوار العريس الجالس فوق المقعد، فقام بِعَضِّها في فخذها بقوة حتى تألمت وتوقفت عن الرقص ثم غادرت الحجرة، وعندما عادت راحت ترقص مع المرأة الأخرى بمفردهما، وراحتا تتظاهران بحركات تثير الرغبات الجنسية. كتب الطالب أن الراقصتين قد نجحتا في إثارته وفتنته، وأن ذلك المشهد كان من أكثر المشاهد انحرافًا التي شاهدها في حياته،

وقال: أنا لا أفهم لماذا يقومان بالرقص معًا ويعملان على إثارة الأحاسيس الجنسية، بينما يمكنهما القيام بذلك مع أي واحد منا؟ لا بد أنهما شاذتان!

عندما انتهيت من القراءة كنت غاضبًا بشدة من ذلك الرجل وتلك الثقافة التي تخلد هذه المواقف والممارسات التي كنت أهتز لها، أردت أن أوقظه، كانت ثمة ظروف في مثل تلك الاستجابة قد تكون مناسبة، لكن إدراكي لاختلاف القوة بين المدرس والطالب جعلني أتوقف، فأنا لا أنسى أبدًا ذلك الأستاذ في الكلية الذي قال لي في الفصل بأنني شخص ماكر ومراوغ وغبي ولا يهمه أي شيء، وكذلك لا أستطيع أن أنسى شعوري الناتج عن تلك الكلمات، إن المدرسين يملكون سطوة لا يجدون عائقًا في فرضها على الطلبة، وغالبًا ما يعقب تلك السطوة الإحساس بالمسئولية في استخدامها بشكلٍ مناسب ولائق، شعرت بسعادة بالغة حين قرأت تلك الورقة في البيت؛ لأنها استغرقت مني طوال اليوم أو معظمه في التفكير في كيفية الاستجابة المناسبة وفي البحث عن الشكل اللائق لرد الفعل، فجَّرت الورقة كثيرًا من الموضوعات المثيرة، ورحت أتساءل بشكل خاص عن الانحراف، وقلت لنفسي بأن المرأتين ارتضتا القيام بتلك الرقصات، وكذلك قَبِلَ الرجال في الحجرة مشاهدة المرأتين، ومن الواضح أن شخصًا ما كان يعتقد بأن له الحق في عضهما، لماذا إذن تتسم المرأتان بالانحراف؟ إنني أتساءل أيضًا عن موضع كلمة الاحترام في مثل ذلك المشهد، وما العلاقة بين الاحترام والجنس؟ وأين يكمن الاحترام في العلاقة الجسدية بين رجل وامرأة؟

أريد القول بأنني استطعت تغيير مواقف ذلك الرجل تجاه النساء، ونجحت في تغيير علاقاته المستقبلية وحياته، لكنني لم أكن أملك أي فكرة عن كيفية قدرتي على الاستجابة لما فعلت، إنه لم ولن يعيد كتابة مثل تلك الورقة مرة أخرى، كما أننا معًا لن نناقشها.

كنت أيضًا أفكر بعناية في كيفية الإطراء والمديح التي يتوجب عليَّ تقديمهما للطلبة، ولأنني أعرف كيف يكون شعور الطالب وكيف يكون إحساسه بآدميته، كانت عملية الإطراء، وبخاصة أمام الجمع، محل تساؤل، وأتذكر في الوقت نفسه كيف يكون الإحساس سيئًا عندما لا يشعر الآخرون بنوع من المديح والإطراء، أتذكر تلك الإثارة التي شعرت بها عندما كانت المدَرِّسة تقرأ شيئًا كنت قد كتبته في مواجهة الفصل، وذلك الارتباك الذي أصابني وهي تقرأ من خلال كُومة كبيرة من الأوراق حتى قاربت على الانتهاء دون أن تقرأ ورقتي. في بداية الربع الأول من كل عام كنت أقول لطلبتي بأنني في الوقت المناسب سأقرأ مقتطفات من كتابات كل شخص.

كان ذلك لخلق جو يستطيع فيه الطلبة أن يشعروا بما يكفي من الراحة مما يساعدهم في البدء باكتشاف محتويات جلودهم ونوع بشرتهم، وبينما كان طلبتي يواصلون تطورهم

ككتَّاب ومفكرين وآدميين ظللت أفكر بأن ذلك العمل سهل فعلًا، وكيف أن طلبتي قد قبلوا ذلك طواعية، وكانوا يحبون ما هم عليه، ويقبلون سنوات عمرهم التي تنحصر في عمر المراهقة، ويشعرون بقرب المسافة بينهم وبين آبائهم وأساتذتهم وبين العاملين في المدرسة وزملائهم في الكنيسة، لقد شعرت بأنني قمت بعمل جيد.

إنني مدرك تمام الإدراك بأن جنسي الذكوري يمنحني ميزة كبيرة للقيام بعملية التدريس، وبالطريقة التي أعمل بها، وكذلك أنا أعي تمامًا بأن كوني من الذكور يمنحني أيضًا ميزات تقريبًا في مناحي الحياة، ساعدني لون بشرتي الأبيض أيضًا في الشعور بالتميز، بالإضافة إلى كوني طويل القامة، كل تلك الصفات المتميزة مكتسبة من الثقافة.

ذلك التسليم بالسلطة قد يراه البعض ضعفًا، شيء سيئ حقًّا لأن بعض الناس أو الكثير من الناس يفهمون العالم ويتعاملون معه وكأنه صراع القوة الذي لا ينتهي، والذي هو عالم مخيف جدًّا ولكنه محتمل، سواء من الطالب أو المدرس أو القائم بالأعمال الإدارية أو أي شخص آخر أن يحاول استغلال ذلك الضعف المدرك، وفي العموم فإنه يشكل ألمًا في المؤخرة.

وبالمناسبة عليك أن تلاحظ بأنني لم أقل بأن التمرد على السلطة شيء ضروري ليتكون الألم في المؤخرة، على الرغم من وجود أوقات يكون فيها بالتأكيد شيئًا غير مريح لكل المشاركين، إنني أقول بأن هناك بعض الناس، وأكرر مرة أخرى بأن الكثير منهم، من الذين لا يشعرون بالراحة سواء بموافقتهم أم بدون موافقتهم، وبصراحة أولئك الذين لا يوافقون يكونون في وضع أصعب من حيث التعامل معهم.

ليس حقيقيًّا أنني استسلمت للسلطة على أية حال، وقد يكون أكثر دقة القول بأنني نحيت بعض السلطة جانبًا، لكنني بالتأكيد احتفظت بها قريبًا من متناول اليد، المعادل النفسي لجهاز الإنذار الذي كنت أرتديه في حزامي أثناء فترة السجن، كان نظام الدرجات في الاتجاه الصحيح، لكنني ما زلت أفرضه من الخارج، وما زلت مترددًا، وما زلت مصرًّا على أجندة الفصل رغم أنني لم أستخدمها قط، وما زلت أملك القوة لطرد أي شخص أقوم باختياره لأي سبب أراه.

دعنا نكن صادقين عن الدور الذي أقوم به في الفصل، أستطيع قول كل شيء أريده عن محاولة إدارة الفصل، لكن الحقيقة تتمثل في أن ما أقوله، وغالبًا في أي موضوع، يحمل أبعد من مغزاه في فصلي أكثر مما يمكن أن يقوله أي شخص منفرد، إن المدرس يتحدث وينتبه الطلبة له أكثر من انتباههم لأحد الطلبة من زملائهم إذا قام بدور المتحدث وقال

الكلام نفسه الذي يقوله المدرس أو شيئًا يدحض كلامه، وأتذكر حين حاولت أن أضرب مثالًا تافهًا أن مدرس العلوم في المرحلة السابعة أخبرنا بأنه من الممكن أن تشرب ما يكفي من الماء لتملأ المعدة والمرِيء، ثم تستطيع بعد ذلك السير إلى المغطس وتميل بوجهك للأمام ثم تصب الماء من معدتك إلى الخارج، إذا قال ذلك أحد أصدقائي لما صدقته، ولكن بما أن المدرس هو الذي قال ذلك فقد صدقته في وقتها، وما زلت أتذكر كل ما قاله، يمكن قول الشيء نفسه في كثير من الأشياء العبثية المشابهة التي قالها المدرسون، بما في ذلك كل ما قاموا بتدريسه في الرياضيات والعلوم والتاريخ والاقتصاد وهكذا.

وهل لم أفرض أنا أجندتي الخاصة أيضًا لاختيار الموضوعات التي يمكن التحدث بشأنها في الفصل؟ وهل لم أحدد لهم فرضيات سياسية عندما طلبت منهم الكتابة عن إعدام الثوار؟ وهل لم أحدد حالات مختلفة بعرض صور الباعة في شارع وول ستريت أو قتل المدنيين في الفلبين وكوريا وفيتنام وبنما وجرينادا والصومال والعراق وأفغانستان؟ لا شك أن الصور التي قمت بعرضها هي صور سياسية بامتياز.

التخلي عن السيطرة

«إن السلام أو الطمأنينة والأمن هي أشياء خرافية وليس لها وجود في الطبيعة ولا يتمتع بها الأطفال. إن تجنب الخطر ليس بالشيء الباعث على الأمان على المدى البعيد، وليست الحياة سوى مغامرة جريئة أو لا شيء على الإطلاق!»

هيلين كيلر

* * *

أعتقد بأنني حين سأكون في الثالثة والثمانين بينما أقف وأنظر للوراء لرؤية الحياة التي انقضت وعملت بنجاح على تعرية بنية الحضارة النفسية والمادية، والروابط الإنسانية غير المتأصلة، ومثلها الروابط غير الإنسانية الناتجة عن العبودية، سأقول في ذلك العمر وأكرر القول للأطفال الصغار بأنهم سيعيشون في عالم مليء بأسماك السالمون المتوحشة وكثير من الطيور المغردة المهاجرة والفراشات الكبيرة، وحيث تنمو أسراب الثيران بسرعة كما تنمو كلاب المدن الجرداء، وكما تتضاعف مجتمعات الأراضي المليئة بالأعشاب، والتي تتسم بالتعقيد، بالإضافة إلى المستنقعات والغابات، حيث تنهار الطرق وناطحات السحاب وتنجرف السيارات بعيدًا، ربما سوف نجلس ونتحدث فوق رصيف عائم يحيطه المد والجزر من كل اتجاه، وبطريقة لم أشاهدها من قبل.

سأبدأ بالقول: إنني أتذكر كل شيء وكأنه حدث بالأمس، كنت أقوم بالتدريس لأحد الفصول المسائية في ذلك الوقت، وذات مساء بينما كنت أسير داخل الفصل رأيت ما كتبه شخص ما بحروف كبيرة فوق السبورة في جانب الحجرة: «ضع المقاعد في صفوف منتظمة كما كانت.»

سيقول أحد الأطفال: يا له من شيء سخيف!

تركت الكلمات فوق السبورة وكتبت تحتها بحروف أصغر: من الذي تقدم بهذا الطلب؟ إذا كنت حارسًا وأمينًا على المكان فإنني سأسعد بعمل ذلك، أما إذا لم تكن كذلك فسأعقد معك اتفاقًا يتمثل في أن تضع لنا المقاعد في دائرة ونضعها نحن لك في صفوف.

سيقول طفل آخر: يبدو ذلك اتفاقًا عادلًا بالنسبة لي.

سأضيف أنا عندئذٍ: منذ سنتين كتب الشخص نفسه ملاحظة فوق السبورة يقول فيها بأن وضع المقاعد على شكل دائرة يجعل مساحة الفراغ أصعب، عدنا بعد ذلك بالطبع فوضعنا المقاعد في صفوف، وتم تسريح طاقم البوابين وأصبح العمل من الباطن، لاحظت بعد أشهر قليلة عدم وجود مساحة من الفراغ بعد أن تلاشت تمامًا، وانتشرت لفافات من الحلوى وأعقاب الأقلام الرصاص وقطع من الورق ورقائق من الطين في أرجاء المكان، وكان ذلك بمثابة النهاية لعودة المقاعد في صفوف. في المساء التالي تم إضافة رسالة أخرى فوق السبورة مكتوبة بحروف كبيرة وواضحة: «لا تكن فجًّا قليل الخبرة وإنما عليك أن تنضج وتسارع بوضع المقاعد في الأماكن المخصصة لها.»

كتبت بدوري وقلت: «أيها الطلبة، يجب ألا تصيروا عبيدًا للصفوف والسلطة والتقاليد، ولكن يجب الانتباه للمشاعر والسعادة النفسية، إذا لم نتعلم شيئًا من فظائع الهولوكوست، ومما حدث في فيتنام، والتدمير المتواصل للكرة الأرضية، علينا أن نخضع لتلك الطاعة العمياء للسلطة أو للتقاليد، وبذلك تكون المشكلة أكبر بكثير من أي تساؤلات قد يطرحها أي شخص، ألا تعتقدون ذلك؟»

وصل الكثير من طلبتي مبكرين في الليلة التالية، وكانوا شغوفين ومتلهفين لقراءة الحلقة القادمة، لكن الأستاذ الغامض لم يُصَب بالإخفاق، وقال: دعكم من ذلك الهراء، نحن هنا في مدرسة وأنا هنا أحاول أن أقوم بتعليم شيء ما.

كتبت بعد ذلك: وأنا أيضًا، ولهذا السبب أنا أفعل ذلك.

ويصبح السؤال عندئذٍ: ما الشيء الذي تقوم بتدريسه؟

تصورت أن يأتي الطلبة طوال اليوم إلى فصولهم لمشاهدة هذا النقاش المتواصل، وتمنيت أن أبث فيهم ولو قليلًا من التمرد، وإلا فسوف يعتقدون بأنني لا أفعل شيئًا، لكنني أعلم بأن كثيرًا من طلبتي يحبون طريقتي، وقد استفادوا كثيرًا من تلك الطريقة.

ربما يسأل أحد الأطفال قائلًا: لماذا تعتقد بأنهم استفادوا كثيرًا؟

سأجيب عندئذٍ: لقد أخبروني.

وسيسأل الطفل: لماذا تهتم بإثارة روح التمرد داخل الطلبة إذا لم تكن ستقابلهم بعد ذلك أبدًا؟

لسببين؛ أولهما: أن الثقافة قضت على الكوكب وسببت الأذى لكثير من البشر، ولا أستطيع إخبارك كم هو جميل أن تشعر باستخدام الزمن الماضي في مثل تلك الحالة. أما السبب الثاني: فهو سبب شخصي أكثر من سابقه وهو أن معظم الناس ليسوا سعداء ولا يتبعون قلوبهم ومشاعرهم، وذلك من ناحية لأن مدارسنا وجامعاتنا ومعاهدنا كلها، إلى جانب نوعية الثقافة المنتشرة، تؤدي بالناس في النهاية إلى البعد عن ذواتهم، وتكرس للطاعة والامتثال، وتعلمهم الخوف من التساؤل. أعلم بأنني حين كنت في المدرسة كنت تلميذًا بائسًا، وكنت أتطلع لوسيلة إنقاذ أو أي علامة إرشادية، ولم أكن مجنونًا حين رغبت في اتباع قلبي وأحاسيسي، بل إنني أستطيع القول بأن الثقافة السائدة هي التي كانت ثقافة مجنونة لأنها منعتني من تحقيق رغبتي. إن رؤية التغير ومعرفته، كذلك الذي كان مكتوبًا فوق السبورة، قد ساعدني حين التحقت بالكلية، وإذا ما استطعت مساعدة أولئك الطلبة في تعليمهم القدرة على التساؤل عن أشياء بسيطة كترتيب المقاعد في صفوف، وتمكنت من مساعدتهم على رؤية شخص يستطيع مواجهة الأفكار بجرأة، والوقوف ضد ذلك النوع من العبث، وضد السلطة التي لا تستخدم العقل، فقد يتبع بعضهم ذلك السلوك حيثما وُجِد، وسيكون ذلك شيئًا جميلًا لأن السؤال حين يبدأ فإنه لا ينتهي.

سوف يتوجه أحد الأطفال بالسؤال قائلًا: لماذا يحاول الوالدان والأساتذة أو أي شخص آخر أن يجبروا الأطفال على فعل أشياء لا يشعرون معها بالسعادة؟

سأقول عندئذٍ: آه، أنت تلعب لعبة الطفل المزعج، أليس كذلك؟

سيضحك الأطفال بعد ذلك، ثم سأقول مستطردًا: في الليلة التالية كانت توجد رسالة أخرى: «لن أبدد مزيدًا من الوقت في النقاش مع الحمقى، وإذا لم تعد المقاعد كما كانت في صفوف حتى الغد صباحًا فسوف أتوجه مباشرة إلى رئيسك.»

قال أحد طلبتي: تلك أعمال قتالية يا ديريك، هل ستقوم باستدعائه؟

طلب مني قليلون منهم ألا أستجيب للأمر برمته لأنهم لا يريدونني أن أدخل في دائرة المتاعب، فأخبرتهم بأنه من المبكر التحدث إلى رئيسي عن شيء آخر، ولمزيد من الدقة عن الصيد مثلًا، قد أذكر حرب السبورة. وسألني رئيسي إذا كنت أرغب في مراجعة جدول الفصل للتأكد من أنني لم أكن أتصرف بطريقة خاطئة فقلت له حينئذٍ بأن الأمر لا يهم.

لم أكن متأكدًا بما يجب أن أفعله، وبدا أن الجدل الذي حدث فوق السبورة كان يتحرك من مجرد مناقشات للأفكار إلى مناقشات عقيمة، وذلك لم يجذب انتباهي على

الإطلاق، وكنت أعتقد بأنني أصل بطريقتي إلى هدفي، غير أن الأمر لم يكن يسيرًا وإنما كان عصيبًا، وعلى أية حال لم أكن قد توقفت عن محاضراتي حتى تلك اللحظة؛ لأنني لم أشأ أن يفكر طلبتي — وبخاصة أولئك الذين يتابعون دروسهم في الخارج بمزيد من الاطلاع — أن تهديده بامتلاك القوة قد يؤثر بشكلٍ من الأشكال، أو يكون على وجه التحديد ملحوظة خاطئة لإنهاء الدرس، فكرت لمدة دقيقتين ثم أدركت وجود طريقة أخرى أو هدف آخر كنت أريد تحقيقه مع طلبتي أثناء المحاضرات.

كتبت قائلًا: إذا غيرت، للحظة، النقاش من الحديث حول القضايا والمسائل المتداولة إلى تلك المناقشات التقليدية المنظمة، فذلك يعني ضعفًا في قدرتي على المناقشة، ويُعَد الوقت نفسه ترسيخًا للتقاليد والأفكار التقليدية.

في الكتابة، حين تصف شخصًا ما بالحمق أو الجنون فإنك عندئذٍ لا تُعَد كاتبًا جيدًا، ولكن دع القارئ يقرأ ما كتبته، سواء كانت كتابة أحد المقالات، أو كتابة كتاب، أو حتى كتابة فوق السبورة، وحين يقول القارئ بأن الشخص الذي وصفه الكاتب شخص مجنون تكون عندئذٍ كاتبًا جيدًا.

في اليوم التالي مسحوا كل الكتابات من فوق السبورة، وحتى بقية ربع العام الدراسي كنا نضع المقاعد في صفوف.

لم أقترح ولم أشأ أن يمارس أي شخص طريقتي نفسها في إدارة الفصل أو القيام بطريقتي نفسها في التدريس؛ لأن ذلك يعني عدم تقدير للطلبة الذين يقبلون بنظام دون آخر، ولا شك أنهم يريدون أن يكونوا ما هم عليه. في النموذج الصناعي نحاول أن نقولب كل شخص ونجبره على المضي قدمًا في الطريق نفسه والأخذ بالشكل نفسه، وقد يكون ذلك جيدًا بالنسبة للمنتج الصناعي لكنه يمثل جحيمًا نفسيًّا للأشخاص، وأيضًا للكرة الأرضية، فعلى سبيل المثال أنا لا أستطيع كتابة نشرات إخبارية، لمدة سنوات في «سبوكن» أنجزت كثيرًا من الكتابات، وقمت بنشر العديد من الموضوعات عن منظمة البيئة، لكنهم عندما طلبوا مني كتابة نشرات إخبارية ظللت لساعات في حالة من العجز ولم تسعفني اللغة، كما وجدت صعوبة في صياغة الكلمات المناسبة، ورغم ذلك كانت تجربتي في كتابة النشرات الإخبارية جيدة بالمقارنة بما حدث في تلك الليلة التي طلبوا مني فيها المساعدة في عمود التليفون، انتابني إحساس عميق بأنني لست أنا الذي يجب تكليفه بمثل تلك المهمة، وبالتالي لم أستطع، وجلست هناك حوالي ساعتين وأنا أضغط على الأرقام الستة الأولى من رقم تليفون شخص ما، ثم توقفت ووجدت نفسي غير قادر على إنهاء المكالمة.

إذا قررت وكالة الاستخبارات الأمريكية أن تعتقلني لعملي ضد النظام، وإذا أرادوا تعذيبي فإنهم لن يكونوا في حاجة لتوصيل الكهرباء إلى أعضائي التناسلية، وإنما يكفيهم إجباري على مهاتفة الغرباء.

إن المهمة التي نواجهها جميعًا كآدميين (وأنا متأكد بأن الأشجار تواجهها أيضًا، وكذلك الضفادع والصخور والنجوم والحرائق وهبوب الرياح العاتية، وأيضًا القبلات والملاطفات والعناق وأنواع مختلفة من الفن) هي كيفية اكتشاف ذواتنا، ثم القدرة على أن نصبح الشيء الذي اكتشفناه، إن المهمة التي يواجهها المدرسون هي أهمية اكتشافهم لطريقتهم الخاصة في القيام بعملية التدريس، والقدرة على تعريف الطلبة بمكنون شخصياتهم، وهذا يعني بالطبع أنهم أولًا يجب أن يتفهموا ذلك الشخص الذي يسكن داخل بشرتهم.

عند حوالي منتصف الربع الأول من العام الدراسي بالمنطقة الشرقية قال لي رئيسي في العمل: في البداية أنا قلق منك وأتساءل عن الطريقة التي ستعمل بها في الفصل، لقد أحببت ما قلته لكنني لست متأكدًا من أنك تقول الحقيقة، وكنت أعرف بأنك إذا لم تفعل ما تتحدث عنه فإن الطلبة سيرفضون كل ما تتحدث عنه بسرعة، وستصبح أنت والطلبة في موقف صعب، نحن لا نستطيع الضحك عليهم وربما نفكر أحيانًا بأننا نستطيع لكنهم أكثر ذكاء مما نعتقد.

ها هو اقتراحي إذن ويتمثل في أهمية أن يفكر المدرسون فيما يقومون به وفي المعاني الشخصية والسياسية للمواد التي يقومون بتدريسها، كما يجب عليهم أن يحاولوا فهم أنفسهم وماهية الشخصية التي هم عليها، ولا بد أن يحاولوا اتباع أحاسيسهم وما يدور في داخل أرواحهم حين يدخلون إلى فصولهم ويبدءون الدرس، كما أقترح أيضًا عدم الاهتمام بالمواضيع الظاهرية أو المزعومة أو غير الحقيقية الموجودة في المناهج المختلفة، فالموضوع الأهم هو مساعدة الطلبة على اكتشاف ذواتهم ومعرفة انفعالاتهم وأهوائهم، وأي شيء آخر إنما يقودهم إلى الضلال ويعرضهم للأذى.

كنت ما أزال أملك الكثير من القدرة على التحكم والسيطرة في الفصل، وكنت أكتب بشكل أفضل وبطريقة جيدة حين كنت أتخلى عن تلك السيطرة تاركًا الموضوع يقودني حيث يريد، لا ... إن كلمة يقود هي كلمة جامدة، وكأن التأمل يسير بتؤدة ورزانة ويخطو أمامي خطوات ثابتة وهو ممسك بيدي ثم يشدها برفق.

إن فعل الكتابة ورغبتي في القيام بها على أفضل شكل ممكن يذكرني بأن لا شيء أحب منها إلى قلبي، وأنني حتى في مراحل طفولتي ومراهقتي لم أقع في مثل ذلك العشق الذي يمكِّنني من تحريك الجبال الصخرية بأسرع مما أستطيع، وكأنني أبدأ بقمة الجبل ثم أسارع بالهرولة متأثرًا بالجاذبية الأرضية، حتى أجد جسدي يتحرك بسرعة أكبر كثيرًا من قدمي التي تتسم تحركاتها بالاضطراب، وبالتأكيد أسرع من قدرتي على التقاط مكان أهبط عليه فوق الأرض، لكنني تعلمت الهبوط بدون أن أُلحِق بنفسي الكثير من الأذى، كنت أتدحرج وأعاود الإحساس بقدمي، وأبدأ بحركة سريعة، وبالعودة قليلًا أستطيع أن أتذكر حين كنت طفلًا في الخامسة والسادسة والسابعة من عمري تلالًا من الرمال في الجزء الجنوبي من كلورادو، وقد ارتفعت لمئات من الأقدام، حين صعِدْت إلى القمة ورحت أجري بسرعة ثم بسرعة أكبر حتى لم تعد قدمي قادرة على الحيلولة بيني وبين السقوط، فرُحت أتشقلب فوق تلال الرمال وأهوي بسرعة نحو الهاوية (أستطيع القول بصراحة تامة إن مجرد التفكير في تلك الواقعة يصيبني بالغثيان، لا بد أن معدتي كانت أكبر قوة في طفولتي عما هي عليه الآن)، عندما صرت بعيدًا عن قمة التل كانت عيناي أكثر يقظة وانتباهًا من كل أعضاء جسدي الأخرى، وكانتا مفتوحتين عن آخرهما من كثرة الرعب والبهجة في وقت واحد. ذلك الإحساس بعيدًا عن حالة الغثيان هو ما أحلم به وأتمناه في كتاباتي، وهو أيضًا ما أريده في حياتي، وما أرغب في حدوثه في فصلي.

كيف أفعل ذلك؟

قمت مؤخرًا بتقسيم الطلبة إلى مجموعات، وطلبت من كل مجموعة أن تقوم بإدارة الفصل لمدة ساعة أو ساعتين، وقد استطاعوا في كثير من الوقت أن يفعلوا كل ما أرادوا أن يفعلوه. رغبت إحدى المجموعات في ممارسة لعبة الفوز بالعَلَم ففكرت قائلًا: وما الفائدة التي تعود على الكتابة من تلك اللعبة؟

قمنا بممارسة اللعبة ثم كتبنا عنها، وشعرت بحميمية تجاه ذلك الفصل بعد ذلك النشاط البدني أكثر مما كنت أشعر بعد المناقشات المثيرة للعواطف، وأثناء فترة الفصل التالي تحدثنا عن العلاقة بين المشاركة في الأنشطة البدنية والإحساس بالألفة والمودة.

راحت جماعة أخرى تأكل الذرة المشوية وتشاهد أفلام الكرتون ثم بدءوا في رسم صور خاصة بأيام طفولتهم، ولقد تأثرت كثيرًا عندما قام أحدهم بمشاركة الفصل فيما قام به حين قال: هذا هو أبي حين اصطحبني معه إلى الغابات؛ كي أحتسي من قنينة النبيذ. وفي المجموعة نفسها لعبنا معًا لعبة الاستُغُمَّاية فوق رصيف المبنى الشاغر، وبالنظر إلى

الوراء أجد نفسي غير قادر على معرفة الكيفية التي نجح بها كل شخص في إدارة درس الكتابة في الفصل بدون أن يلعب الاستغماية.

اقترحَتْ مجموعة أخرى كثيرًا من الاقتراحات، وقاموا بعرض كثير من الأسئلة والقضايا وسارعوا بطرحها علينا، وكان كل شخص يجيب على السؤال المعروض عليه، ثم رحنا نتجول في أرجاء الحجرة ونحن نتقدم بأجوبتنا إليهم واحدًا بعد الآخر، كانت الأسئلة رائعة ومهمة وكان سؤالي أنا: كيف تريد أن تموت؟

كان الطبيب البيطري الفيتنامي واحدًا من مجموعة أخرى، فكتب مع طالب آخر فوق السبورة تلك الكلمات: «حب الوطن، البطولة، الحرب، القنبلة، الدفاع القومي، المصلحة القومية، القذائف، الدبابات، البنادق، الطائرات المروحية، الجنود، الجنرالات.»

وكتبت مجموعتان أخريان على سبورة أخرى مجاورة للسبورة الأولى بعض الكلمات الخليعة والموحية بالإشارات الجنسية، مشينا حول الحجرة وقد بدت على وجوهنا ردود أفعال مختلفة من المكتوب فوق السبورتين، وأصبح الأمر واضحًا: لماذا يعتبرون الكلمات فوق السبورة الثانية كلمات فاحشة وقذرة بينما الكلمات الأولى ليست كذلك؟

شكلنا مجموعة أخرى وجلسنا على شكل دائرة، ثم رحنا نتبادل القول والحكايات عن الأشياء الأكثر خجلًا التي حدثت في حياتنا، وكان من اليسير أن يشارك الناس بعضهم البعض الأفعال الظاهرية فقط، فقال أحدهم بأن طفله الذي كان يتسم بالمزاح وكثرة الهزل ربط حبلًا حول رقبة قطة صغيرة ذات يوم، ثم انشغل بأمور أخرى، ولم يعد يتذكر ما فعله مع القطة الصغيرة، وحين عاد بعد نصف ساعة اكتشف أن الحبل مثبت عند حافة الأريكة، وعندما حاولت القطة أن تقفز اختنقت وماتت على الفور. وحدثنا أحد الرجال عن خيانته لزوجته، وبعد ذلك صمت الجميع وظللنا وسط الدائرة نقاوم دموعنا.

قامت مجموعة منا بتعليمنا كيفية القيام برقصة الريف والرقصات الغربية، وكان ذلك صعبًا بالنسبة لي لأن الحجرة كانت صغيرة جدًّا، فذهبنا إلى فناء المبنى المركزي للقيام بتلك الرقصات، وأثناء منتصف محاولاتنا على الرقص مضى بجانبنا اثنان من العاملين بالإدارة فابتسمت ولوحت لهما بذراعي، وأستطيع القول بأنني تعلمت كثيرًا من هذا الفصل، وظللت لسنوات وأنا أحاول الزج بتلك الأحداث في كتاباتي، وكان الإحباط يصيبني أحيانًا. كنا نقوم في فصل آخر بعمل أشكال مختلفة من الحلوى تعبر عن أمنياتنا وأحلامنا، فقام أحد الزملاء بعمل شكل كبير لكلب ذي ظهر أحدب ويخرج من صدره سهم كبير من عود الأسنان المصنوع من قرن الوعل، أما أنا فقد رسمت سدًّا عند النهر حيث تسبح

أسماك السالمون، كذلك لعبنا في الفصل لعبة كرة القدم بعد أن ربطنا أعيننا حتى لا نرى، وكان الآخرون يشيرون لنا بالاتجاه الصحيح يقولون لنا: «شمال، يمين، لا، الاتجاه الآخر.»

انقسمنا إلى مجموعات، وكان على مجموعتنا أن تهبط من فوق قمة الجبل؛ لتكتشف أن كل الناس قد اختفت، وقمنا بتمثيل بعض الأدوار التي مثلت في أحدها دور الممثلة «شارون ستون»، ورحنا نقص الحكايات عن الأشباح والعفاريت. أما عن يوم عيد الحب فقد كتبنا قصصًا عن الحب الأول وعن ذكريات القلب المنكسرة أو الذكريات الجياشة، لقد استمتعنا إلى حد كبير.

طلبوا مني في القسم أن أقوم بوضع امتحان نصف العام، ولم يكن القانون على أية حال يشمل شيئًا عن تقييم الامتحان مما ساعدني في اختيار ما أريد ومحاولة إضفاء بعض البهجة، وقبل يومين من امتحان نصف العام طلبت من الطلبة أن يكتبوا الأسئلة التي يرغبون في معرفة إجاباتها، وفي الفترة التالية قمت بتفريغ صندوق الأوراق الذي وضعوا فيه أسئلتهم ثم رحت أمشي حوله على شكل دائرة، لقد وضعوا أسئلتهم في الصندوق فقمت بهزه وإعادة تدويره مرة أخرى.

جاءوا في الحصة التالية وهم مستعدون للكتابة فأخبرتهم بأنني سأراقبهم بعناية حتى لا يسرقوا كتابات بعضهم البعض، وبعد انتهاء الحصة قرأت مقتطفات من كل ورقة.

كانت نوعية الأسئلة تدور حول الأفكار العميقة والمثيرة، والتي تحث على التحريض والاستفزاز، وكثير منها كان أسئلة شخصية مثل: ما ذكرياتك الأولى؟ هل كنت سعيدًا في طفولتك؟ متى شعرت بأسعد لحظات حياتك؟ هل عرفت شخصًا ما قبل أن يموت؟ هل شاهدت حالة ولادة من قبل؟ متى شعرت بخوف شديد؟

وكانت بعض الأسئلة ذات طابع سياسي مثل: هل نظام الولايات المتحدة السياسي قابل للإنقاذ؟ هل سيغزو بوش والولايات المتحدة العراق؟ (إنه لمن المثير أن يطرح أحدهم مثل ذلك السؤال داخل الفصل عام ١٩٩١م. وأنا متأكد بأنني لو كنت ما أزال أقوم بالتدريس في الغرب في العام ٢٠٠٣م لكان أحدهم سأل السؤال نفسه).

كان الكثير من الأسئلة قد اتسم بالطابع الروحاني والديني مثل: هل تؤمن بالله؟ من الله؟ هل هناك علاقة بين إيمانك أو عدم إيمانك بالله وإدراكك الشخصي للمبادئ الأخلاقية؟

كانت أسئلتهم في الغالب أسئلة واقعية وتعبر عن هواجسهم، وكذا كانت الإجابات في كثير من الأحيان واقعية، وأتذكر حين سألني أحد الطلبة يومًا ما ذلك السؤال المثير: أيهما أولًا، الدجاجة أم البيضة؟

فاجأني ذلك الطالب بإجابته على السؤال إجابة متعمقة فكتب يقول: لأن الدجاج من سلالة الديناصورات فمن الواضح أن البيض هو الذي جاء أولًا.

كان ذلك هو اكتشافه غير العادي لطبيعة الوجود والقضاء والقدر والإرادة الحرة والمصير فهل الدجاج حاضر وموجود في الديناصورات حقًّا؟ وبالمثل نستطيع طرح السؤال التالي: هل أفعال ذلك الطالب وتساؤلاته الآن وهو مراهق حاضرة وموجودة فيه منذ الطفولة؟ وما العلاقة بين ما هو عليه الآن وما سيكون عليه غدًا؟ ومن منهما سيبقى ويواصل حياته يومًا بعد يوم؟ وهنا يتحول السؤال إلى: من أكون؟

كل ذلك مثير جدًّا ومهم جدًّا وذو مغزى على ما أعتقد من القوالب الجامدة والمقالات والكتابات التقليدية مثل التي يكتبون فيها لمدة ساعتين في موضوعات عن التدخين السلبي أو عن متعة التسوق في المتاجر.

من أنت للمرة الثانية؟

ماذا تعني عشر أو خمس عشرة سنة؟ عليك بالتفكير في الأبدية! لا أجد إجابة لكنني أعرف أن الأبدية هي كل دقيقة تمر!

نيقوس كازانتزاكي

* * *

سألت وأنا أتجول داخل الفصل: كم واحدًا منكم سيكون هنا الليلة؟

رفع معظمهم أياديهم وكانت تلك إشارة جيدة.

من سيكون هنا؟

ظلت أياديهم مرتفعة، ورفع البعض حواجبه، ثم رفع اثنان آخران يديهما أيضًا.

من الذي سيكون هنا؟

تحركت حواجبهم معبرة عن التجهم والعبوس.

من أنت؟ من أنت؟

لم يقل أحد منهم أي شيء.

من أنت؟ إنني أريد حقًّا أن أعرف.

ظلوا صامتين دون أن يجيب أحد بأي شيء، فبدأت أغني لجذب الانتباه لكنهم ظلوا على ما هم عليه، ثم حاولت مرة أخرى قائلًا: عندما تقرءون كتابًا أو تذهبون لقضاء نزهة أو للقيام بممارسة الحب، أو حتى حين تأتون إلى الفصل، من يكون الشخص الذي يقوم بتلك الأفعال فعليًّا؟

أجاب أحد الطلبة بخجل قائلًا: أنا.

ضحك بعض الطلبة الآخرين بما يعني موافقتهم على ما قاله زميلهم.

من يكون ذلك؟

قال آخر: أوه، لا، إنه يفعل ذلك الشيء حيث لا يهم ما تقوله، إنه يواصل توجيه الأسئلة إليك، عليك الفرار من أجل حياتك.

قلت: تلك هي المسألة، من الذي كان عليه أن يفر بحياته؟

أنا.

ساد مزيد من الضحك.

ولكن من أنت؟

لا إجابة.

قلت: أوه، أووه، إنهم لا يقدِّرون انطباعاتي، لقد تحدثنا كثيرًا في هذا الفصل عن سؤال الكينونة. منذ سنوات قليلة مضت قرأت كتابًا بعنوان «الأرض المنبسطة» للكاتب المعروف «إدوين أ. أبوت»، وقد وصف العالم في بعدين فقط مثل قطعة من الورق. إن النساء الذين يعتبرونهن أقل شأنًا في عالمنا يسرن في خطوط مستقيمة، ولدى الرجال جوانب أكثر، وكذلك أركان وزوايا أكثر اعتمادًا على تصنيفهم الاجتماعي، كلما امتلكت أركانًا وزوايا أكثر امتلكت تقديرًا اجتماعيًّا أعلى، فالأشكال الهندسية المخمسة تقابلها نظرات تقدير أعلى من المربعات، والتي بدورها يكون النظر إليها بتقدير أعلى من المثلث، إنه لشيء مثير حقا! إنهم يمتلكون البيوت والعلاقات التي من خلالها يتفاعلون بعضهم مع بعض، كما أنهم يمتلكون رؤيتهم الخاصة لكنهم لا يستطيعون فهم كل شيء وإدراكه فيما وراء ذلك، فإذا أردت أن تنصب وتدًا فإنهم لن يستطيعوا رؤية ارتفاعه لكنهم يستطيعون فقط أن يتجولوا حول حافته، ولا يقدرون على تحديد ارتفاع الوتد ولو بالتقريب؛ وذلك لأن فكرة ومفهوم الارتفاع في الحقيقة لم تخطر ببالهم، عندئذٍ يقوم بوصف خط الأرض حيث العالم برمته يتكون من خط، وكذلك الفراغات التي تشبه عالمنا أكثر، والعوالم بأبعاد أكثر من ذلك، غير أنني أريد التحدث عن نوع المخلوق المحدد الذي يمكنه العيش في تلك الأرض المنبسطة التي كانت عبارة عن نقطة سوداء صغيرة عندما تشكلت للمرة الأولى، ثم تحولت مع الوقت إلى دائرة أكبر، وتغير لون جلدها حتى وصلت إلى وقت معين فاكتسبت ألوانًا مختلفة، حتى أصبح شكلها مسدس الزوايا والأضلاع، وعند النهاية تحولت إلى الشكل الدائري مرة أخرى، وصلدة ومشرقة، عند الاقتراب من الموت تفقد ألوانها وتصير شاحبة وعليلة حتى تتلاشى وتصبح لا شيء.

راحوا يحدِّقون فيَّ، ربما لاعتقادهم بأنني كنت أعيد التمرين نفسه الذي توهموا فيه بأنني من كوكب المريخ.

قلت: نعم، وبالطبع فإنني أصف القلم وهو يتحرك فوق قطعة من الورق حيث يعيش شخص ما في الورقة ولا يدرك سوى بعدين فقط، إلا أنه يدرك الهدف كما يحدث مع الطفل، أو نسيان كل شيء كما يحدث في الشيخوخة، لكن الحقيقة هي أن كل ما كتبه القلم كان موجودًا طوال الوقت.

قال أحدهم متسائلًا: وما الهدف؟

الطفل الرضيع، النهاية الأخرى هي النهاية القديمة.

لا، ما الهدف من وراء قولك هذا؟

ماذا لو أننا نمضي في الطريق نفسه.

وهل تعتقد حقًّا في ذلك؟

بالطبع لا، كل شخص يعرف أن مكونات أجسادنا لا توجد حقيقة حيث نعيش، إن أجسادنا هي نوع من أنواع مستقبلات التليفزيون أو الراديو، وعليكم أن تتخيلوا بأنكم لم تشاهدوا التليفزيون أبدًا من قبل ثم سرتم داخل حجرة وفوجئتم به، فإنكم قد تعتقدون حينها أن أناسًا من ذوي الحجم الصغير يجرون بداخله، وأن بداخله مسرحًا صغيرًا وعالمًا صغيرًا.

وعلى الرغم من ذلك قلت مستطردًا: الغالبية لا تتذكر، ربما نحن لا نفكر في أجسادنا إلا حين استخدامها فقط، لكن أجسادنا عبارة عن أجهزة استقبال معقدة تستقبل طاقات في كل مكان، مثل موجات الراديو والتليفزيون التي تحيط بنا من كل اتجاه ولا نستطيع إدراكها إلا بعد أن تلتقي الموجات مع ترددات جهاز الاستقبال.

أتعني أن الفراغ يقودنا إلى الوجود؟

لا، ذلك يُعَد أمرًا سخيفًا، بل إن الحياة نفسها تتراقص وتتفجر من حولنا وعند التقاء الموجة الصحيحة مع الوعاء الدموي الصحيح فإنك تتحول إلى شخص حقيقي أو إلى شجرة أو ضفدعة وربما إلى صخرة، كلٌّ منا يظهر بطريقته الخاصة.

وهل تعتقد حقًّا في ذلك؟

بالطبع لا، وإنما الحقيقة تكمن في أنني شيء غير مرئي ولا وزن له، شيء يُسمَّى الروح، وتلك الروح تعيش في مكان ما خلف النجوم يطلقون عليه اسم الجنة، أبدأ بالتشكل على شكل جسدي كنوع من الاختبار لتحديد ما إذا كنت سأتبع القوانين التي شرعها الملك

(وهنا لا أعني ألفيس بريسلي)، وإذا التزمت باتباع تلك القوانين فإنني سوف أعيش في الجنة إلى الأبد وأنا أعزف على آلة الهارب وأتناول طعامًا سماويًّا. يعتقد بعض دارسي الإنجيل بالمناسبة أنه يفرز مادة تقاوم الحشرات. أما إذا فشلت فإنني سوف أحترق للأبد، ولن أكون متأكدًا من الشيء الذي يحترق، هل هو تكويني الجسدي أم الروحي، وإذا كانت الروح فإنني أعتقد بأن النار أيضًا ستكون غير مرئية، خاصة وأن جدلًا كبيرًا حدث منذ آلاف السنين في الكنيسة الكاثوليكية عما إذا كانت نار الجحيم روحية أم جسدية.

ظل الجدل محتدمًا بين الطرفين، واتفق كلاهما على ألا يتفقا، وكان — ولا يزال — كل طرف على يقين بصحة رأيه.

لقد قلت بأنك لست مسيحيًّا، وهكذا يبدو لي أنك لا تعتقد في مثل تلك الأشياء.

وتساءل آخر قائلًا: هل قال بأنه ليس مسيحيًّا؟

توقفنا لحظة في انتظار أن ينهار المبنى أو على الأقل في انتظار أن تنقطع الكهرباء.

لا، أنا لا أظن أن ذلك سيحدث أيضًا، كلنا يعرف أن كينونتك هي الذات داخل حقيبة من جلد بشرتك، وحين أقف على أطراف أصابعي يصبح كل شيء داخل الحقيبة هو أنا، أو على الأقل معظم الأشياء إن لم تكن جميعها، فإذا ما أصابتني الإنفلونزا فإن فيروسات البرد ليست مني، ولن أكون متأكدًا إذا ما كانت البكتيريا في معدتي هي أنا أم لا، قد تكون كذلك إذا كانت مفيدة لي، وعندئذٍ تكون جزءًا مني، وإذا لم تكن كذلك فهي ليست مني.

وماذا عن الطعام الذي تناولته منذ ساعة مضت؟ هل ذلك الطعام هو أنا أم لا؟ أما الدم الذي يجري في عروقي الآن فهو دمي على ما أعتقد، ولكن إذا ما حدث لي نزيف فإنه ليس دمي، ومنذ لحظة بداية النزيف يصبح شيئًا لا ينتمي لي.

منذ سنوات قليلة مضت أزالوا جزءًا من أمعائي، وظللت أتساءل بعد ذلك عن الجزء الذي هو أنا، هل هي الأمعاء أم بقية أجزاء جسدي؟

إذا كانت بقية أجزاء جسدي هي أنا، فإلى أي مدى تكون أمعائي ليست جزءًا مني؟ ربما بعد أن أزالوا جزءًا منها، إذا ما اعتبرنا أن كل شيء في العالم خارج جسدي ليس مني، وبالمثل فإن أحدًا منكم ليس مني ولا أحد بينكم هو أنا.

قال أحد الطلبة: ولكن، ماذا عن ذكرياتك بشأننا؟ هل تكون تلك الذكريات جزءًا منك، وهل تكون هي أنت؟

أجبت قائلًا: نعم، أعتقد أنها كذلك فيما عدا تلك الذكريات عن بعض الناس التي تشبه كثيرًا تلك الفيروسات التي ذكرتها.

قال آخر: وماذا عن الهواء الذي أتنفسه ثم ألقي به خارج رئتي ثم تتنفسه أنت؟

قالت امرأة: أحيانًا أفكر أنا وأختي في الأشياء نفسها في لحظة واحدة، حتى حين نكون في أماكن مختلفة وبعيدة، كيف تفسر ذلك إذن؟

قال واحد من الرجال: إنها مجرد صدفة.

أضافت المرأة: لكن ذلك يحدث طوال الوقت.

قال آخر: ذلك لأنكما نشأتما معًا في بيت واحد ومكان واحد، وتشاركتما المفاهيم والخبرات نفسها.

قلت: مثل الآلة.

– نعم، حسنًا.

أضفت قائلًا: نسيت أن أقول لكم بأنني أفكر جديًّا في أننا لا شيء أكثر من آلات وماكينات تعمل على تكاثر الجينات، وأن أي شيء آخر إنما هو شيء ثانوي.

– أنت لا تعتقد في ذلك.

– أنت على حق، نحن فعلًا مجرد شبكة من العلاقات والتجارب والخبرات، إنني مجرد تقاطع لكل شخص في الفصل في هذه اللحظة من خلال كل شيء حدث لي ومن خلال كل نفس أتنفسه وكل كلمة أقولها وكل قطعة طعام أقوم بتناولها، إنني لست شيئًا على الإطلاق، إنني مجرد عملية، لا، ولست حتى كذلك، إن لغتنا لا تستطيع أن تصفني لأن الكلمات تتطلب اسمًا وفعلًا.

سألت امرأة أخرى: ماذا يحدث إذا قمت بممارسة الجنس واحتويت شخصًا ما بين جسدك؟ فهل يكون عندئذٍ جزءًا منك؟

قال آخر: لدي ذكريات لا تفارقني منذ قرأت لتلك المرأة التي كتبت كثيرًا عن الاغتصاب، لقد تأثرت بشدة وظلت التفاصيل عالقة بذهني، وما انفكت تطاردني كل يوم رغم أنني لا أريد لتلك الذكريات أن تكون جزءًا مني، غير أنني لا أستطيع.

قال الرجل الذي كتب عن الدجاج والبيضة: إذا مات ابني فإنني سأموت أيضًا، إنه جزء مني.

وقالت امرأة: لقد سمعت شخصًا يضحك في اللحظة التي ماتت فيها جدتي، وكانت هي عاشقة للضحك، وتعيش بعيدًا بآلاف الأميال، لكنني سمعت ضحكاتها، وكنت أعرف بأنها هي وأعرف بأنها ماتت.

انتهى الدرس وأسرع الطلبة بالرحيل ولم أكن في الحقيقة راغبًا لقول أي شيء إضافي طوال بقية الفصل الدراسي.

مع بداية الفصل الدراسي التالي سأل الطالب نفسه قائلًا مرة أخرى: ما الهدف من وراء الدرس الفائت؟

ضحكوا جميعًا داخل الفصل، ثم فتحت عيني عن آخرهما وسألته: من أنت؟

الوضوح

كيف لي أن أعرف عن اقتناع بأنني سأنجو بشخصيتي خارج الأبواب إلا إذا عرفت نوع مقبض الباب الذي يلف أصابعه حوله.

فورد مادوكس فورد

* * *

إن القاعدة السابعة في الكتابة هي أنك تريد للقارئ أن يفكر فيما تريد أنت له أن يفكر، ولا تريد أن يفكر القارئ فيما لا تريد له أن يفكر.

في أبسط المستويات فإن ذلك يعني أنك تتطلع إلى الوضوح؛ أي أنك تريد أن تكون واضحًا، بمعنى أنك لا تريد على سبيل المثال أن تكتب: «إن «جيم» و«بوب» يتبادلان الحديث ثم قال «جيم» ...»

أنت تريد للقراء أن يفكروا فيما قد يقوله «جيم» و«بوب»، ولا تريدهم أن يتساءلوا عن هوية المتحدث إلا إذا أردت أنت ذلك، وهذا المستوى يعني الدقة.

دعنا الآن ننتقل إلى مستوى آخر، عندما كنت أصغر سنًّا كانت أمي تعمل في القسم الأمريكي الهندي في متحف دينيفر للفن، وكانت أيضًا تعمل لبعض الوقت وكيلًا للفنانين الهنود، وهكذا تعلمت كثيرًا عن ثقافة الشعوب، ونتيجة لذلك فإنني عندما كنت أرى الغربيين أثناء طفولتي لم أكن أفكر إذا ما كان سلاح الفرسان سيقبل الهنود إلى صفوفه، وكانت أمي تقول: إن الهنود البسطاء لا يرتدون الملابس المبهرجة، وكان ارتداؤهم لبعض القلادات المصنوعة من فك الدب وبعض الأشياء الأخرى المثيرة يُعَد ضربًا من الجنون، أما أولئك الهنود في غرب مونتانا فكانوا مختلفين ومثيرين للضحك. إذا كنت في طريقك لإنفاق

ملايين الدولارات لعمل فيلم سينمائي يصور الحياة في الأقاليم الغربية من الولايات المتحدة الأمريكية فإنك لا شك ستقوم بعمل بعض الأبحاث، ويحدث الشيء نفسه حين تفكر في الكتابة فتبدأ بعمل الأبحاث الأساسية.

إذا شاهدتُ فيلمًا عن الحياة الغربية هذه الأيام فإنني لا أفكر فيما يريدني المخرج أن أفكر فيه، لكنني أفكر في الإبادة الجماعية وما ستكون عليه تلك الأفلام السينمائية التي يقوم بكتابتها وإنتاجها وإخراجها والتمثيل فيها أولئك النازيون، إنهم ليسوا غربيين فقط. وعندما أشاهد فيلمًا بوليسيًّا فإنني أفكر في الدعاية للدولة البوليسية، ومثال على ذلك ما سمعته من أن هناك فيلمًا جديدًا سيتم عرضه قريبًا عن خبراء شجعان في مقاومة الإرهاب يحاولون إيقاف الفوضويين والثوار عن وضع السم في مصادر تمويل المياه، وحينما ذهبت لمشاهدته لم أفكر في الخدع السينمائية، لكنني رحت أفكر في حقيقة أن الفوضويين والثوار لن يضعوا السم أبدًا في مصادر تمويل المياه؛ لأن الثوار الذين أعرفهم أو قرأت عنهم لا يفعلون مثل تلك الأفعال، كان من الممكن أن يكون الفيلم أكثر دقة وإثارة بالنسبة لي إذا قاموا بتغيير طفيف في السيناريو وجعلوا الثوار الشجعان يتصدون للرأسماليين وهم يقومون بوضع السم في المياه، جعلني ذلك الفيلم أعض أظافري.

كان المخرج «جورج روي هيل» مدركًا لهذه القاعدة عندما أخرج فيلمين كان يعرف من خلالهما أن المشهد الأخير الذي أراده لبطلي الفيلمين هو أن يقوما بإطلاق أكثر من ست طلقات نارية بدون إعادة شحن المسدس، لقد أراد أن يخدع لكنه لم يشأ أن يفكر المشاهدون في ذلك، كيف إذن فعل ذلك؟ لقد كرر مشهد البطلين وهما يقومان بإعادة شحن أسلحتهما، كان يريدنا أن نفكر في حقيقة أنه لا يقوم بالخداع، ولقد استطاع فعلًا أن ينجح في ذلك، إنه نوع مقبول من الخداع والمكر.

كتبت رواية منذ عامين لم تكتمل، وسوف أعاود العمل على إنجازها، وتدور الرواية حول إحدى الجرائم، استدعيت زوج إحدى صديقاتي الذي يعمل طبيبًا للطوارئ (كان صديق أحد أصدقائي الكتَّاب يؤكد على أن يكون لكل كاتب صديق من أطباء الطوارئ، وأنا لا أختلف معه في الرأي لكنني لم أجد ذلك الصديق حتى الآن).

سألت قائلًا: إذا كنت في طريقك لإطلاق النار على شخص ما من مسافة قريبة، لكنك لم تكن تريد للرصاصة أن تنفذ من الخلف فما نوع السلاح الذي ستستخدمه؟ وإذا أصابت الطلقة قلب هذا الشخص فما المدة الزمنية التي سيستغرقها حتى يموت؟ وماذا سيحدث في تلك الأثناء؟ إنه يعرفني جيدًا، فكان يفكر فيما أود له أن يفكر فيه ولا يفكر فيما لا أريد

له أن يفكر فيه، لقد كان وقتًا عصيبًا أن يتجول أحد أصدقاء القاتل داخل الحجرة قبل عملية القتل، ولم يكن يعرف ذلك الصديق شيئًا عن الجريمة، طلبت من طلبتي في السجن أن يفكروا في أشخاص يعرفونهم قاموا بعملية القتل، ماذا كانوا سيفعلون في مثل ذلك الموقف؟ هل كانوا سيعملون على إيقاف عملية القتل؟ أم سيشتركون فيها؟ وهل كانوا سيقتلون الشاهد أيضًا؟

قال غالبيتهم بأنهم كانوا سيقتلون الشاهد، لكن أحدهم قال: لكن الأمر مختلف بين القاتل المتعمد وذلك الذي لديه شيء ما يريد إنجازه.

تم الحكم بالسجن على كثير من الناس؛ لأنهم لم يقتلوا الشهود، مع أن المنطق يحتم قتلهم. يجب أن ينشغل القارئ بالخطة ولا يردد بينه وبين نفسه قائلًا: أوه، لا يمكن أن يتم الأمر بتلك الطريقة.

لم تكن كل تلك التطبيقات عن حقائق مادية وعن بعض الأنشطة والممارسات التي تحدث من حولنا، ولكنها كانت من أجل النقاش وإعمال العقل، فأنت تريد للقارئ أن يكون معك وأنت تصنع الحدث، ولا تتمنى للقارئ أن يعترض أو يتساءل عن أشياء لا تستطيع الإجابة عليها.

سأل شخص ما ذات يوم الرئيس «ناثان بدفورد فوريست» عن الكيفية التي استطاع بموجبها أن يكسب كثيرًا من المعارك، فأجاب: أن تصل إلى ما يريده معظم الناس.

الإجابة نفسها تنطبق على الكتابة، فدائمًا ما أقول لطلبتي إن عليهم ككتَّاب أن يشعروا بقرائهم ويتواصلوا معهم، وعليهم أن يطرحوا الأسئلة ويقدموا اعتراضاتهم قبل أن يقوم القارئ بذلك، على أن يفعلوا ذلك بطريقة بسيطة.

القاعدة الثامنة في الكتابة هي أن يقف صديقان فوق الرصيف المواجه للمطعم أثناء ذهابهما لتناول العشاء، فيقول أحدهما للآخر: ماذا تريد أن تأكل؟

يجيب الآخر قائلًا: لا يهم ما دمت لست مضطرًّا لتناول مرق الماشية، إنني أكره مرق الماشية.

– لم أعرف من قبل أنك تكره مرق الماشية.

– إنني أكرهه.

دخلا المطعم وجلسا وسألهما الجرسون عن الطعام الذي يرغبان في تناوله.

قال الشخص الثاني: لا يهم بالنسبة لي ما دمت لن أتناول مرق الماشية، إنني لا أحب مرق الماشية.

قال الجرسون: لا أعتقد أن هناك مشكلة فلدينا قائمة طويلة من مختلف أصناف الطعام الأخرى.

وعندما جاءوا لهما بالسَّلَطات كان مرق الماشية يغطي الأوراق الخضراء.

قال الرجل: لا أستطيع تناول ذلك النوع من السَّلَطات فأنا لا أحب مرق الماشية.

قال الجرسون: معذرة، سأحضر لك نوعًا آخر بدون مرق الماشية بما أنك لا تحبه.

بعد الانتهاء من تناول الوجبة سأل الرجل الأول صديقه: هل استمتعت بالطعام؟

قال صديقه: جدًّا، لقد استمتعت كثيرًا، إنها حقًّا وجبة رائعة، خاصة وأنني لم أكن مضطرًّا لتناول مرق الماشية لأنك تعرف أو ربما لا تعرف أنني أكره مرق الماشية.

تلك كانت نهاية قصة الصديقين، وها هو الآن الدرس المستخلص من تلك القصة: بعد قراءة تلك القصة فإن أول شيء سيقوله كثير من القراء هو أنهم لا يفهمون شيئًا، وسيتساءلون عن الذي يريد الكاتب أن يقوله بالضبط.

ليس مهمًّا درجة الوضوح التي ينبغي أن تكون عليها، إن الفرص جيدة لكنك لست كذلك، ولا يهم أن تلف وتدور مع القارئ في حوار وجدل واضحين، إن الفرص جيدة لكنك لا تمتلكها، وليس ذلك لأن القارئ غبي، تلك الصعوبة في التواصل هي شيء متأصل وطبيعي في الفن، فأنا لا أستطيع إخبارك بعدد كبير من الصور المؤثرة في كثير من الأفلام السينمائية، والتي فشلت في اجتذابي والسيطرة على مشاعري؛ لأنني كنت أحاول أثناء المشاهدة أن أتذكر الشخصية التي شاهدتها منذ ثلاثة مشاهد سابقة والشخصية التي ماتت في العشر دقائق الأولى من الفيلم، ثم فجأة وفي تلك الأوضاع أستطيع أن أفهم — بعيدًا عن العنصرية في اختيار الألوان — السبب في امتلاك أولئك الغربيين السفهاء للأولاد الذين يرتدون القبعات السوداء.

قرأ الطلبة حديثًا قصته في السجن فقلت: أنا أحب الطريقة التي تفاعلت بها الشخصيتان لكنني أجد نفسي في موضع التساؤل طوال الوقت عن طبيعة علاقتهما، إنهما يبدوان صديقين حميمين رغم الفارق الكبير في عمريهما فكيف تقابلا؟

أجاب واحد من طلبتي: لقد قلت في الصفحة الثانية بأنه ينظر إلى أبيه ...

إنني آسف فلم أسمع ذلك.

وفي الصفحة السابعة نادى شخص ما على الآخر مستخدمًا كلمة الابن.

كنت أعتقد أن تلك هي لغة الخطاب بين الكبار من الرجال والأصغر منهم.

نظر كلٌّ منا إلى الآخر وقلنا معًا، وكأننا نمثل دورًا في مسرحية: مرق الماشية.

ثمة أمر أكثر أهمية من رؤيتي المتواضعة مع أي من أنواع التواصل، إن أشكال الدافع البدائي داخل الأحاسيس التي تتشابه لكنها لا تماثل الدافع الأصلي لكثافة الحلم، ذلك الإحساس والشعور يوضح نفسه لكن الكلمات في أفضل أحوالها ليست سوى ظل لذلك الإحساس، إنني أتحدث أو أكتب تلك الكلمات، وبالطبع فإن الشخص الذي يستقبل تلك الكلمات يستحضر، مع استقباله ذلك، مفهومه الخاص، فالقرفة على سبيل المثال قد تستدعي ذكريات مختلفة، أو قد تعني لك شيئًا مختلفًا عما تعنيه لي أنا، والشيء نفسه يمكن قوله عن الجنس والحضارة وعن سمك السالمون، تلك الكلمات قد تستقر داخل الشعور وتؤدي ربما في النهاية إلى تشكيل دوافعك، ومع التفسيرات العديدة المختلفة لا عجب في أننا غالبًا نسيء فهم كلٍّ منا للآخر، ويحدث ذلك بين شخصين يتحدثان اللغة نفسها، يا له من سوء فهم كبير ومعقد! عندما لا يتشارك الناس في الخلفية الثقافية العامة أو في التحدث بلغة مشتركة فما المدى الذي قد نصل إليه حين نسمع كلبًا يتحدث أو شجرة أو حجرًا؟

في سنوات العشرين من عمري، عندما كنت في بداية تعلمي الكتابة، كان عدم مقدرتي على جعل كتاباتي ملائمة من حيث الجمال وقوة العالم الطبيعي لأحلامي الخاصة تؤرقني، غير أن ذلك العجز ظل ملازمًا لي حتى هذه اللحظة ولم أستطع التعبير بالوصف في كتاباتي، ثم فجأة، وفي يوم من أحد الأيام، أدركت بأنني كنت أحمق، لقد رأيت علامة توقف السيارات وفكرت بأن لا أحد يتوقع لتلك العلامة أن تكون سببًا في توقف سيارته، وبالمثل فإنه لا ينبغي أن أتوقع للكلمات أن تكون عوضًا عن الخبرة والتجربة، إذ ليس من وظيفة الكلمات أن تقوم بذلك الدور، على الرغم من التأكيد على إمكانية إساءة استخدام الكلمات، إن وظيفة الكلمات هي أن ترشدنا إلى الخبرة، وتساعدنا في الالتفاف حولها ومحاولة الاستفادة منها، كما تعمل الكلمات على تبسيط تلك الخبرة وتوضيح الطرق لنا للمشاركة، ولو بجزء ضئيل من تلك الخبرة والتجربة، مع من نحب، إن وظيفة الكلمات تتمثل أيضًا في مساعدتنا على تعلم كيفية العيش والتصرف كآدميين.

لم يحدث أن قبَّلتُ صديقتي القديمة قط، وكنا غالبًا ما نتحدث عن السبب الذي لم يجعلنا في حالة من الترابط العاطفي في أواخر العشرينيات من عمرنا، وكان أحد الأسباب هو عدم قدرتنا على قراءة إيماءات وإشارات كلٍّ منا للآخر، كنا كثيرًا ما نتبادل الأحاديث العاطفية والمبهجة، ولم تكن تتوقف عن التحديق في وجهي بعينيها الواسعتين، وكان ذلك يصيبني

بالارتباك، كنت أعرف تمامًا من خلال مشاهداتي للأفلام السينمائية أن القبلات تأتي من النظرات المرتعشة والإشارات المبهمة والنظرات الجائعة إلى الشفاه، وهذا ما لم يحدث أبدًا معي، وقد اكتشفت مؤخرًا أن صديقتي تتحدث بلغة مختلفة، وفي النهاية كان كلانا يذهب للنوم وحيدًا، إنه مثال عملي من درس مرق الماشية.

قاعدة أخرى للكتابة كنت أطلق عليها أنا وأحد طلبتي: السباق أو التسلسل أو اقتفاء الأثر، ولقد أطلقنا عليها ذلك الاسم لأنها تحاول التأكد من أن القارئ وهو ينتقل من كلمة إلى أخرى، ومن صورة إلى أخرى، ومن حوار إلى آخر، فإنه يتنقل بنعومة (إلا إذا أردت أنت ألا يفعل ذلك). إنني أستطيع مثلًا أن أقرأ وصفًا لوجه امرأة قام «ريموند شاندلر» بكتابته، ثم حين أعاود قراءة الوصف نفسه يمكنني أن أدرك أن طريقته في الوصف كانت جزافية ولم تخضع لأي نوع من التوجيه، بدءًا من وصف الشعر إلى الوجنتين إلى الشفاه والذقن والرقبة وحتى الأثداء، إنه يمضي في الوصف بطريقة سلسة وناعمة، ويتنقل من الشعر إلى الأثداء ثم يعود إلى الوجه.

قد يكون أسهل الأمثلة على ما أطلقت عليه أنا وأحد طلبتي بالسباق أو التسلسل أو اقتفاء الأثر، هو ما يبدو في الأفلام السينمائية، فلنقل مثلًا بأنك تتبادل معي الحديث الآن، وأن الكاميرا تعرض أولًا وجهك حين تتحدث، ثم تنتقل إلى وجهي وأنا أتحدث، وبعد ذلك تعاود التركيز على وجهك حين تبدأ بالكلام ... وهكذا، عندئذٍ سيكون انتباه المشاهد موزعًا بيننا، وبعد لحظة معينة أثناء قيامي بالحديث تبدأ الكاميرا في إظهار شخص ما وهو يتسلل عبر الباب ويحمل سكينًا بين يديه، إذا كانت تلك كل ما يريد صانعو الفيلم من توصيله إلى المشاهدين فلن يكون لديهم أي فكرة عما يجب أن يشعروا به، كان بمقدور الرجل الذي يحمل سكينًا أن يقسم العالم إلى نصفين، ومن ناحية أخرى يمكننا القول: إذا كنت أحدق في وجهك مثلًا ثم رحت أحدق في مكان ما خلف كتفك الأيسر فإن تركيز المشاهدين سيكون مع تحركات عيني، وفي أكثر الاحتمالات سيأمل المشاهدون في رؤية الرجل الذي يحمل السكين وهو يتسلل خلفك.

لقد تعلمت من تسلسل الأحداث عند «ألفريد هيتشكوك» و«جون كيبل»، إن أحد المشاهد النفسية عند «هيتشكوك» تمثلت في تصوير بطلة الرواية «ماريون» وهي تسرق ٤٠٠٠٠ دولار من الرجل الذي تعمل عنده، وكنا نرغب حينها ألا يكتشفها أحد وتنعم بتلك النقود، وحين همت بمغادرة المدينة شاهدت رئيسها وهو يعبر الطريق، وتمنينا وقتها أيضًا ألا يتوقف عن العبور، وفيما بعد نامت «ماريون» في عُرض الطريق، وراح رجل الشرطة

ينظر من خلال نافذتها، وانتابتنا رغبة كبيرة في ألا يرى النقود في محفظتها. ذهبت إلى الفندق وتم قتلها في الحمام.

كانت اللقطة الثانية هي التي تعلمت منها كيفية تسلسل الأحداث، فقد راحت الكاميرا تتنقل بين عينيها المغلقتين وبين النقود الملفوفة في الجريدة، ثم عبر الحجرة وصولًا إلى النافذة المفتوحة، ثم باتجاه المنزل الذي يقيم فيه «نورمان بيتس» مع أمه، سمعنا بعد ذلك «نورمان» وهو يصيح قائلًا: أوه، يا إلهى، أمي، الدم، الدم.

اندفع بعد ذلك عبر رَدَهات الفندق وبدأ في إزالة آثار حادثة القتل، ووضع جثة «ماريون» في صندوق سيارتها الخلفي، وبينما كان يضع أجزاء الجسد الذي قام بتنظيفه أيضًا كانت ثمة سيارة تمر بجواره، كنا نحن جماعة المشاهدين قلقين بشأن «نورمان» الذي مضى بعد ذلك بسيارتها بعيدًا، واتجه نحو المستنقع خلف أحد الفنادق الصغيرة على الطريق العام وغطاها بأوراق الشجر، بدأت السيارة تغوص في الأرض حتى لم يعد يظهر منها إلا السقف العلوي، لقد رأيت مثل تلك الأعمال مرات كثيرة في المسرح، وفي كل مرة كان المشاهدون يلهثون ويشعرون باضطراب في التنفس ثم يعبرون عن ارتياحهم عندما تغرق السيارة عن آخرها.

ولكن ما الذي حدث بالضبط؟

قبل ذلك بعشر دقائق تعاطفنا نحن المشاهدين مع «ماريون»، لكننا — فجأة — تمنينا لو أن «نورمان» يقوم بالهرب بعد جريمته، كانت تلك معالجة فنية رائعة، كيف فعل «هيتشكوك» ذلك؟

أما درس «جون كيبل» فقد كان شخصيًّا أكثر، لقد كان أستاذي الذي علمني الكتابة عندما تخرجت، وكان عندما يقرأ قصصي كان غالبًا ما يسألني بعض الأسئلة التي كنت أتصور في البداية أنها أسئلة تتسم بالغباء، فقد كتبت ذات مرة على سبيل المثال عن امرأة تقف في مطبخها ثم همت بالخروج إلى الشارع، فسألني عندئذٍ وقال: كيف دخلَتْ إلى هناك؟

اتسمت نغمات صوتي بقليل من القلق، وأجبت بنفاد صبر: لقد ذهبَتْ من خلال حجرة المعيشة وخرجَتْ من الباب الأمامي بعد أن هبطت السلالم واتجهت للبوابة الرئيسية ثم مضت عبر الرصيف.

قال: لم تخبرني بذلك.

قلت: إنه لأمر واضح ولا يتطلب القول.

قال: ليس بالنسبة للقراء.

أدركت بعد وقت قصير أن أسئلته لم تكن تتسم بالغباء على الإطلاق، لكنها ساعدتني كثيرًا في إجباري على التفكير بطريقة نقدية، كما أنني تمكنت من خلالها، وبشكل محدد، من الانتباه لتتابع الأحداث، والعمل على ذلك من خلال رؤية القراء وكيفية مشاهداتهم للأحداث، والعمل على مد جسور منطقية بين كل حدث والحدث الذي يليه، وبين كل جملة والجملة التي تليها، وبين كل حوار والحوار الذي يليه، ولم يمض وقت طويل بعد ذلك إلا وأصبحَتْ أسئلته هادئة ومرشدة لي، وعندئذٍ لم يعد يطرح مزيدًا من الأسئلة.

لم يكن يهم حقًّا إذا ما كنا نتحدث عن الأفلام السينمائية، أو الروايات، أو عن فن الجدل ومهاجمة آراء وأفكار الآخرين، أو تطبيق دروس المسلسلات، أنت تريد لمشاهديك أن يتبعوا الطريق الذي تريد لهم أن يتبعوه (إلا إذا كنت لا تريد)، كما تريد لمنطقك أن يكون واضحًا وشفافًا وسهلًا، فيما عدا بالطبع لو أنك لا تريد.

ثمة درس أخير في فن الكتابة، لقد اعتدت تعليم طلبتي كيفية كتابة حوار جيد، والعمل من أجل تحقيق ذلك يُعَد أمرًا بسيطًا، وهو ألا تجبر الطلبة على أن يجيب كلٌّ منهم على أسئلة الآخر.

يمكنني القول بشكل أكثر وضوحًا إن الحوار الرديء هو أن يسأل شخص ما مثلًا شخصًا آخر ويقول: كيف حالك؟

– ليس على ما يرام.

– لماذا؟ وماذا بك؟

– خسرت خمسين دولارًا بالأمس.

– كيف؟

– أنا واثق أن ذلك ما حدث في الرِّهان.

– هل بدأت تقامر من جديد؟

إن ما لم يتم ذكره في الحوار السابق هو الحقيقة القائلة بأن المراهنات لا تعتبر عادةً نوعًا من أنواع المقامرة، وإنما هي مجرد مساعدة خيرية لوكيل المراهنات.

وفي رأيي أن الحوار التالي أفضل كثيرًا:

يسأل شخص ما شخصًا آخر قائلًا: كيف حالك؟

– اللعنة على المقامرة.

– هل بدأت تقامر من جديد؟

هكذا تم نقل المعلومات نفسها بكلمات أقل.

يتحدث الناس غالبًا عن رغبتهم في أن يكون الحوار واقعيًّا، غير أن ذلك هو آخر شيء يريده القارئ، وإذا تبادلت أنت معي الحديث مثلًا فإنك ستقول ما تريد أن تقوله، وستكون متأكدًا من أنني فهمت رسالتك، ثم سأعيد أنا استئناف ما قلته لتعرف أنني سمعتك.

قال الرجل للمرأة أثناء لقائهما في موعد غرامي: لقد سئمت الحديث عن نفسي فلماذا لا تتحدثين أنت عني بعض الوقت؟ ولكننا سنتجاهل ذلك الاحتمال الآن؛ لأننا لا نتحدث عن المونولوج وإنما عن الحوار، بعد ذلك سأقدم إجابتي على تعليقاتك، ثم سأستخدم كلمات أقل في الحوار معك، وتفعل أنت معي الشيء نفسه، وبذلك نعمل معًا على إثراء المناقشة والحوار، وتمضي المحادثة بيني وبينك حتى تصل إلى هدفها النهائي. قد يجعل ذلك القراءة مملة ولا يمكن التسامح من أجلها، وتذكر أن كثيرًا من الأفلام السينمائية أقصر من معظم المحادثات والحوارات الحقيقية الجيدة التي كنت طرفًا فيها.

إن الإجابة عن كل ذلك سهلة وبسيطة، وتتمثل في كيفية الإيجاز وتمديد الفراغات بين السطور. أحيانًا أرى أن كتابة الحوار شبيهة بوضع ما يكفي من الأحجار وسط جدول من الماء للعبور دون أن تبتل الأقدام، فإذا وضعت الأحجار قريبة جدًّا من بعضها البعض فإنك تستطيع أن تخطو بأمان وتكفي خطوات طفل صغير للعبور، أما إذا كانت الأحجار بعيدة عن بعضها البعض فإنك معرض للسقوط، والشيء نفسه يحدث في الحوار عندما ترغب في أن يخطو القارئ خطوات الطفل، لأنك لم تضع مسافات كافية بين التعليقات.

إن التدريب الأول على الحوار الذي أعلمه لطلبتي هو التدريب نفسه، فغالبًا ما أطلب منهم أن يكتبوا قصة وأقول لهم بأن كتابة القصة لن تكون جيدة إلا من خلال الحوار، وأن القيام بعملية الوصف ليس مسموحًا به، لكنني أريد تصويرًا للمشهد، ومعنًى إذا كنت تريد للقارئ أن يعرف، عليك إدراك الطريق الطبيعي لشخصية واحدة لتقول ذلك لشخصية أخرى؛ كأن تقول مثلًا: تلك السيارات اللعينة دائمًا ما تجعل حالة الربو التي أعاني منها أسوأ مما هي عليه.

لديك شخصيتان يريد أحدهما أن يحقق هدفًا ما، ولن يتوانى عن فعل أي شيء لتحقيق ذلك الهدف، أما الآخر فإنه لا يريد ولا يرغب في تحقيق ذلك الهدف، ولن يتوانى أيضًا في عمل أي شيء للحيلولة دون تحقيقه، وأنت هنا لا تستطيع الحديث صراحة عن ذلك الهدف أبدًا، ولكن يجب أن يفهمه القارئ من خلال الشخصيتين.

لم يوافق بعض طلبتي في السجن واعترضوا كثيرًا. كان اثنان في طريقهما للسطو على مخزن للخمور، وكان أحدهما مريضًا بداء السرقة. أو أن اثنين من المدمنين كانا يتعاطيان الهيروين، وكان كلاهما يعتقد بأن الآخر لا يريد مشاركته، وكان مروج المخدرات يرغب في أن تشاركه صديقته في البيع وتسليم المخدرات لتكون بمثابة العين التي تحميه وتراقب من حوله. كل أولئك كانت شخصيات درامية تفوق في مأساتها عدم الموافقة من قبل طلبة الكلية أو من قبل الجالسين في ورش الكتابة.

لقد تحدثت عن قواعد الكتابة لكنني لم أذكر شيئًا بعد عن القاعدة الأولى للتعليم التي يجب الإعداد لها عشر مرات على الأقل أكثر من المناقشات والأسئلة التي تعتقد بأنك تحتاجها، وليس في ذلك أي نوع من الغلو.

لقد وصفت في هذا الكتاب المناقشات التي تدور داخل الفصل، والتي تتم على أكمل وجه، غير أنني لم أتناول في حديثي شيئًا عن تقليب الصفحات المفاجئ. هناك قليل من المشاعر أسوأ من انشغالك بالأسئلة ومحاولة الإجابة عليها.

يقودنا ذلك إلى جانب آخر، وهو تعليقي على شغف الطلبة لمعرفة المعنى الذي لم يستجيبوا له، وكنت أعرف منذ البداية أن ذلك ليس خطئي، لأنني كنت أترك الفرصة لكل قسم في التحدث كل ليلة حتى نهاية الوقت وحتى الانتهاء من موضوع المناقشة.

كانت بعض الفصول التي لا تريد التحدث معي ومناقشتي تتحدث عادة حين يحل أحد الطلبة مكاني في قيادة الفصل. لم يهتموا بمحاولاتي في حثهم على الكلام، وكانوا يكرهون رؤية واحد منهم في حالة من الارتباك، وذات ليلة كانت لديهم سلسلة من الأسئلة عن الله والدين ورؤًى مختلفة عما يمكن أن يحدث بعد الموت، وكانت الطريقة التي تشكلت بها آراؤهم طريقة مثيرة حقًّا، ولم تكن الأسئلة في حد ذاتها أمرًا مهمًّا، لأن أحدًا سواي لم يجب على أسئلتهم. وبعد أن ساد بعض الهدوء انتقلت من حالة الارتباك والحرج إلى حالة الألم، ثم من حالة الألم إلى الارتباك، وفي النهاية قال أحد أعضاء المجموعة في غضب: ألا يحب أحدكم أن يفكر؟

أجاب أحد الرجال قائلًا: لا، أنا لا أحب فعلًا أن أفكر.

نظر إليه أعضاء المجموعة نظرات استياء، لكنني سارعت طالبًا منهم أن أتولى الأمر قبل أن يقول شيئًا ردًّا على نظراتهم المستاءة، فرحبت المجموعة، وشعرتُ بالسعادة لذلك.

قلت وقد ملأتني الإثارة: لا توجد أحكام على الأسئلة التي سأطرحها عليكم، إنني حقًّا مهتم، وإذن كم منكم لا يحب التفكير؟

رفع حوالي ثلث الفصل أياديهم، وكان هو الثلث الذي خمنت أنه سيفعل، وشعرت بطريقة ما ببعض الارتياح لرؤية تلك الأيادي المرفوعة، لقد ساعدتني تلك الأيادي المرفوعة على إدراك شيء ما وإلا كان الأمر سيظل مستعصيًا على الفهم بالنسبة لي، وظللت أسأل نفسي عما إذا كان الساسة والصحفيون يقومون بعمل الشر أم أنهم لم يفكروا أبدًا فيما يقومون به، ورحت أتساءل بيني وبين نفسي أيضًا عن اعتياد الناس على ذلك.

كنت أعرف بأنهم لا يُعملون عقولهم ولا يفكرون، لكنني أردت أن أتأكد فقلت متسائلًا: ماذا تفعل وأنت تستحم، أو وأنت تقود السيارة، أو عندما تذهب إلى الفصل؟

قال أحدهم: أنا أستمع إلى المذياع.

وقال آخر: إنني أضحك على برامج التليفزيون التي شاهدتها في الليلة السابقة.

وقالت الأغلبية: نحن لا نفعل شيئًا، أو بمعنى آخر نحن لا نعرف.

سألت واحدًا ممن يحبون الرياضة: هل حدث وفكرت في كرة القدم؟

– لا.

– لكنك تشاهد مباريات الكرة طوال الوقت.

– وليكن.

– ألا تفكر في نتيجة المباراة؟

– لا، إنني فقط أستمتع بالمشاهدة.

أريد القول بأمانة بأني لا أعرف كيفية التصرف حيال ذلك، لقد مضى على تلك المناقشة حوالي عشر سنوات ولم أزل أفكر فيها، وما زلت غير قادر على إدراك وفهم إجاباتهم، وخاصة مضمون تلك الإجابات.

الوقوع في الحب

يتردد المرء كثيرًا حين يكون متورطًا، ودائمًا ما تكون فرصة الانسحاب صعبة وغير قابلة للتفكير، وفي الأعمال الإبداعية يجب الحذر والتحلي بالشجاعة الكافية في الطرح؛ لأن الشجاعة هي نوع من أنواع العبقرية، كما أنها تحوي بداخلها القوة والسحر، فلتبدأ بها الآن.

و. هـ. موراي

* * *

لم أخبرك حتى الآن عن السبب في أنني لم أعد أُجبِر نفسي على الكتابة، لقد حدث ذلك لأنني وقعت في الحب، ويمكنني القول بطريقة أخرى أنني وقعت في شيء ما أكثر اتساعًا من مجرد النظر إلى نفسي، وسوف أخبرك بالقصة.

كنت أعيش في «إيداهو» أثناء انهيار عام ١٩٨٧م، وكنت ما أزال أحسُب الكلمات وأحاول الكتابة، ومن أجل النقود عملت مع شريك لي في مخزن للأخشاب، لكن العمل لم يستمر وقتًا طويلًا، وكذلك لم يكن العائد المادي مجزيًا، وكنت أقرأ وأكتب كثيرًا، وكانت قراءاتي في العموم هادفة، وحاولت أن أتعلم كيفية الكتابة واختيار الكلمات المناسبة واستبعاد الكلمات التي لا تخدم المعنى، وكانت الكلمات انتقائية، كما حاولت أن أتجنب الوقوع في أخطاء الكتابة محاولًا الاستفادة من كل أعمال الخيال العلمي والإثارة والغموض لكتَّاب من أمثال «توماس مان» و«كيلجور» و«ألبير كامو».

كانت القصص التي كتبتها في الغالب شبيهة بتلك التي قرأتها لأنني كنت أحاول تقليد أسلوب الكتَّاب أنفسهم الذين قرأت لهم ومعالجاتهم الفنية نفسها.

قرأت كتابًا لـ «جيمس هيريوت»، وكان واحدًا من أجمل السلاسل المنشورة وأكثرها إشراقًا، عن مغامرات مشوقة ومليئة بالحيوية؛ طبيب بيطري من يوركشاير، وكانت إحدى القصص تتحدث عن رجل ليس له صديق سوى كلبه، كان الكلب يذهب معه كل يوم إلى الحانة. ولقد عرفت بطريقة ما من السطر الأول ما ستنتهي إليه القصة، سيموت الكلب وسيقتل الرجل نفسه، عرفت أيضًا أن الكاتب سيستخدم كل الحيل التي يعرفها لكي يجعل القارئ يبكي، لكنني أقسمت أنه لن ينجح معي، وفكرت في التوقف عن القراءة ما دامت النهاية معروفة وليست مفاجئة، لكنني واصلت القراءة حتى النهاية، وعندما توقفت عن البكاء في النهاية أصابني الذهول من كيفية البساطة والوضوح في معالجته البارعة وأسلوبه الجميل، ولقد تعجبت من مهارته منذ اللحظة التي أُصبت فيها بالذهول، وتساءلت بيني وبين نفسي عن براعته في إجباري على البكاء من مجرد حبر على ورق، وعرفت في اللحظة نفسها أن تلك هي المهارة التي يجب أن أمتلكها.

قلت: إنني في حاجة إلى خطة وأعتقد أن الأمر قد ينجح معي كما نجح مع «جيمس هيريوت».

ستحكي القصة عن رجل ليس له صديق سوى كلبه، وعندما يموت الكلب لا يقتل الرجل نفسه وإنما يغادر المدينة، وبما أنني لم أقم بزيارة «يوركشاير» من قبل فإن الأحداث ستكون في نيفادا حيث عشت سنوات قليلة في الماضي.

طوال أشهر عديدة حاولت أن أكتب القصة لكنني لم أستطع؛ لأن خطتي أصابها الإخفاق مما جعلني أشعر بالتعاسة لأسباب عديدة.

وفي خلال ذلك ظهرت ابنة شريكي في مخزن الأخشاب قادمة من كاليفورنيا، وكنت قد قابلتها في الصيف الماضي، وبسرعة أصبحنا صديقين مقربين، لكنها لم تأت هذه المرة في زيارة وإنما للبحث عن ملجأ هربًا من زوجها الفاسد الموجود حاليًّا في السجن بسبب اغتصابها.

تحدثنا كثيرًا عن تجربتها، ولقد تشاركت معها في تلك الإساءة التي عانيت منها أثناء طفولتي، ولكن بعد ذلك، وكما يحدث في حالات كثيرة، راحت تُسقط كل الاتهامات عن زوجها وبدأت تفكر في العودة إليه، وقالت: إن الضرب لم يكن بالشيء السيئ فيما عدا المرة الأخيرة، إنه لم يضربني أبدًا فوق وجهي، وأنا أعرف بأنه سيتغير وسيكف عن ضربي، فالمشكلة في حقيقة الأمر لا تكمن في شخصه وإنما في المخدِّرات، إن أولادي في حاجة لأب فكيف لي تحقيق ذلك؟

تحدثت معها، ولم يكن حديثًا مثمرًا، وتحدث أبوها معها وكذلك أمها ولم يثمر الحديث عن شيء مفيد. وفي إحدى الليالي تبادلتُ الحديث مع أمها وواحد من أصدقاء عائلتها حتى الثالثة أو الرابعة صباحًا، ورحنا نفكر في كيفية العمل على عدم عودتها، لكننا لم نتوصل لشيء محدد ولم نجد وسيلة مناسبة، ثم عدت للمنزل ونمت.

استيقظت حوالي الساعة التاسعة في ذلك الصباح وقد أمسكت بالخطة وتوصلت إلى ما عجزنا عن الوصول إليه في الليلة الفائتة، تستطيع المرأة المتزوجة في مواجهة الرجل الذي يسيء إليها أن تصبح صديقة حميمة لرجل أعزب لا يعرف من الأصدقاء إلا كلبه، وسوف تساعدها المحادثات بينهما على إدراك أنها تستحق معاملة أفضل من التي يعاملها بها زوجها الآن، لكن زوجها يعلم بصداقتها تلك فيذهب ويقتل كلب صديقها، فيسيطر الحزن على الرجل ويغادر المدينة، ومن خلال تلك الصدمة تتعلم المرأة في النهاية أن تحب نفسها بما يكفي.

بدأت في الكتابة ولم تقف الكلمات حائلًا بيني وبين القدرة على التعبير، وإنما جاءت سهلة ومعبرة كما لو أنني كنت أحلم، لكنني عندما وصلت إلى الصفحة السادسة أدركت أن القصة قد لا تتجاوز خمس عشرة صفحة، وعندئذٍ توقفت عن الكتابة مكتفيًا بذلك القدر لذلك اليوم.

في الصفحة الثانية عشرة شعرت بأن القصة ستطول وتصل إلى عشرين صفحة، وعند الصفحة الثامنة عشرة قلت بأنها ستصل إلى ثلاثين صفحة، وظل حلم الكتابة يراودني طوال ستة أشهر حتى انتهيت من كتابة ثلاثمائة صفحة.

أرسلت الكتاب إلى مائة واثني عشر ناشرًا وتلقيت اثني عشر رفضًا ولم يُنشر الكتاب، أعرف عدد الناشرين لأنني كنت أسجل عدد المرات على ورقة فوق الحائط وبها أربعون رفضًا، نقلت الورقة من فوق الحائط إلى خلف الباب حتى لا يتسنى لي رؤيتها كثيرًا، وتمنيت لو أن لي وكيلًا يقوم نيابة عني بمثل تلك الأعمال لكي يخفف عني الصدمات التي كانت تصيبني عند كل رفض، وعندما أصبح لي وكيل تلقيت منه أيضًا خمسة وثلاثين رفضًا.

ورغم ذلك كان اكتشافي لمعنى التأمل هو الشيء المهم فيما حدث، وكذلك معرفتي بمكان الكلمات التي تتخذ شكل الفقاقيع القادمة من جبال الثلج، كنت في حالة حب مع الكلمات ومع مجمل الحكاية وعملية الكتابة ذاتها، ومع الإحساس بالتواصل المطلق بذلك الصراع الذي يشكل شيئًا ما بالنسبة لي.

كيف حدث ذلك؟ إن جزءًا منه بالطبع هو شيء سحري يحدث في كل مرة، ويحدث الآن كل يوم، وجزء آخر هو نوع من المران والتدريب يبعث على الراحة الكافية، مع استخدام الكلمات والأفكار، ومع كل ما يمكن أن يحدث من انفعالات وأحاسيس تتشكل مع بعضها البعض في منظومة من الوضوح والجمال، بالإضافة إلى عوامل أخرى كثيرة، إن الأمر ببساطة ليس به نوع من البراعة، فهناك اختلافات نوعية في تجارب الكتابة، وحتى في الكلمات التي يتم كتابتها فوق الورق، هناك فرق كبير بين الأعمال التي تتسم بالتواصل والحب لحظة كتابتها، وبين تلك التي تفتقد التواصل والحب، إنها الفعالية والسلاسة، وثمة باب مفتوح، إنه الفرق بين الإعجاب بشخص ما والوقوع في حب ذلك الشخص.

أصبح السؤال الآن كالآتي: كيف ولماذا تم فتح الباب؟ وكيف يمكنني مساعدة الطلبة في معرفة الكيفية التي يفتحون بها أبوابهم؟

ما أعرفه أنني أهتم كثيرًا وبعمق بالموضوع، فلا أريد مثلًا لصديقتي أن تعود إلى زوجها، ولا أتمنى لها مزيدًا من الأذى، ذلك ما يدفعني للكتابة، إنه الهدف الذي يجب أن يكون نصب عينيَّ أثناء عملية الكتابة، إنني أحاول التواصل مع الحدث والانفعال به، ولا أكتب لمجرد رص الكلمات، وليس أيضًا لمجرد النشر، رغم أن النشر شيء جيد، ولا حتى لمجرد التدريب، إنني أحاول بيأس أن أنقل رسالة وتجربة.

كيف لي أن أساعد الطلبة في الكشف عن انفعالاتهم المختلفة؟ ما الشيء الذي يصيبهم بالغيظ أو يخيفهم؟ وما الشيء الذي يبهجهم إلى حد كبير؟ وما الرسالة التي يرغب طلبتي بشدة في نقلها وتوصيلها؟ وإلى من يرغبون في نقلها؟ كيف يتسنى لي مساعدتهم في تفجير انفعالاتهم بطريقة قوية حتى يفقدوا وعيهم الخاص ويقعوا أسرى لأحاسيسهم وللكلمات التي يستخدمونها وللرسائل التي يرغبون في توصيلها؟

يعيدنا ذلك إلى السؤال القديم نفسه، من أنت؟ وماذا تحب؟

أما السؤال الجديد فهو: ماذا تريد؟

إذا أخبرتني من تكون فعليك بإخباري بما تحب وبالشيء الذي تريده وتتمناه، وعندئذٍ سوف أخبرك بدوري وما يتحتم عليك كتابته، وربما أجد نفسي غير مضطر لإخبارك؛ لأنك قد بدأت بالفعل في معرفة ما يجب عليك كتابته.

الثورة

لا بد أن تتحمل المسئولية عن الكيفية التي تتعامل بها مع الوقت، غير أنك في المدرسة لا تكون مسئولًا عن ذلك، فمن الواضح أنهم في المدرسة يساعدونك على تبديد الوقت، ومن هنا نستطيع القول مرة أخرى بأن المدرسة مثل الجيش أو السجن، ما إن تدخل إليهما حتى تجد نفسك في مواجهة كل أنواع المشاكل، ليست الحرية من بينها.

جيري فاربر

* * *

أرسلت لي إحدى صديقاتي في الأسبوع الماضي رسالتين بالبريد الإلكتروني موضحة فيهما وجهة نظرها في تفاصيل العملية التعليمية، وعبرت في الرسالة الأولى عن وجوب الإبقاء على نظام التعليم العام حتى المرحلة الرابعة، وقالت: أستطيع تذكر ذلك اليوم الأول وخوفي الكبير من ذلك السجن الذي لم يخبرني عنه أحد، والذي أمضيت في جحيمه ثماني سنوات، وما زلت أشعر بقوة أن وجوب الإبقاء على تلك السنوات المبكرة من التلقين كان دائمًا أحد أعظم أسباب قوتي.

أما الرسالة الثانية فقد قالت: كان لديَّ قليل من المدرسين الذين جعلوني أتراخى عن مباشرة أعمالي الإبداعية بطريقتهم البائسة، وبالعمل من خلال مؤسسات تعليمية منهارة لم تكن تعرف شيئًا عن التعليم الحقيقي، ولقد فقدت ثقتي مرات عديدة بذلك النظام الذي نشأت على كراهيته، وبالطبع فإنني أشعر بامتنان كبير لمعرفتي بأنني أكرهه، ولقد أحببت التعليم من المنزل دون الذهاب إلى المدرسة حيث لا توجد مثل تلك الضغوط،

وتعجبت كثيرًا — وما أزال — من أولياء الأمور الذين يبعثون بأطفالهم للدراسة في تلك المنظومة المتهالكة وهم لا يدركون، وكان تبريرهم لذلك هو ما أثار عندي مزيدًا من الدهشة والتعجب، بالإضافة إلى أنهم كانوا يسلمون أطفالهم طواعية إلى من يسيئون إليهم، وذات صباح ذهبت مع صديقة لي لتوصيل ابنها إلى المدرسة، وكان ابنها في المرحلة الأولى، وأثناء عودتنا قالت لي بأنها شاهدت كثيرًا من الأمهات وهن يبكين لترك أطفالهن في المدرسة لأول مرة، إن الأمهات جميعًا يعرفن ذلك الألم.

قلت: ولماذا تبكي كل الأمهات في رأيك؟

لم تجبني على سؤالي.

يقود كل ذلك إلى سؤال أحاول أن أتجنبه وألا أطرحه في هذا الكتاب وهو: هل لا بد من التعامل مع ذلك النظام الفاسد أم علينا التمرد على كل شيء؟

تلقيت اليوم رسالة أخرى بالتزامن مع الرسالتين السابقتين، وكانت هذه الرسالة من صديقة أخرى، وكانت عن التعليم أيضًا، وقالت في رسالتها: من المهم النظر بعين الاعتبار إلى العملية التعليمية لأنها علاقة نجد أنفسنا جميعًا مجبرين على الدخول فيها، ويمكن رؤيتها على أنها مجاز أو قالب يصب في خدمة كل علاقاتنا الأخرى في السيطرة والهيمنة.

فكرت في ذلك كثيرًا في الفترة الأخيرة لأنني في العامين الأخيرين كنت أجلس في مقعدين؛ أحدهما في صف طلبة الدراسات العليا الراغبين في الحصول على الدكتوراه، وفي صف المدرسين الذين يعملون بطريقة رديئة، وأدركت أننا حين نتحدث عن التعليم أو الثقافة فإنما نتحدث في الحقيقة عن تعطيل وإبطاء علاقة السيطرة، وكنت أحاول جاهدًا في كل يوم أن أجد بعض الطرق التي تجنبني الشعور بالحزن، لكن ذلك لم يكن ممكنًا، وكذلك حاولت ألا أقمع روح التحدي، غير أنني لست أدري مدى نجاحي في تحقيق ذلك الأمر. حاولت في الفصل ألا أنفعل وألا أجبر طلبتي على فعل ما لا يرغبون مستحضرًا في ذهني السؤال الذي يتحدث عن الفرق بين القيادة والإجبار أو الإكراه، وعندما حاولت تفويض الطلبة ومنحهم السلطة نجحت في بعض الأحيان، وفشلت في أحيان أخرى، وخاصة في الفصول الأصغر. كنت أستطيع أن أكون نفسي تمامًا وكنت أقوم بعملية التدريس بالطريقة التي أُومن بها، وكنت أستطيع العمل على جعل الفصل فصلًا حقيقيًّا، ونجحت في جعل الطلبة يحبون ما يتعلمونه أو يعرفونه عن أنفسهم، لكنني اكتشفت أن كثيرًا من طلبتي، وبخاصة ممن هم في المراحل المتقدمة، لا يشعرون بالراحة تجاهي ويتعاملون معي بطريقة غليظة، إلا في الحالات التي أمارس فيها السلطة، وكان بعضهم يفهم انفتاحي على أنه ضعف، ورقتي

في التعامل معهم على أنها نوع من التنازل، كثير من الطلبة كان يتوقع مني أن أقودهم وأتعامل معهم مثلما اعتادوا من قبل في كل مراحل حياتهم، وفي الحقيقة فإن لديهم الكثير من الطرق لحدوث ذلك، مما يذكرني بتلك العلاقة القديمة مع أحد أصدقائي المقربين الذي نظرت إلى وجهه بعد أن صرخت فيه فوجدته متأنقًا ونظيفًا وبدت عليه السعادة، وعرفت من تعبيرات وجهه أنه في النهاية نجح في دهاء بإجباري على التصرف بالطريقة التي يريدني هو أن أتصرف بها، فقررت أن أنهي تلك العلاقة، وأعتقد بأنه يجب القول، نحو مزيد من الدقة، بأنني تركت ذلك النموذج من العلاقات القائم على الإجبار. يحدث مثل ذلك النوع من العلاقات كثيرًا، إن نظام السيطرة يتخلل كل أوجه الحياة، وتستطيع أن تجده في كل علاقاتنا، كما توجد الآلية التي تفجره في كل جزئيات حياتنا، عندما يدخل ذلك النظام من العلاقات في علاقاتنا المقدسة، في علاقة الجسد والقلب، فهو ليس في حاجة للمزيد، لكنه بالطبع لا يتوقف عند هذا الحد، ويصبح السؤال كالآتي: كيف نسن قانونًا للعلاقات لا يكون قهريًّا، من خلال نظام لا يؤيد القهر؟ إن الأمر معقد إلى حد بعيد.

أعرف أن طلبتي يتمردون على خبرات الظلم والاضطهاد الذي يتعرضون له، وأعرف أنني أول من يواجه ذلك التمرد، كما يوجد بعض الطلبة ممن تعرضوا للأذى من قِبل والديهم، أو من قبل المدرسين وأشكال السلطة المختلفة، غير أنني لا أستطيع مساعدتهم والوصول إليهم لأنهم لا يستطيعون سماعي، فماذا يمكنني أن أفعل بشأنهم؟

في نهاية العام الماضي مثلًا قام أحد الطلبة الأفظاظ بإلقاء خطاب طويل عن إحساس الأطفال الذين يتعرضون لإساءات عاطفية، لكنني لم أستطع إدراك ما يعنيه لأنه كان فظًّا، ثم فهمت — فجأة — السبب، وشعرت بالندم، وأعتقد أن كل ذلك يندرج تحت أسئلة ثلاثة:

(١) هل المادة التي تأتي من تفوق الجنس الأبيض الاستعماري تستحق التدريس على وجه الخصوص؟

(٢) أعرف أن الغرض من التعليم الحقيقي هو السماح للناس أن يتعلموا عن أنفسهم وعن العالم الأكبر الذي يحيط بهم، فهل يستحق التعليم بشكل دائم؟

(٣) كيف يمكن لذلك النظام أن يعمل؟

لم أستطع الإجابة على الأسئلة، وما أعرفه أنني أكره الحضارة الصناعية لما تتسبب فيه من ضرر للكوكب، وما تفعله من تأثيرات سلبية في المجتمعات، وما تقوم به من أضرار

للكائنات غير الإنسانية؛ المتوحشة منها والقابلة للترويض، وكذلك لما تفعله للإنسان الفرد؛ سواء كان متوحشًا أو أليفًا. إنني أمقت كذلك النظام الاقتصادي القائم على استئجار العمالة؛ لأنه يسبب، أو فلنقل، لمزيد من الدقة، أنه يُجبر الناس على بيع حياتهم وعلى عمل أشياء لا يحبونها، كما أنه يكافئ بعض الناس لما يقومون به من إيذاء لبعضهم البعض وتدمير لقناعاتهم. أكره كذلك التعليم الصناعي؛ لأنه يرتكب واحدًا من الخطايا التي لا يمكن الصفح عنها، إنه يقود الناس إلى العزلة والانفراد، ويساعدهم في الابتعاد عن بعضهم البعض، ويقوم بتدريبهم على أن يصبحوا عمالًا، ويعمل جاهدًا على إقناعهم بأنهم في أفضل حالاتهم ليسوا سوى عبيد أوفياء، كما أنه نظام يقوم على إكراه الناس على اصطحاب كل من يقابلونه إلى القاع، وأنا عن نفسي أشارك في هذه العملية عندما أقوم بالعمل على جعل المدرسة مقبولة ويمكن احتمالها، والقيام بإضفاء روح المرح عليها، في الوقت الذي يتدرب فيه الطلبة على القيام بأدوارهم في التدمير المتواصل للكوكب، والقيام بأدوارهم الثانوية في الآلة الصناعية العملاقة.

إن التعليم الصناعي يقتل في الحقيقة الروح وليس الجسد، وذلك ما يجعلني دائم الرفض له، كما أنني لا أتوقف عن لوم نفسي لأنني واحد من المشاركين في أكبر العمليات التي تدمر وتشوه الإنسانية.

نحو مزيد من الوضوح، ولكي نكون متيقنين من قدرتنا على الإفلات من ذلك الشَّرَك، فلا بد أن نعي بأن الحضارة الصناعية تساهم بقوة في تدمير الكوكب، وأن كلًّا منا يقوم بدوره في ذلك التدمير، وكان من الممكن تجنب حدوث ذلك لو توقفنا عن المشاركة، فالمهندسون يقومون باكتشاف الغاز الطبيعي في الصحراء، وشركات الإعلان تواصل إعلاناتها عن شركة فورد للسيارات، ويتبادل ركاب الطائرات حبات الفول السوداني في رحلاتهم العابرة للقارات، كما يساعد الأطباء العمال والمديرين على الحفاظ على صحتهم، ويقوم علماء النفس بمساعدة مرضاهم على العيش بشكل أفضل، ويواصل الكتاب إبداعاتهم؛ كي يقرأها الناس في أوقات فراغهم، ويساعد المدرسون أولئك الكتَّاب على الكتابة بطريقة لا تجعلهم يشعرون بالملل. ذلك النظام المميت والقاتل يحتاج إلينا جميعًا.

لقد أظهر التعليم في السجن ذلك الأمر بوضوح أكثر، فكنت في كل مرة أسير خلالها عبر البوابات أساهم في المساعدة على دعم أنظمة السجون في العالم، والوقوف إلى جانب العنصرية التي لم يحدث مثلها حتى أثناء نظام التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا،

ولكنني أعرف في الوقت نفسه أن كثيرًا من طلبتي أخبروني بصراحة وفي مرات عديدة أن دروسنا هي ما يتطلعون إليه طوال الأسبوع، وأن تلك الدروس هي الشيء الوحيد الذي يقيهم الجنون.

في الأسبوع السابع من كل فصل دراسي كنت أسأل نفسي السؤال نفسه: ما الذي ينبغي أن نتحدث بشأنه ما دام الطلبة هم الطلبة أنفسهم في الفصول المتعاقبة وفي نصفي السنة؟

كنت أصل تقريبًا إلى الإجابة نفسها في كل فصل من فصول السنة الدراسية، فإذا ما كان الفصل الأول عن الليبرالية يكون الثاني عن المسئولية، كل شخص يحتاج للتعلم وللخبرة، لكن سؤال الليبرالية والمسئولية لا يتم طرحه في فصول السجن؛ لأن الظروف المحيطة بالطلبة داخل السجن مختلفة، فهم يعرفون احتياجاتهم، وأسئلتهم الموجهة لي مختلفة، كما أن المسموح لي بتقديمه لهم مختلف أيضًا.

كان الأسبوع الثامن بعد بداية العام الجامعي حين حدث ما يشبه الثورة، وراح كثير من الطلبة يضايقونني، فقال أحدهم: أنت تتحدث عن الليبرالية وعن كيفية أن نكون نحن القادة في الفصل، وتريدنا أن نتولى الأمر بالعناية بتعليمنا، لكن كل ذلك لا يتعدى قيامك بدورك.

قال آخر: قلت إنك لا تريد التقييم على أساس الدرجات، لكن نظام الدرجات ما يزال إجباريًّا!

وقالت إحدى الطالبات متسائلة: وماذا لو أنني لم أرغب في كتابة أي شيء؟

قلت: أعتقد أنك سترسُبين.

قالت: دائمًا ما كنت أعتقد بأنك أفضل من بقية المدرسين، لكنكم جميعًا الشيء نفسه.

تناقشت معهم ولكن ليس بالقدر الكافي، ثم خضعت لوجهات نظرهم.

ثم أضافت الطالبة نفسها: أنا لا ألومك، فأنا معجبة بطريقتك، كما أنك رائع، لكنك تحاول دائمًا أن تكون مثاليًّا، وتحاول تعليمنا كيفية أن نكون مثاليين من خلال نظام يرتكز أساسًا على الإكراه والإجبار، وذلك أمر مثير للسخرية.

شعرت بألم خفيف قلل من فرحتي، فقلت: وماذا يجب أن أفعل عندئذٍ؟ هل ترغبين في تغيير طريقتي في التدريس؟ هل تريدينني أن أعتمد على نظام الدرجات؟

قالت بفزع: لا.

– وإذن فماذا يجب أن أفعل؟

– عليك بتغيير النظام كله.

– كيف أفعل ذلك؟

فكرَتْ لحظة قصيرة قبل أن تجيب بأفضل الإجابات الممكنة وقالت: أنت شخص ذكي وتحتاج لتحقيق ذلك بمفردك، ولكن يجب أن تعرف بأنني عانيت كثيرًا من المتاعب في حياتي الخاصة لأنني كنت وحيدة أمام نظام بأكمله.

إنني أحب ذلك العمل.

السير فوق الماء

قاعدة عميقة، أساس راسخ، زخارف كثيفة. من مركز العالم ترتفع شجرة بلا أشواك، واحدة من تلك الأشجار تعرف كيف تقدم نفسها إلى الطيور، حول الشجرة ترقص الأزواج وتتموج على أنغام الموسيقى التي توقظ الأحجار وتشعل النيران في الثلج، وأثناء الرقص يزينون الشجرة ويخلعون عنها أوراقها بشرائط متموجة من كل لون، إن شجرة الحياة تعرف — مهما حدث — أن الموسيقى الدافئة الحميمية لن تتوقف من حولها أبدًا مهما سقط حولها من الموتى ومهما تدفق الدم، سيرقص الرجال والنساء على أنغام الموسيقى ما ظلوا أحياءً، وستحتويهم الأرض ولن تتراجع عن حبهم.

إيدواردو جلينو

* * *

كان الأسبوع الثالث وحتى الأخير من الفصل الدراسي في الجامعة حين أحضرت معي فيلمًا تسجيليًّا يحكي عن قصص قليل من أولئك الذين ماتوا بمرض الإيدز، عندما أضأت النور في الحجرة بعد ذلك رأيت أن كثيرًا من لاعبي كرة القدم في الفصل قد قاموا بخفض رءوسهم، وعندما رفعوها مرة أخرى كانت أكتافهم مشدودة وعيونهم حمراء.

بدأت الكلام متسائلًا: كيف سيتذكرونكم في حال موتكم؟

توقفت عن الكلام، لكن أحدًا لم يُجب أو يقل شيئًا.

بدأت مرة أخرى وقلت: أو بالأحرى فإنني أقصد القول بأنكم حين تموتون فأي شيء سيقوله الناس عنكم؟

كانوا صامتين وفي حالة من الهدوء، لكن كثيرًا منهم كان يفكر فقلت: أريدكم أن ترسموا خططًا لمناقشة موضوع الإيدز، وأنتم لستم مجبرين على الوصول إلى نتائج معينة، وإنما عليكم فقط بوضع الموضوع في الاعتبار.

ظل الفصل صامتًا حتى كسر أحد الشباب الصمت وقال بدون تفكير: أنا لن أقوم بعمل ذلك، فأنا لن أموت بمرض الشواذ.

كنت أعرف طوال الربع الأول من العام الدراسي بأنه شاب يعاني من الخوف وأنه يكره النساء، فلم أندهش مما قاله وقلت له: إن من يمارسون الجنس من الرجال والنساء بشكل طبيعي يموتون أيضًا، وقد يموت الناس في حوادث السيارات، أو من تناول الكحول، أو من ممارسة الرجل للجنس مع أربع نساء في وقت واحد، كما يموت الناس في حوادث كثيرة ومختلفة.

بدا أن كلماتي لم تشكل مشكلة بالنسبة له، فأضفت موجهًا حديثي للفصل كله: يمكنكم القيام بهذا التدريب بأنفسكم، ولكن من الأفضل أن تجعلوا شخصًا ما يكن لكم الحب يقوم بعمل ذلك نيابة عنكم؛ الوالدين أو الأخ أو الأخت أو العشيق أو الصديق.

قال أحدهم متسائلًا: أتعني أن نثق بشخص ما للقيام بما يجب أن نقوم نحن بعمله؟

أجبت قائلًا: يا لها من صفقة!

جاءوا في الأسبوع التالي بوجهات نظر محددة، وراحوا يتحدثون عنها، وكانت النقطة الأساسية في ذلك التدريب هي أن ثمة شيئًا كان مختلفًا عما يبدو في السطح، ولم يكن الهدف يتمثل في إجبارهم على التفكير في الموت أو في دمجهم معًا للإجابة على السؤال القديم نفسه، لقد كنت أسأل كل فصل السؤال نفسه: من أنتم؟

لم يكن الأمر كذلك لإضفاء جو من المرح، أو لنكون أكثر حميمية مع بعضنا البعض، على الرغم من أنني كنت أشعر بسعادة بالغة لأي من تلك الأسباب.

إن الهدف الأساسي هو منحهم الفرصة ليعبر لهم الناس الذين يحبونهم عن تلك الأحاسيس والعواطف وتعريفهم بالمميزات التي يحبونها.

كنا على وشك الانتهاء من الفصل الدراسي، وكنا في طريقنا للتصويت، عندما كنت في الكلية سمعت إشاعات عن أن الذين يدرسون بجدية لا ينامون سوى ساعتين في الليلة، لكنني لم أصدق تلك الأقاويل، والحقيقة أنني لم أصدق بما يكفي، وعلى مدى سنتين ظللت أسجل وقت ذهابي للنوم وعدد الساعات التي أستغرقها في النوم (لم أستطع النوم قبل منتصف

الليل لمدة عام كامل وحتى بعد الأول من أغسطس)، بالإضافة إلى عدد الساعات التي أقضيها في الدراسة والتحصيل في كل يوم. كان الأمر مثيرًا بالفعل. سمعت أيضًا بعض الأقاويل والإشاعات عن أولئك الذين يتناولون الخمور مرات كثيرة في الأسبوع، مع العلم بأن معظم أصدقائي لا يتعاطون الخمر.

كنا جميعًا — بما فيهم أنا — نتفادى الأسئلة المباشرة عن الجنس؛ لأننا كنا نشعر بأن الأمر قد يضايق البعض ممن بدءوا ممارسة الجنس في وقت متأخر من أعمارهم أو في وقت مبكر جدًّا، أو أولئك الذين لم يمارسوا الجنس أبدًا. كنا نعرف أيضًا أن الأصدقاء من الأولاد والبنات قد يكذبون في إجاباتهم عن الأسئلة المتعلقة بالجنس. وعلى أية حال كان من الأفضل ألا نتوجه بالأسئلة في ذلك الشأن، كما كان لدينا قاعدة واضحة ومحددة لا تسمح بالأحكام المطلقة أو محاولات الإقناع، وكان الهدف من كل الأسئلة هو معرفة ما يفكر فيه الطلبة من خلال تشجيعهم على سرد القصص التي توضح ما تنطوي عليه قصصهم.

التقطت قطعة من الورق من كُومة من الأوراق الملقاة أمامي.

كم ساعة تنام في الليل؟

كانت النسبة الغالبة للطلبة هي ست ساعات ونصف، ويقل بعضها إلى أربع ساعات، ويزيد البعض الآخر إلى إحدى عشرة ساعة.

إذا لم تقلق بشأن الجدول ومواعيد الدراسة فكم عدد الساعات التي ستنام فيها وفي أي وقت؟

عندما انتهيت من طرح ذلك السؤال ارتسمت فوق وجوههم نظرات حالمة، وانتابتهم حالة من الانتشاء، وراحوا يفكرون قليلًا قبل الإجابة التي تراوحت بين النوم الكثير، وعدم ضبط الساعة على وقت محدد للاستيقاظ، والنوم في أي ساعة من الليل أو النهار.

كم عدد الذين لم يتناولوا الخمور أبدًا أو قاموا باحتساء كأس أو كأسين من النبيذ مع العائلة طوال العام؟

رفع ربع الفصل تقريبًا أياديه.

كم عدد الذين شربوا حتى الثمالة مرة واحدة في الشهر؟

كان نصف الفصل تقريبًا.

وكم عدد الذين شربوا حتى الثمالة مرة في الأسبوع؟

ربع الفصل.

كم عدد الذين يقرءون كتابًا في الأسبوع غير كتب الدراسة؟

اثنان أو ثلاثة فقط.

وفي الشهر؟

الربع.

وفي أقل من عام؟

اثنان أو ثلاثة.

هل قام أحدكم بالغش والخداع في المدرسة الثانوية؟

أجاب الجميع بلا، ما عدا امرأتين؛ إحداهما أمريكية والأخرى صينية.

هل تم خداعكم في الكلية؟

بعد ضحكات قليلة توحي بالخوف والقلق، أجاب النصف بنعم، فطلبت منهم أن يدونوا أسماءهم بوضوح فوق أزرار قميصي.

قالوا: هل تخدعنا؟

قلت: يتوقف الأمر على كيفية رؤيتكم للخداع.

لم يوافقوا.

كنت أنقل الواجب المدرسي من زملائي طوال الوقت، وكنت أسمح لهم بالنقل عني، ولم يكن ذلك يشكل خداعًا أبدًا بالنسبة لي، كانت حالة سياسية وحالة من الرفض للمواقف التنافسية التي تشكل ثقافتنا، إنها حالة من التضامن مع زملائي الطلبة، ولا تتعدى كونها حركة في اتجاه النموذج الأكثر تعاونًا في التعليم.

ظلوا على حالتهم من عدم الموافقة.

كان من الأجدر ألا أخبركم بذلك لكنني قمت بتمرير عدد قليل من أوراق المدرسة الثانوية داخل فصول الكلية، وكان ذلك من أجل أغراض تعليمية بحتة، لقد أردت معرفة الفرق في التقدير بين المدرسة والكلية، تلك الأوراق التي تحصل على «أ» في المدرسة بينما تحصل الأوراق نفسها على «ب» في الكلية، أعتقد أن تلك معلومة مهمة وأنا أرحب بالتضحية من أجل كتابة تلك الأوراق وتمريرها عليكم الآن.

لم يوافقوا أيضًا.

لكنني قمت بالغش في الاختبارات مرتين، ولقد صُدمت في البداية وأصابني الهلع من طبيعة الغش العادي، وتعلمت درسًا في غاية الأهمية وهو ألا أهمية لحدوث عمل مشين في البداية لأنك سوف تعتاد عليه وستشم رائحته النتنة في النهاية، وعندئذٍ لن تشعر بالقلق أبدًا، إن الرائحة النتنة تفوح من أي شيء كالغش أو التقديرات، وحتى من الحضارة نفسها.

قال أحد الطلبة: قلت لنا بأنك قمت بعملية الغش مرتين.

قلت: كنت في اختبار الكيمياء في العام الأول من الجامعة، وفي واحدة من أكبر قاعات المحاضرات، وكنت قريبًا من نهاية القاعة، وكانت لدي مشكلة مع سؤال بعينه — كانت لدي في الحقيقة مشكلة مع عديد من الأسئلة — وحين كنت أجيب على السؤال السابع والعشرين نظرت إلى الساعة، وكان الشخص الجالس أمامي يرفع ورقته في الهواء في محيط رؤيتي، فعرفت أنه انتهى من إجابة السؤال السابع والعشرين فلم أصدق وقمت بتغيير إجابتي على السؤال حسب ما رأيته من ورقته، وقد عرفت بعد ظهور النتيجة أن إجابتي الأولى كانت هي الصواب مما جعلني لا أفعل ذلك فيما بعد.

أخبرتهم برغبتي في قول شيء آخر عن الغش، شيء ما تمنيت لو أنني عرفته حين كنت في المدرسة، إن المدرس يستطيع في الغالب أن يرى كل ما يحدث في الفصل، وبالتالي فإنك على خطأ حين تعتقد، بإخفائك ورقة وسط الكتاب، أن المدرس لا يعرف، وإنما الحقيقة أن ذلك المدرس لا يهتم، أو أنه سئم من التوجه إليك لإيقافك.

ذلك يطرح سؤالًا آخر: كم عدد الذين قاموا بالغش في هذا الفصل؟

أجابت امرأة وهي تهز أطراف جفونها: كيف لنا أن نغش في ظل نظام علامات الصواب والخطأ؟

أشرت إلى سلة المهملات.

قالت وهي تهز أطراف جفونها بشكل أسرع: أوه، لم أفكر في ذلك أبدًا.

ضحك الجميع، وطلبت منهم أن يكتبوا عددًا كبيرًا من الأوراق خلال ربع العام، من خمس إلى عشر مرات، كما يفعل الطلبة في فصول مبادئ التفكير والكتابة.

التقطت قصاصة أخرى من الورق، إذا شاهدتَ رجلًا من رجال الشرطة ولم تكن قد ارتكبتَ شيئًا ضد القانون، ولستَ في حاجة إلى شرطي، فبأي شيء ستشعر في الحال؟

ماذا لو شاهدت دورية من الخفر؟

كان التصويت خمسة بالسالب، وبدأ الناس في الحديث بأقوال خيالية عما يرغبون في فعله تجاه أولئك الخفر أو رجال الشرطة.

وكان السؤال التالي: هل كنت ستقوم بحلاقة رجليك وإبطيك إذا كنت امرأة؟ وإذا كانت أي واحدة منكن رجلًا فهل كانت ستواعد رجلًا لا يحلق رجليه وإبطيه؟

ثم سألت قائلًا: هل تؤمن بالله؟

وقبل الإجابة على ذلك السؤال علينا أن نتفق على سلسلة من التعريفات، هل الله يعني شخصًا كبيرًا بلحية بيضاء؟ هل الله عملية متعاقبة؟ هل هناك آلهة متعددة؟

انتهينا إلى مقولات متعددة، ووافق الكثير على وجود احتمالات كثيرة: المؤمن بإله واحد (في المسيحية والإسلام واليهودية)، والقائل بوحدة الوجود وأن الله والطبيعة شيء واحد وأن الكون المادي والإنسان ليسا سوى مظاهر للذات الإلهية، ثم أولئك المؤمنون بتعدد الآلهة وتعدد مبادئها، بما في ذلك احتمال وجود بعض الديانات الهندية من بينها، ثم أربعة أو خمسة من الملحدين، وثلاثة أو أربعة ممن يتبنون المبدأ القائل بأن وجود الله ومبادئه من الأمور التي يصعب الوصول إليها.

سألوني عما أومن أنا به فحكيت لهم القصة التي حدثت لي حين كنت في الطائرة وأخبرونا بأنه ثمة أعطال ميكانيكية في الطائرة، وكان علينا أن ننتقل إلى طائرة أخرى، انتقلنا بالفعل إلى طائرة أخرى، وجلست إلى جوار رجل كبير كان مستغرقًا في قراءة الإنجيل، وعندما كان المسافرون يمرون في طريقهم بالقرب منه كان يلقي بورقة تحتوي على نصوص من الإنجيل داخل جيوبهم، حاولت الإمساك بالكتاب الذي أقرؤه ورفعَه في المنتصف بيني وبينه على أمل أن يكون حاجزًا بيني وبينه، لكن محاولتي باءت بالفشل، وظل من وقت لآخر يصطدم بي بالمصادفة، ثم ما يلبث أن يقدم الاعتذار، وكان من الواضح أنه في انتظار قبول اعتذاره، وحين لم يجد قبولًا مني أمسك بركبتي وسألني: هل تعرف السبب الذي من أجله أصاب الله الطائرة الأخرى بأعطال ميكانيكية؟ وهل تعرف لماذا فعل الله ذلك؟

أجبت قائلًا: نعم، أستطيع أن أخبرك بكل شيء عن وحدة الوجود، وعن كيفية أن الله والطبيعة شيء واحد.

مال بعيدًا عني واتخذ من الإنجيل جدارًا بيني وبينه، وكانت الرحلة أقصر مما ينبغي أن تكون عليه.

سؤال آخر: هل توجد كلمات بذيئة لم تقلها؟

قال اثنان في وقت واحد باستخدام لفظة بذيئة: لا.

أصابتني الدهشة، فغالبية الناس لم يتلفظوا بالكلمات البذيئة، لكن معظمهم كان يستخدم إحدى تلك الكلمات في أحاديثه منفردًا، كما أصابتني الدهشة أيضًا أن امرأة متعصبة تجاوبت مع ذلك السؤال، رغم عدم تقبلها السؤال المتعلق بالإيمان والله، وقد قالت، عندما بدأ الرجل الأمريكي الهندي في شرح تجاربه الروحية: أوه، أنتم الهنود تعتقدون في الأشباح، أليس كذلك؟

توقف الرجل قليلًا ثم قال: هذا هو رأيك.

لم تستخدم المرأة أيًّا من الكلمات البذيئة، أو أي لون من ألوان السباب، ولم تهتم بالكلمات التي تناولها الآخرون في الحديث. وحتى حين بدأت أطرح السؤال ارتبكت بعض النسوة وشعرن بالخجل، وراحت واحدة منهن تصرخ وهي تغطي أذنيها.

قلت لرئيسي بأنني سوف أطرح ذلك السؤال، فأخبرني بالكثير عن علاقتنا، ثم تجهم وقال بجدية: كم مرة قلت لك يا «ديريك» ألا تذكر مثل تلك الكلمات البذيئة في الفصل؟

سألت الفصل: هل أنتم سعداء؟

معظمهم لم يكن كذلك، وبعضهم لم يعرف حتى مدى ما يشعرون به.

– هل تعتقدون بأنكم ستنعمون بالسعادة؟

أجاب كثير منهم بالنفي.

– أتعتقدون بأننا نحيا حياة ديمقراطية؟

ضحكوا وقالوا: بالطبع لا.

– هل من الأفضل للحكومة أن تولي اهتمامًا بالشركات والنقابات أم بالإنسان؟

ضحكوا مرة ثانية وقالوا: الشركات بالطبع.

– هل تعتقدون أن العالم سيكون أفضل بعد عشرين سنة؟

– لا.

– بعد أربعين سنة؟

– لا.

– مائة سنة؟

– لا.

– وإذن فما رأيكم في الوقت الذي ستصبحون بعده سعداء؟ وكم من الوقت سيمضي حتى يصبح العالم مكانا أفضل؟

إنهم لا يعرفون.

قلت في الفصل الأول من الأسبوع التالي قبل الأخير: سأتقدم إليكم بمهمة أخيرة.

ظلوا صامتين في حالة من الترقب، ثم قلت لهم: أريدكم أن تسيروا فوق الماء.

كانوا ما يزالون في حال من الترقب ولم يستطيعوا إدراك المعنى الذي أقصده، فقلت متسائلًا: هل أنتم مستعدون للمضي قدمًا في مناقشة اليوم؟

أجاب أحدهم قائلًا: لا.

وقال آخر: ولكن ...

قلت: أوه، يوجد شيء آخر بالطبع أريدكم أن تكتبوا عنه فيما بعد، وآسف للارتباك الذي أصابكم بسببي.

قال شخص ما: لن أفعل ذلك.

أجبت: سوف تفعل.

قال الشخص نفسه: ولكن ما الهدف من فعل ذلك؟

– سوف تعرف الهدف أيضًا.

حاولت أن أنجح مع الفصل وأصل معهم إلى نتائج محددة، غير أنهم لم يسمحوا لي بالوقت الكافي ولم يتجاوبوا معي، وظلوا يتساءلون عما أريد لهم أن يفعلوه، وظللت بدوري أجيب بالطريقة نفسها وأردد: أريدكم أن تسيروا فوق الماء ثم تكتبوا عن تلك التجربة.

فقدت امرأة صوابها ونفد صبرها أخيرًا ثم قالت مخاطبة الفصل: كل شخص هنا يعرف قصة سير المسيح فوق الماء، أليس كذلك؟ عن أي شيء كانت تتحدث القصة؟ إنها قصة شخص ما يقوم بعمل شيء ما يصعب القيام به أو فلنقل بأنه شيء مستحيل.

أجاب أحد الطلبة من ذوي التفكير البسيط والموضوعي: ولكننا لن نستطيع عمل ذلك إذا كان مستحيلًا.

قالت المرأة: ذلك هو الموضوع، فهو يريدكم أن تفعلوا المستحيل.

– ولكن ...

قالت المرأة لتوضيح خدعة الحوار الجيد: إن كلمة «لكن» هذه هي السبب في عجزكم وعدم قدرتكم على الفعل.

قال واحد من معتنقي الديانة المسيحية: إن يسوع الرب هو الوحيد القادر على السير فوق الماء.

قالت المرأة: ليس ذلك نظامًا لاهوتيًّا جيدًا، وأقل كثيرًا من علم النفس، فالآخرون أيضًا يستطيعون ما داموا لا يشكون في قدرتهم على الفعل.

قال المسيحي: وما داموا يتطلعون دائمًا للمسيح ويطبقون تعاليمه.

– دعك من المسيح الآن.

– ذلك نوع من أنواع التجديف وعدم احترام المقدسات.

– إنني لست مسيحيًّا، ولذلك فإن كلمة تجديف لن تخيفني، فالمجاز من وراء القصة هو أنك في الوقت الذي تنظر فيه إلى داخل نفسك، وفي اللحظة التي تكتشف فيها ذاتك،

وعندما تبدأ في الإيمان بقدراتك، فإنك ستجد نفسك قادرًا على إنتاج وخلق أعمال مدهشة لم تكن في السابق تفكر فيها أو حتى تتخيل حدوثها، كالسير فوق الماء.

نظرت المرأة نحوي وقالت: هل يمكن ذلك؟

أومأت برأسي وقلت ببطء: أعتقد …

قاطعتني قائلة: إنه شيء جيد لأنك في اللحظة التي تصل فيها إلى المكان الذي تستطيع فيه السير فوق الماء سوف تكتشف فجأة أنك فوق أرض صلبة وجامدة كنت تعتقد في السابق استحالة السير فوقها، بالإضافة إلى عدم وجود أي نوع من المساندة والدعم، إن ذلك الدعم لا يأتي منك وإنما من كل ما يحيط بك، وما إن تبدأ في الفعل فإن الكون بأكمله سيتعاون في مساعدتك ودعمك.

عاودت النظر نحوي ثم توقفت.

قلت مرة ثانية: أعتقد …

لكنها قاطعتني مرة أخرى وراحت تضيف بحماس قائلة: وهذا هو حقًّا ما نحتاجه، إن النظام بأكمله نظام فاسد وكل شيء فاسد، إنهم يقتلون الكوكب الأرضي ونحن نساهم في كل تلك الأعمال المؤسفة التي نمقتها والتي تتطلب من كلٍّ منا معجزة أو ملايين المعجزات، ذلك هو ما يطلبه «ديريك» ويريدنا أن نفعله، إنه يريدنا أن نخرج مما نحن فيه ونذهب لارتكاب المعجزات، ثم يريدنا أن نكتب عن تلك المعجزات، وأعتقد أن ذلك ليس كثيرًا، أليس كذلك؟

قلت مخاطبًا إياها: أستطيع القول بأنك فكرت في الموضوع قليلًا.

قالت: قليلًا فقط؟!

كانت مقالاتهم وأبحاثهم جيدة، كان بعضهم من أعضاء نادي القلم، فكتب قليل منهم عن ملء البانيو بالماء بما يعادل ارتفاع بوصة واحدة ثم السير فيه، بينما كتب البعض عن السير عبر بركة متجمدة.

لكن كثيرًا من الطلبة كتبوا عن المعجزات. والطلبة في فصلي، بما فيهم أنا، لا نحتاج للتعلم ولكننا ببساطة نحتاج للتشجيع وللنمو من خلال قلوبنا، نحن لسنا في حاجة لأن تحكمنا أجندات خارجية، ولا لأن يخبرنا أحد بموعد احتياجنا للتعلم، ولا حاجتنا للتعبير، لكننا في حاجة لأن يوفروا لنا الوقت، وليس بالإجبار أو الإكراه، وإنما كعامل مساعد حيث نستطيع اكتشاف ما نريد ومعرفة من نكون بمساعدة الآخرين ممن يهتمون لأمرنا، ذلك أمر مهم وضروري، ليس بالنسبة لي ولطلبتي، وإنما لنا جميعًا، وحتى جيراننا من غير

البشر، نحن نريد أن نحب ونجد من يحبنا، يجب أن نقبل الآخرين ونريد أن يقبلنا الآخرون، ونتمنى أن يتذكرنا الناس ونحب أن يدللونا، وينبغي أن نقبل ما نحن عليه، وذلك كله ليس بالأمر العسير، نستطيع ببساطة أن نكون كذلك.

دخلت امرأة لتتحدث عما كتبَتْه، وراحت تقرأ لي بصوت عالٍ، كانت رسالة حصيفة موجهة إلى صديقتها العزيزة، وكانت الرسالة للوداع، فلم أعلق كثيرًا، لكنني سألتها عندما انتهت من القراءة قائلًا: كيف تشعرين بشأن رحيلها؟

بدأت في البكاء ثم راحت تتنهد بأنفاس سريعة ولم تستطع الإجابة على سؤالي.

قلت لها بعد أن هدأت قليلًا: اكتبي ما تشعرين به فوق الورق.

قالت: هل تعني أن نضع عواطفنا ومشاعرنا في أوراقنا؟

لم أقل شيئًا لكن ابتسامة رقيقة راحت ترتسم فوق وجهي.

عادت في اليوم التالي برسالة جديدة، وحين بدأت في القراءة كانت تتوقف كثيرًا بين جملة وأخرى لأنها بدت متأثرة ومنفعلة بما تقرأ. ناولتني الرسالة وسارعتُ بقراءتها فوجدت نفسي أتوقف أيضًا بين حين وآخر، وعندما استطعت الكلام قلت: رسالة جيدة، إنها حقًّا كلمات جيدة ومعبرة.

قالت: لقد فهمت.

كان اليوم الأخير حين فكرت لمدة طويلة فيما يجب أن ننتهي إليه ويكون كافيًا لمنحنا شرف المشاركة، كنت موجودًا داخل الفصل حين دخل الطلبة وظللنا نتحاور ونتبادل الأفكار حتى جاء وقت البداية، فوقفت ومضيت نحو السبورة ثم أمسكت ببعض الطباشير وحركت يدي وكأنني سألقى بالطباشير في اتجاه الحائط الخلفي ثم توقفت فضحكوا، بدأت أكتب كلمات وتعبيرات موجزة من وحي أشياء قمنا بها معًا، كتبت عن حفلة شواء الهامبورجر والسجق، وعن طعام النباتيين، ثم كتبت عن تلك الليلة التي قمت فيها بعرض أحد الأفلام، والليلة الأخرى التي شاهدنا فيها فيلم «طار فوق عش المجانين» بطولة «جاك نيكلسون».

قال أحدهم متسائلًا: أتلك أمثلة من السير فوق الماء؟

أجبت: ها قد أخرجت شخصًا ما من ذلك النمط المنظم من الحياة الاجتماعية ومن الأعراف والتقاليد المعروفة الساكنة.

قال آخر: القاعدة الأولى في الكتابة.

كتبت ما قاله فوق السبورة.

قالت واحدة من الفصل بصوت عالٍ: دع الأطفال يخرجون من دورة المياه.

ظللت أدور حول نفسي وألقيت بالطباشير ثم التقطت واحدة وكتبت ما قالته فوق السبورة.

– إنه الوقت الذي أجبرتنا فيه على كتابة الأشياء التي نفتخر بأننا قمنا بإنجازها في حياتنا.

– هي تلك الليلة التي حاول فيها الطلبة الآسيويون أن يعلمونا استخدام العصا في تناول الطعام.

قال واحد من الرجال: هل كانوا يعلموننا فعلًا أم أنهم كانوا يسخرون من عجزنا.

– والوقت الذي حاولنا فيه أن نجعل «ديريك» يمشي كالقمر.

– حاولنا. تلك هي كلمة السر.

– لعب الكرة بعينين معصوبتين.

– الطفل المشاغب.

– مرق الماشية.

– الرصاصة.

– تلك الليلة التي كتبنا فيها قصص الأشباح.

– العرف والتقاليد.

– أوه، يا إلهي، هل تتذكر الكعكة المحلاة برقائق الشوكولاتة؟

كنت أكتب بأسرع مما أستطيع وأتحرك من أول الحجرة إلى آخرها، وكانوا ما يزالون يتحدثون بصوت عالٍ، وكان الوقت يمضي.

كرر الرجل السؤال نفسه الذي اعتاد أن يسأله: وما الهدف؟

قمت بتسجيل السؤال فقال: لا، ما الهدف مما تفعله الآن؟

استدرت ناحيته ولم أعرف ما يمكنني قوله.

راحت المرأة التي كتبت رسالة الوداع إلى صديقتها فجأة تضرب بيدها فوق المقعد ثم صرخت قائلة: لقد عرفت الهدف، الهدف هو أنه لا يستطيع إخبارنا بالهدف، وإنما علينا أن نكتشفه بأنفسنا.

مضيت نحو مقعد شاغر بجوارها وجلست ثم وضعت قطعة الطباشير فوق مقعدها وقلت بهدوء ولكن بصوت عالٍ كي يسمع الجميع: لا يوجد شيء آخر يمكنني تعليمه لكم، حظ سعيد لكم واستمتعوا بوقتكم.

إن مأساة التعليم الصناعي تكمن في صنع كل ما هو سيئ كالقابلات اللاتي يشرفن على مولد طلبتهم ومدرسيهم، واللاتي يتحملن مسئولية كبيرة ومرعبة، كثير جدًّا من المدرسين مثل كثير من الطلبة وكثير من العمال في كثير من الحقول الصناعية وكثير من الكتَّاب أيضًا وعدد لا بأس به من الساسة، وكذلك العديد من الناس، الذين استطاعوا الحفاظ على إنسانيتهم رغم نشأتهم في ظل نظام تعليمي بائس، وفي ظل القيام بأعمال لا يرغبون فيها، ومع وجود إغراء المال.

إذا كان الوصول بالناس إلى أن يكونوا أشخاصًا آخرين غير أنفسهم هو واحد من أكثر الخطايا، فلا ينبغي أبدًا أن نغفر لنظام التعليم الصناعي.

يوجد البديل على أية حال، أو بالأحرى هناك كثير من البدائل، ما دام يوجد كثير من الناس، وخاصة مع وجود الناس الذين يتحلون بالنشاط والحيوية، وعلى علاقة فكرية بمجتمعاتهم التي تشمل أساس حياتهم والأرض التي يعيشون عليها وينشئون بها، والتي تعمل على دعمهم ومساعدتهم.

سمعت أنه من خلال ثقافتنا المميتة تكون غالبية الأفعال الثورية التي يقوم بها أي شخص نابعة من القلب والعاطفة، يجب إذن أن تتبعوا قلوبكم، إن أكثر الأعمال الثورية والأخلاقية التي تستطيع القيام بها لمساعدة الآخرين هي أن تساعدهم على اكتشاف قلوبهم الحقيقية، أي اكتشاف شخصياتهم والعمل على تعريفهم بآرائهم ومواقفهم ومساعدتهم على اكتشاف أنفسهم، ذلك أمر أسهل كثيرًا مما يبدو.

الوقت قصير، إنه قصير بالنسبة لكوكبنا الأرضي الذي هو بيتنا وملاذنا، والذي يتم قتله بينما نحن لا نفعل شيئًا، وبالنسبة لكل أولئك الطلبة فإن الوقت أقصر مع حياتهم التي تنزلق منهم مع كل تكة من تكات الساعة الملتصقة فوق حائط الفصل.

كثير من العمل يجب القيام به فماذا تنتظرون؟ لقد حان وقت البداية.

المراجع

- Abbey Edward إدوارد آبي، Desert Solitaire «ناسك الصحراء»، نيويورك ١٩٦٨م. لا شك في أنه كتاب مذهل وهو أفضل كتب آبي.
- Abbot Edwin إيدوين أبوت، A Romance of Many Dimensions «رومانسية الأبعاد»، ١٩٨٤م، أعيدت طباعته بمنشورات دوفر Dover Publication، نيويورك ١٩٩٢م. إنه كتاب صغير مثير ومحرك للعقل، ويؤكد على إعمال العقل، كما أن ثمنه دولار ونصف فقط، فلا يوجد عذر إذن في عدم اقتنائه وقراءته.
- Booth Wayne واين بوث، Is There Any Knowledge That A Man Must Have? «هل ثمة معرفة ينبغي على الإنسان اكتسابها؟» An Anthology of Expository, Prose «مقتطفات من النثر التوضيحي»، الطبعة السابعة، نيويورك ١٩٨٨م، Norton & Co.

Evans Arthur آرثر إيفانز، Witchcraft and the Gay Counterculture «الفتنة والثقافة المضادة»، بوستون ١٩٧٨م. اكتشفت هذا الكتاب من خلال مجلة Green Anarchy وأنا سعيد جدًّا بهذا الاكتشاف، إنه بمثابة هدية ذات قيمة عالية، وبخاصة الفصل الذي يحمل عنوان Sex Among the Zombies «الجنس خلال القوى فوق الطبيعية»، إنه رابط مدهش عن الكبت الجنسي والعنف الناتج عن الحضارة.

عنوان دار النشر: Fag Rag Books, Box 331, Kenmore Station, Boston, MA 02215.

Farber Jerry جيري فاربر، مقالة رائعة وجيدة وذات تأثير كبير، ويمكن مطالعتها على الإنترنت من خلال:

http://www.soilandhealth.org/03sov/0303critic/030301studentasnigger.html.

ورغم كتابتها في العام ١٩٦٩م فإنها لا تزال وثيقة الصلة بالموضوع.

Madox Ford فورد مادوكس، اقتُبِسَت من كتاب «بول أونيل» و«جين فاولر» الجميل «مذكرات كاتب»، فيلادلفيا ١٩٨٤م.

- Fralin Francis فرانسيس فرالين، The Indelible Image «الصورة التي يتعذر محوها أو إزالتها»، صور فوتوغرافية منذ حرب ١٨٤٦م وحتى الوقت الحاضر، Harry N. Abrams هاري أبرامز، نيويورك ١٩٨٥م. أحد أفضل الصور الفوتوغرافية التي تصور الحرب، والتي تحولت إلى رسالة قوية لإدانة الحرب، ولم يسبق أن شاهدت مثلها من قبل.
- Foucault Michel ميشيل فوكولت، The Birth of the Prison Discipline & Punish «أصل السجن»، ترجمة Alan Sheridan آلان شيريدان، نيويورك، Vintage Books 1979. كتاب رائع يعبر عن كيفية العيش في مجتمع نراقب فيه أنفسنا بشكل دائم، إنه كتاب يجب أن يحتل أولوية القراءة لدى أي شخص مجبر على الذهاب إلى المدرسة، لأنه بمجرد فتح الكتاب سيكتشف مدى قوته وأهميته.
- Fowler Gene جين فاولر، Running Press Book Publishers 1984.

Galeano Eduardo إيدواردو جاليانو، Memory Of Fire «ذاكرة الغضب»، ترجمة Cedric Belfrage سيدريك بيلفراج، نيويورك، Pantheon 1988. إن مجرد الكلمات لا تُوَفِّي هذا الكتاب حقه، فالمؤلف جاليانو كاتب رائع، وربما يكون هو الكاتب المفضل عندي.

- Gatto John Taylor جون تايلور جاتو، The Underground History of Amer-ican Education «التاريخ السري للتعليم الأمريكي»، Intimate Investigation Into The Problem Of Modern Schooling «تحقيق تفصيلي لمشاكل التعليم الحديث»، نيويورك، Oxford Village Press 2001. يمكن قراءة هذا الكتاب على الرابط التالي: http://www.johntaylorgatto.com.

Gruen Arno آرنو جروين، The Betrayal Of The Self «خيانة الذات»، The Fear of Autonomy In Men And Women «خوف الاستقلال عند الرجال والنساء»، ترجمة Hildergaarde and Hunter Hannum، نيويورك، Grove Press 1988.

The Insanity of Normality «جنون السواء»، واقعية المرض – نحو فهم الدمار الإنساني، ترجمة Hildergaarde and Hunter Hannum، نيويورك، Grove Weidenfeld 1992.

جروين أرنو على ما أعتقد هو الكاتب الأكثر استخفافًا في كتاباته عن تدمير الثقافة المسيطرة.

- Henry Jules جولز هنري، Culture against Man «ثقافة ضد الإنسان»، نيويورك، Random House 1963. يُعَد هذا الكتاب اكتشافًا مهمًّا للثقافة الأمريكية.
- Hesse Hermann هيرمان هيس، Demian، ترجمة «مايكل رولوف» و«مايكل ليبيك»، نيويورك، Bantam Books 1975.

إنه الكتاب الأول الذي أقرؤه للمؤلف «هيس هيرمان»، وقد أصبح من الكتب المفضلة بالنسبة لي.

- Johnson Charles تشارلز جونسون Interview in At the field's End «حديث مع عشرين من كتاب الشمال الغربي»، وقام بالتحرير Nicholas O'Connell نيكولاس أوكونيل، سياتل Madrona Publishers 1987.

أهدتني أمي هذا الكتاب في عيد ميلادي حين كنت ما أزال أتحسس كلماتي، وعندما كبرت أصبح الكاتب حلمًا بالنسبة لي.

- Kazantzakis Nikos نيقوس كازانتزاكي، Zorba the Greek «زوربا اليوناني»، ترجمة كارل ويلدمان، نيويورك، Simon and Schuster 1952.
- Keller Helen هيلين كيلر.
- King Stephen ستيفن كينج، Salem's Lot «نصيب سالم»، نيويورك، Signet 1975.

لا أعتقد أنني الوحيد الذي يرى أن هذه الرواية هي أفضل أعمال «كينج»، وإذا كنت أحد القلائل الذين لم يقرءوا هذه الرواية فلا بد أن تبدأ من الآن بقراءتها إلا إذا كنت تخشى مصاصي الدماء، وفي أي الحالات يجب أن تحاول قراءة The Dead Zone «منطقة الموتى» التي أعتقد بأنها قصة حب أكثر منها قصة رعب.

- The Memory Hole «مأزق الذاكرة». إنه واحد من آلاف المواقع التي تزودنا بنوع من التحليل غير متوفر أبدًا في الإعلام السائد أو في المدارس السائدة، وهو: http://www.thememoryhole.org/.
- Murray W. H. موراي The Scottish Himalayan Expedition لندن ١٩٥١م.

لقد استعنت بهذا الكتاب في المراجع لكي أقتبس منه افتتاحية الفصل المعنون: Falling In Love «الوقوع في الحب»، والنص المقتبس المنسوب إلى «جوهان فولفجانج فون جوته» هو نص آخر غير الموجود على الإنترنت، ولا يتعدى كونه أحد الملصقات الاعلانية، ولم يقم «جوهان» بقوله أبدًا.

- O'neil Paul بول أونيل، كما حدث مع النصوص التي اقتبستها من «مادوكس فورد» و«فاولر جين» حصلت على هذا النص من كتاب صغير وبارع بعنوان Insights from Writers With Space For Personal Notes فيلاديلفيا ١٩٨٤م.
- Pink Floyed فلويد بنك، The Lyrics to Time تأليف Roger Waters، ١٩٧٣م.
- Rogers Carl كارل روجرز، On Becoming a Person بوستون ١٩٦١م.

حصلت والدتي على هذا الكتاب حين كانت تدرس في فصل علم النفس عام ١٩٧٠م، ولست أدري كيف وجدته بين أرفف مكتبتي، وظل في مكانه لعدة سنوات دون قراءة، ثم لسبب غير معروف قمت بالتقاطه من بين الأرفف ذات مساء متأخرٍ قبل دخولي قاعة المحاضرات في الصباح التالي في جامعة واشنطن الشرقية، وكنت قد قرأت أكثر من نصفه في تلك الليلة، وبالرغم من أنه كتاب طويل وكان التعب قد أصابني عندما وصلت إلى الفصل القصير عن التعليم، إلا أن كلماته قد أيقظتني، وعرفت بأنني لم أقرأ في حياتي أفضل من وصفه عن معنى أن تكون مدرسًا.

- Trumbo Dalton دالتون ترومبو، Johnny got his gun، نيويورك، بانتام ١٩٧٠م. إنها أفضل رواية قرأتها عن مناهضة الحرب، وأعتقد أنها واحدة من أفضل الروايات، وقد ترك أسلوب «ترومبو» أثرًا بالغًا في نفسي.
- William Terry تيري وليام، Desert Quartet «رباعية الصحراء»، نيويورك، Pantheon Books 1995. إن «تيري وليام» كاتب مذهل، كما أنه متحدث فاتن وساحر، وإذا سنحت لأحدكم فرصة الاستماع إليه فلا ينبغي أن يتردد أبدًا.

هنـــداوي